شعر « شوقي » :
بين الوجدان الفردي والجماعي

د. رجاء عيد

أستاذ النقد الأدبي بكلية الآداب ببنها

جامعة الزقازيق

من المعروف أن الوجدان - في علم النفس - جملة الظواهر الانفعالية كالحب أو البغض ، واللذة أو الألم ، وإلى هذه الظواهر الانفعالية ترجع مختلف الأحاسيس النفسية . والشاعر الجيد - وكذلك الكاتب - يكون إبداعهما معبرا عن هذا الوجدان الذي تتشابك فيه - وتتداخل كذلك - جملة الأحاسيس والمشاعر .

ولعل البيتين التاليين من قصيدتين مختلفتين لشوقي قد نلمح - من مجملهما - احتفالا بالقيمة الشعورية ، أو الأثر العاطفي أو الوجداني :

والشعر ما لم يكن ذكرى وعاطفة ... أو حكمة فهو تقطيع أوزان [١]

والشعر من حيث النفوس تلذه ... لا في الجديد ولا القديم العادي [٢]

ومهما يكن من شك أو يقين في توافق البيتين بما نحن فيه ، فإن اليقين الذي لاشك فيه أن البحث عن ذات الشاعر وتقصي وجدانه ، أو استكشاف غور شعوره ، واستشفاف عمق أثره وتأثره لا يكون بإلقاء نظرة كسولة ، ترمق - في تراخ - عنوان قصيدة أو قصائد .

إن المعطي الشعري يرتكز - فيما يرتكز - على ما يتشكل في وجدان الشاعر وعلى حسب ما اختزنته أو اكتنزته المشاعر النفسية من عواطف متباينة تجاه صور

الحياة المتعددة ، أو ما تمثله وجدانه من استكناه ما يضطرب في نفوس الآخرين ٠

وليكن سندنا - في الجملة الأخيرة - هذين المقتبسين الوضيئين من أستاذنا الدكتور عبد القادر القط ، ونلتقطهما من مجمل حديثه عن مسرحية " مجنون ليلى " لشاعرنا : أحمد شوقي ، يقول أولها :

« ٠٠٠٠ أما في مثل ذلك الموقف من مسرحية " مجنون ليلى " فقد تمثل " شوقي " طبيعة الشخصية ، وعاش معها بعواطفه ، وتخيل كل ما يمكن أن يدور في خبايا نفسها من خلجات ، فجاء تعبيره عنها صادقا يجمع بين ما يحسه الثاكل من أسى ، وما قد يفكر فيه أمام لغز الموت والحياة »[٣] ٠

ويقول في ثانيهما :

« وشعر شوقي في مسرحياته طراز فريد في الشعر العربي كله ٠٠٠ وقد تجلت عبقرية الشاعر على حقيقتها ، وفي أبدع صورها في تلك " القصائد " التي عبّر بها عن عواطف شخصياته المسرحية وأزماتها وفواجعها ٠٠ ولاشك أن هذا التميز الواضح يرجع إلى أن المسرحية بطبيعتها تحتم على الشاعر أن يرتد إلى نفسه وإلى ملاحظاته عن سلوك الناس ومشاعرهم »[٤] ٠

ولعل المقتبسين السابقين يسمحان لنا بالقول إن منعكسات " الخارج " والتي تشكل ما يعتمل في الذات ، أو ما يصطرع في الشعور ، تكون فاعلة - بالضرورة - في حركة القصيدة ، وعلى حسب كثافة الأثر والمؤثر يكون القول الشعري صدى لها وتعبيرا عنها ٠

ومن ثم يكون المنتج الشعري تعبيرا عن معاناة فردية ، أو معاناة جماعية ، وفيما نتناوله تحت ما نسميه بالوجدان الفردي والجماعي ، لا يعني - كما نرى - ثنائية تتخالف أو تتفارق إن ترافقا وإن توافقا يظلان مصطحبين - أو متلازمين - في مجمل الكون الشعري عند " شوقي " ٠ ولعل النموذجين التاليين من قصيدتين مختلفتين يكونان شاهدا ودليلا على تشابك الفردية والجماعية ، وتمازج الذات بذوات سواها ، أو تلبس الأنا بأنوات الآخرين :

يقول " شوقي " :

وإنــي لغريد هذي البطاح تغـــذي جناهـــا وسلسالها
ترى مصر كعبـة أشعـاره وكـــل معلقــــة قالهـــا
أدار النسيـب إلى حبهـا وولى المدائـــح إجلالهـــا[٥]

ويقول في أبيات أخرى مشهورة لها شجو وشجن :

ربَّ جـار تلفتت مصـر توليه سؤال الكريم عن جيرانـه
بعثتني معزيـــا بمآقـي وطني أو مهنئـــا بلسانـــه
كان شعرى الغناء في فرح الشرق وكان العزاء في أحزانه
قد قضى اللـه أن يؤلفنا الجرح وأن نلتقي على أشجانه[٦]

ولعل المقتبس التالي من مقدمة ديوانه ، يؤكد إدراك الدكتور محمد حسين هيكل لما ارتأيناه ، وإن كان في مفتتح قوله - كما سيتضح - كأنه انساق إلى هرطقة بعض شانئ " شوقي " حين " يفصلون " ما يبتغونه على " مقاس " أحادي مصطنع .

إن الجملة الأولى في قـول " هيكل " : « على أن شـوقي وإن كـان شـاعـر مـصـر وشاعـر العرب وشاعر المسلمين . . فله ذاتيتـه التي لا تخـفى . . » . كأنها - تلك الجملة - تكرس ثنائيـة بين أولاها وأخراها ، وكأن أخراها : « فله ذاتيـتـه التي لا تخفى» مدافعة أو منافحة عن " شوقي " ، وما كان الدكتور " هيكل " بحاجة إليها لولا ضجيج تلك السطوة المعروفة ، والعنف الذي تعرفه فيمن أشاع ما أشاع ، وأسرف فيما أسرف حول ما دعاه بـ " الغيرية " في شعر " شوقي " .

يقول " هيكل " : « . . وإنك لتعجب أكثر الاحيان حين ترى عنوان قصيدة من قصائده ، ثم لا تجد في القصيدة غير أبيات معدودة تدخل في موضوع العنوان ، بينما سائرها حكمة أو غزل ، أو وصف وما شابه ، لشوقي هواه ، وما أحسب شاعرا بالغ في ذلك ما بالغ شوقي ، فشيطان " شوقي " أشد حرصا على متاعه بالشعر للشعر منه بموضوع خاص . أما الأبيات التي يملك موضوعها أبياتها جميعا فهي القصائد التي

ملك موضوعها " شوقي " ، فأنساه نفسه بما كان له في هذا الموضوع من لذة ومتاع ، وما أفاضته على شاعريته من وحي وإلهام »(٧) .

* * *

من السبيل الذي افتتحنا به القول : ومن المنظور الذي ارتأيناه سوف نعكف على استبصار وجدان " شوقي " فيما ينبث بين مضامين مختلفة ، وفيما يخلص إلى " الذاتية " التي تستخلص لنفسها قصيدة كاملة .

وحسبما استقصينا فإن الانفلات من " الآخر - المناسبة أو الغرض - والخلوص إلى ابتثاث ما يعتمل في الذات تكاد تكون سمة لا تخطئها عين الناظر المتوسم ، والذي يكون بمكنته - كذلك - استبصارها في كثير من تلك القصائد ، والتي كان بعضها صيدا رخيصا لمن في قلبه مرض ، أو لمن " غطى هواه - وما ألقى - على . . " بصره " .

إن " مناسبة " القصيدة سرعان ما تبهت وتشحب حتى في لحظتها المعيشة ، وسرعان ما تختفي وتنطوي حتى في آنيتها المقولة فيها ، وتظل " ذاتية " شوقي - في كثير من تلك القصائد ، تنفث عصارة شجية يرفدها وجدان شاعر أصيل .

ولسنا في مساجلة ندافع فيها عن " شوقي " ولكننا نذكر - فقط - بالمتنبي ، وهل يجحد جاحد كيف تشابك في سيفياته - على سبيل المثال - وجدانه الفردي والجماعي بل وفي سواها كذلك ؟ ونسوق أمثلة لما نقول :

إن قصيدة " شوقي " التالية : " إلى عرفات اللّه " سرعان ما تخلص من مناسبتها الضيقة ، وهي : حج الخديوي عباس حلمي الثاني ، لتكون - في مجملها - مناجاة ذاتية شاجية . ولعل البيت التالي الذي نتعجل بذكره لا يمكن أن يكون مقصودا به " الخديوي " وإلا كان هجاء أو قدحا :

ويارب هل تغنى عن العبد حجة   وفي العمر ما فيه من الهفوات

إن ما يلي من أبيات تنفلت - كما أشرنا - من محدودية وجهتها أو توجهها

لتنطلق إلى فضاء أرحب ، وتتصاعد في ابتهالية روحية شاجية ، أو مناجاة ذاتية ضارعة وتفترش " أناة " الشاعر ساحة قوله :

أرى الناس أصنافا ومن كل بقعة إليك انتهوا من غربة وشتات
تساووا فلا الأنساب فيها تفاوت لديك ولا الأقدار مختلفات
.. ويارب هل تغني عن العبد حجة وفي العمر ما فيه من الهفوات
وتشهد ما آذيت نفسا ولم أضر ولم أبغ في جهري ولا خطراتي
.. ولا بت إلا كابن مريم مشفقا على حسّدي مستغفرا لعداتي

وإن مختتم القصيدة يحتضن فردية وجدانه الذاتي ، ليتضام مع شفافية وجدانه القومي بأبعاده المنفسحة ، وتخومه المتسعة ، وكلاهما - عند شوقي - لهما خصيصة حضور يتراوح بين التبدي والتماهي ، كما سيتضح في نماذج تالية .

يقول " شوقي " في مختتم القصيدة مخاطبا رسول الله ﷺ آسياً على حال أمته :

شعوبك في شرق البلاد وغربها كأصحاب كهف في عميق سبات
بأيمانهم نوران : ذكر وسنة فما بالهم في حالك الظلمات[8]

إن مثل هذا التضرع ، أو تلك الشكاة الضارعة ، نلحظها - كذلك - في كثير من قصائده ، ونكتفي بالنماذج التالية من قصائد مختلفة :

ما جئت بابك مادحا بل داعيا ومن المديح تضرع ودعاء
أدعوك عن قومي الضعاف لأزمة في مثلها يلقى عليك رجاء[9]
يارب هبت شعوب من منيتها واستيقظت أمم من رقدة العدم
سعد ونحس أنت مالكه تذيل من نعم فيه ومن نقم
فالطف لأجل رسول العالمين بنا ولا تزد قومه خسفا ولا تسم[10]

وبالمثل نجد هذا الابتثاث لوجدانه الذاتي متجاوزا مناسبة القصيدة ، والتي عنوانها : " ذكرى المولد " :

وأحباب سقيت بهم سلافا وكان الوصل من قصر حبابا

(السلاف : خالص الخمر ٠ وحباب الماء : نفاخاته التي تعلوه)

ونادمنا الشباب على بساط من اللذات مختلف شرابا
وكل بساط عيش سوف يطوى وإن طال الزمان به وطابا [١١]

إن النماذج السابقة تصعد تشكيلاتها من شعور شفيف ، أو وجد تأملي رهيف ، وربما نلحظ - في النموذج الأخير - ما قد يشي بغلبة التفنن على الفن ، أو سطوة التخيل على نفثة التأمل ، ولكننا نتذكر - كذلك - أن الوسيط اللغوي هو المعجم الكلاسيكي في أدبياته الأدائية المعروفة ، والتي قد يكون مثيلها هذه الأبيات التالية ، وكأنها - مع ذلك - تنفث نفثات متقطعات تتواصل برباط خبيئ ، يتخفى خلف " مناسبة " القصيدة ، والتي تكون - هذه المرة - ذكرى " استقلال سوريا " :

يقول " شوقي " :

حياة ما نريد لها زيالا ودنيا لا نريد لها انتقالا
وعيش في أصول الموت سم عصارته وإن بسط الظلالا
وأيام تطير بنا سحابا وإن خيلت تدب بنا نمالا
نُريها في الضمير هوى وحبا ونُسمعها التبرم والملالا [١٢]

ونكتفي بنموذج أخير ، نستله من قصيدته المشهورة عن " زحلة " حيث يلتفت " شوقي " إلى ذاته مخاطبا قلبه ، أو ابن جنبه :

ويح ابن جنبي كل غاية لذة بعد الشباب عزيزة الإدراك
لم تبق مني يا فؤاد بقية لفتوة أو فضلة لعراك [١٣]

* * *

ولم يكن ما نقوله وقفا على موضوع بعينه ، أو غرض شعري بذاته ، إن ما يندرج تحت مسماه التراثي : " الرثاء " سرعان ما ينفلت - أيضاً - من قيد " المناسبة"، ومن أسر " المرثي " ، ليكون - المرثي - إذا استعرنا مقولات محدثة ، الشخصية التي

يبكي الشاعر على كتفها ما ينوؤه من شجن ، أو ما ينوشه من ألم ، أو ما يثقله من مرارة الشعور بذلك المتربص بنا منذ صرخة مولدنا ولحظة وجودنا ·

ومن ثم تنبعث في " المرثية " نفثات وجدانية ، كأنها لحن جنائزي يأس أو يتأسى ويألم أو يتأمل إن لشوقي قصيدة في رثاء " أمين الرافعي " ، ونلحظ أن تسعة عشر بيتا من مفتتحها تخلص إلى ما أشرنا إليه ، ثم تتابع - كذلك - نفثات تأملية ، تتناثر في سياق القصيدة ، وتتوالى - كذلك - شذرات محملة بذلك القلق الوجودي ، وكأنه نغم القصيدة الخبيئ ولحنها المستسر · يقول منها :

مال أحبابه خليلا خليلا	وتولى اللـــذات إلا قليلا
نصلوا أمس من غبار الليالي	ومضى وحده يحث الرحيلا
جردوا من منازل الأرض إلا	حجرا دارسا ورملا مهيــلا
وتعروا إلى البلى فكساهم	خشنة اللحد والدجى المسدولا
في يباب من الثرى رده الموت	نقيا من الحقود غسيــلا
طرحوا عنده الهموم وقالوا	إن عبء الحيـاة كان ثقيلا
·· رب يوم يناح فيه علينا	لو نحس النواح والترتيــلا
بمراث كتبن بالدمع عنا	أسطرا من جوى وأخرى غليلا
يجد القائلون فيها المعاني	يوم لا يأذن البلى أن نقولا(١٤)

ولما كنا لا نستقصي وإنما نمثل ونستشهد فإننا نكتفي بأبيات من قصيدة أخرى وكأنها امتداد الصدى لذلك الصوت الأسيان فيما تنفثه - قديما - شكاة - امرئ القيس :

إلى عرق الشرى وشجت عروقي	وهذا المـوت يسلبني شبابـي

وإنه ذلك اليأس اليائس في قول " عدى بن زيد العبادي" :

فا رعوى قلبه و قال : فمـا	غبطة حى إلى الممات يصير

وإنه تلك الرغبة الفاجعة في الرحيل في قول " كعب النخعي" :

لم يبق يا أسماء من لداتي	أبو بنين أو أبو بنـــــات

إلا يعد اليوم في ممات | هل مشتر أبيعه حياتي

ويقول « شوقي » :

يا خليلي لا تذمًا لي الموت | فإني من لا يرى العيش حمدا
أنا من بلَّ دمعه المهد | بالأمس ولولا التعليل لم يأو مهدا
ودعته النساء من حيث | بشرن وليدا جم الحياة مفدى
وتولته في البداية أثداء | تدر الردى وتحسب شهدا(١٥)

إن البيتين الأخيرين يحتضنان تفارقا يتضام بينهما ، ويضمان تقابلا يتوحد منهما . بينما يكشف البيت الأخير نفثة وجودية ، مصوغة في مكتنز أدائي مهيب ، وإنه ليختصر ساحة أو مساحات تأملية ، تنحو هذا السبيل ، ويختزل مسردا طويلا عن تشابك ثنائية الموت والحياة ، والوجود والعدم ، فيوجز - في جمال وجلال - مضامين قصائد تتناثر وتتجزأ ، ويكون مؤداها مثل هذه المقولات المعروفة : إننا نولد على حافة القبر ، ومثل : « لولا الحياة ما عرفنا الموت » ، كما أنه - البيت الأخير - يتجاوز - كذلك - المباشرة الوعظية والمخاطبة الذهنية في بيت أبي العلاء :

وشبيه صوت النعي إذا قي | ـس بصوت البشير في كل ناد

وربما نلحظ في بعض « مراثي شوقي » ما يكاد يكون متنفسا يومىء به لا شعوريا إلى « جماعة » من شانئيه ، وكأنه يلبس ذاته الغاضبة ذات من يرثيه ، ولعل البيت الذي نتعجل بذكره - الآن - كأنه خطاب الشاعر لنفسه متماهيا في مخاطبة من يرثيه :

انظر فأنت كأمس شأنك باذخ | في الشرق واسمك أرفع الاسماء

ففي النصين التاليين ، كأن شوقي - كما ذكرنا - ينفث في مرثاته ما تكظمه ذاته مما يسوؤها من تطاول أو تجاوز ، وما يؤلمها من سرف بعض ناقديه .

في رثاء شوقي لحافظ إبراهيم ربما نلحظ المراوحة بين مخاطبة « حافظ » وبين محاورة « شوقي » أثر مخاطبته لذاته ، بينما يخلص آخر بيتين - مما يلي - إلى ما

يشبه تحاورا ذاتيا لا يخفى ، ويكون البيت الأخير واضح الإيماء والمغزى . يقول « شوقي » :

ووددت لو أني فداك من الردى والكاذبون المرجفون فدائي
الناطقون عن الضغينة والهوى الموغرو الموتى على الأحياء
من كل هدام ويبني مجده بكرائم الأنقاض والأشلاء

ثم يكون هذان البيتان :

ما حطموك وإنما بك حطموا من ذا يحطم رفرف الجوزاء (١٦)
انظر فأنت كأمس شأنك باذخ في الشرق واسمك ارفع الاسماء

وبالمثل فمرثاته للمنفلوطي لاتخلو - كذلك - من مراوحة بين الراثي والمرثي ، حيث ينتحي " شوقي " بذاته ، يبثها مرارة وشكاة ، أو عزاء ومواساة .

يقول شوقي :

سكن الأحبة والعدا وفرغت من حقد الخصوم ومن هوى الأشياع
.. فاذا مضى الجيل المراض صدوره وأتى السليم جوانب الاضلاع
فأفزع إلى الزمن الحكيم فعنده فقد تنزه عن هوى ونزاع (١٧)

وفي مختتم ما ألمحنا به عن تحولات الرثاء عند " شوقي " لا تفوتنا الإشارة الخاطفة إلى مرثية " شوقي " لأبيه ، وهي من مفتتحها إلى مختتمها ذات قراءة إنسانية بالغة ، تتجلى في مناجاتها الذاتية الشاجية ، وفي عكوفها على تجسيد تذكارات حانية ، وفي خلوصها من أية نبرة خطابية أو زخرفية بيانية ، وحيث تنتفي - كذلك - مألوفات بكائية مكرورة ، وتكرارات رثائية معروفة ، بينما يتكاثف إيقاعها : في اكتناز قرارها النغمي ، وتآلف تماثلاتها الصوتية ، وتبادل تشكيلاتها اللغوية ، يقول « شوقي » :

أنا من مات ومن مات أنا لقي الموت كلانا مرتين
نحن كنا مهجة في بدن ثم صرنا مهجة في بدنين

ثم عدنا مهجــة في بــدن ... ثم نلقى جثة في كفنين
.. ما أبـي إلا أخ فارقتــه ... وده الصدق وود الناس مين
طالما قمنا إلى مائـــدة ... كانت الكسرة فيها كسرتين
.. وتمشينا يـدي في يـده ... من رآنا قال عنا أخوين
.. يا أبي والموت كأس مرة ... لا تذوق النفس منها مرتين
كيف كانت ساعة قضيتهـا ... كل شيء قبلها أو بعـد هين
.. ليت شعري هل لنا أن نلتقي ... مـرة أم ذا افتراق الملوين
وإذا مت وأودعـت الـثرى ... أنلقَّى حفرة أم حفرتين(١٨)

(الملوان : الليل والنهار)

* * *

إن مصاحبة « الآخر » في معاناته ، وتحاوره معه أو مناجاته ، فيما يشبه البكاء على كتف الشخصية - كما ألمحنا من قبل - ربما نتحسس ملامحه أو نتبصر معالمه ، فيما يتراءى - بشيء من الأناة - في عدد من قصائد « شوقي » ولعل أبرزها بتشكيل مغزاه ، أو الصقها بتوظيف منحاه ، قصيدته : « صقر قريش » : عبدالرحمن الداخل ، ويحتذى « شوقي » نسق الموشحة الأندلسية ونظامها المعروف . وإنه لإيهام فني جميل . كأنه بهذا الإيماء يستشير ما يتداعى في وجداننا التذكري من وشائج بين الموشح والأندلسي ، أو ما يتلبس خاطرنا من تذكارات . وإذ يفرح «شوقي» من إشاراته لمعاناة « عبد الرحمن الداخل » الأولى لحظة هروبه ، وساعة مصرع أخيه كما نعلم ، فإن « شوقي » سرعان ما يتوحد مع شخصية « صقر قريش » .

ولنلحظ في المحاورة - أو المناجاة - التالية كيف تختزل في كثافتها ، وتختصر في تكثيفها ما يبثه « شوقي » من معاناة باطنة ، وهي معاناة صامتة لا تذرف دمعا ، ولعلنا نتذكر المقولة : « الأحزان العميقة لا تعرف طريق الدموع » ونتذكر - كما سيلي - قول « شوقي » : « شر الدمع ما ليس يراق » :

.. قلت لليل والليل عواد ... من أخو البث ؟ فقال : ابن فراق

قلت : ما واديه ؟ قال : الشجو واد ... ليس فيه من حجاز أو عراق

قلت : لكن جفنه غير جواد ... قال : شر الدمع ما ليس يراق

..

أيها الصارخ من بحر الهموم ... ما عسى يغنى غريق عن غريق

إن هذا السهم لي منه كلوم ... كلنا نازح أيك وفريق

.. خذ عن الدنيا بليغ العظة ... قد تجلت في بليغ الكلم

الأماني حلم في يقظة ... والمنايا يقظة من حلم

كل ذي سقطين في الجو سما ... واقع يوما وان لم يفرس

(السقط : جناح الطائر)

وسيلقى حينه نسر السما ... يوم تطوى كالكتاب الدرس(١٩)

ولا تبتعد عن هذا السبيل ، ولا تفترق عن هذا المتجه ، مناجاة « شوقي » لـ «نائح الطلح » فيما يبثه « شوقي » ما يعتمل في وجدانه ، وفي البيتين الأخيرين - مما يلي . تختفي المباشرة ، ويتماهى كلاهما - الشاعر والطائر - في صاحبه ، ولا نجحد - في هذا السبيل - مستجدات شعرية مفارقة ، ولانتجاهل - بالضرورة - تحولات فنية معاصرة :

يا نائح الطلع أشباه عوادينا ... نأسى لواديك أم نشجى لوادينا

ماذا تقص علينا غير أن يدا ... قصت جناحك جالت في حواشينا

رمى بنا البين أيكا غير سامرنا ... أخا الغريب - وظلا غير نادينا

.. تجر من فنن ساقا إلى فنن ... وتحسب الذيل ترتاد المؤا سينا

أساة جسمك شتى حين تطلبهم ... فمن لروحك بالنطس المداوينا(٢٠)

وربما تكون قصيدة « شوقي » عن « أبي الهول » ألصق بهذا المنحنى ، وأخلص إلى هذا السبيل . إنها - كما نرى- أقرب إلى مناجاة ذاتية ، تظل في مجال استبصار متوحد ، فيما يشبه إسقاطا وجدانيا ، واستغراقا تأمليا يتكئ على صورة أبي الهول ، وهي - كذلك - تمرق من حدود الوصف التجريدي ، أو جمود الرسم البلاغي .

ولا تتأبى - القصيدة - في بعض منحنياتها أن تفسح للناظر المتوسم رؤية أفسح ومدلولا أعمق عن تساؤلات غامضة في غور النفس الأنسانية عن غاية الرحلة والمبتغى :

إلام ركوبك متن الرمال لطى الأصيل وجوب السحر

وعن المصير والمنتهى :

« فأيان تلقى عناء السفر »

وعن عدمنا الآتي وفنائنا المنتظر :

« تزولان في الموعد المنتظر »

يقول شوقي :

أبا الهول طال عليك العُصُر وبلغت في الأرض أقصى العمر
فيالدة الدهر لا الدهر شب ولا أنت جاوزت حد الصغر
إلام ركوبك متن الرمال لطي الأصيل وجوب السحر
تسافر منتقلا في القرون فأيان تلقي غبار السفر
أبينك عهد وبين الجبال تزولان في الموعد المنتظر
كأن الرمال على جانبيك وبين يديك ذنوب البشر
كأنك صاحب رمل يرى خبايا الغيوب خلال السطر[٢١]

ونكتفي باللمحة التالية - في البيت التالي - والتي تؤكد ما ألمعنا إليه من الإسقاط النفسي :

أبا الهول ماذا وراء البقاء إذا ما تطاول غير الضجر ؟

* * *

في قصيدته « مصاير الأيام » يظل عنوانها حاضرا في بنيتها ، وفاعلا في كينونتها . إن الصور تتلاحق كمن يتتابع ، أو فيض يتوالى : وكأنها في نهر القصيدة ترصد حركة « الزمن » ، وترقب دورة الحياة ، وتكاد تلك الصورة في تواكبها

وتتابعها - تنافس كل واحدة أخراها أثراً وتأثيراً ، وتزاحم سواها رهافة تصوير وفرادة تعبير ٠

ولا يخفى في مسار تلك الصور ذلك الوجد الروحي ، ولا يغيب - في مدارها - ذلك الحنين الغامض لنداوة العمر وطراوة الصبا ، وإنه - كذلك - ذلك الوجدان الذاتي الذي يفترش ساحة القصيدة ، وينسج خيوطها اللغوية ، ويطرز تشكلها الأدائي ٠

إن تلك القوافي السلسة القارة في موقعها ، والمستقرة في موضعها كأنها خلقت وتخلقت في كينونة البيت الشعري ، لتصبح من لحمته وسداه ٠

إن النفثة الأولى مهاد شجيّ لمتذكارات شاجية مطرزة بالحنين والتحنان :

ألا حبذا صحبة المكتب — وأحبب بأيامه أحبب
ويا حبذا صبية يمرحون — عنان الحياة عليهم صبي

ولكن قبسة خاطفة تتسلل كومضة بارقة ، تومئ إلى « مصاير الأيام » :

مقاعدهم من جناح الزمان — وما علموا خطر المركب

وسرعان ما يخفت هاجسها ، وقد خلفت لمحة من قلق غامض ولمعة من خشية وتوجس ، ليعود - في بهاء وصفاء - ما يسترجعه « شوقي » من نقاوة الطفولة وأفراحها الفضة والتي يستعيدها - بعده - كذلك - أبو القاسم الشابي في قوله :

أيام كانت للحياة حلاوة الروض المطير
ووداعة العصفور بين جداول الماء النمير
أيام لم تعرف من الدنيا سوى مرح السرور [٢٢]

يقول « شوقي » في صياغته المتفردة :

فراخ بأيك فمن ناهض — يروض الجناح ومن أزغب
عصافير عند تهجي الدروس — مهار ، عرابيد في الملعب
خليون من تبعات الحياة — على الأم يلقونها والأب

إن القصيدة ينفسح عطاؤها ، ويتسع فضاؤها ، فهي قصيدة الزمن ، أو هي الزمن في القصيدة . ونكتفي - مسرعين - بالتقاط خاطف لحركة القصيدة ، وهي ترقب - في مدارها التأملي - تحولات الزمن وترصد دورة الأيام . إن القبسة الخاطفة والتي أشرنا إليها :

وما علموا خطر المركب

تكاد تكرس محور القصيدة ، وتشكل جوهر تحولاتها ، فهي ركيزة ما ينبثق من محنياتها وما يتدفق في سياقها ، وما يتولد من تأملاتها .

ولنلحظ - في أول ما يلي - كيف يكتنز شوقي في صوغه وصياغته ذلك الاستشراف للآتي :

.. وتلك الأواعي بأيمانهم	حقائب فيها الغد المختبي
ففيها الذي إن يقم لا يعد	من الناس أو يمض لا يحسب
وفيها المؤخر خلف الزحام	وفيها المقدم في المركب

وتستجد زمنية تنفي سابقها وتمهد للاحقها . وإن ايقاعا شاجيا يصحب خطوط الزمن ، ويصاحب رفقة الصبا الأول :

أ - ودار ⟵ الزمان
ب - فدال ⟵ الصبا
ج - وجدّ ⟵ الطلاب
د - وكدّ ⟵ الشباب
هـ - في الصعب ⟵ فالأصعب

.. ودار الزمان فدال الصبا	وشب الصغار عن المكتب
وجد الطلاب وكد الشباب	وأوغل في الصعب فالأصعب

ثم ترصد القصيدة بحدقة بصيرة متبصرة ، قرب المختتم ، ودنو المنتهى ، وتتشكل جسارة تصويرية ، تنبثق من نفثة وجدانية ، تبث شجوها وشجاها :

أ - وخدش ظفر الزمان

ب - وغيّض من بشرها

ج - وسرى الشيب متئدا

.. وخدش ظفر الزمان الوجوه ... وغيض من بشرها المعجب
سرى الشيب متئدا في الرؤوس ... سُرى النار في الموضع المعشب

ولعلنا نلحظ الإفادة من : « واشتعل الرأس شيبا » وكيف تنامت الصورة في « سوى النار في الموضع المعشب » .. ولعلنا نلحظ كيف يبرع شوقي « في التشكيل الصوتي للبيت نفسه ، حيث تتباطأ مدات الحروف في تنقلاتها ، وكأنها الزمن في تسلسله السري وفي سيره الخفي ، ولنلحظ استخدام المفردة : سرى :

سرى الشيب متئدا في الرؤوس ... سُرى النار في الموضع المعشب

وينتهى المسار . ويتوقف الترحال .

ولم يبق للرحلة - والرحالة - سوى حط الرحال

ولا ندري - في آخر البيتين الأخيرين - مدى ما تثيره المفردة : « السراب » والتي تتجاوز حدها التشبيهي الضيق ، لتنفتح على مشاعر متعددة ، ولنلحظ - في أولهما أيضا - كيف يعبر باقتدار عما عبر عنه « متمم بن فويرة » القديم في رثاء أخيه

فلما تفرقنا كأني ومالكا ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

يقول « شوقي » :

وغاب الرفاق كأن لم يكن ... بهم لك عهد ولم تصحب
إلى أن فنوا ثلة ثلة ... فناء السراب على السبسب(٢٣)

* * *

ولعل ما شاع ويشيع من رطانة نقدية حول ما قد يسمى بالنظرية الحيدية

للطبيعة، ربما يحتاج في كثير منه إلى شيء من التريث ، وشيء من العدل النقدي ، وليكن لنا هذا السؤال : ما الذي يدفع إلى وقفة أمام الطبيعة ، تطول أو تقصر ، تسهب أو توجز ؟ . وكما يقول : إن أفضل الأسئلة هي التي لا تحتاج إلى جواب .

ومن ثم فإننا نجيب عن السؤال بسؤال آخر : ما الذي انفعل له - وبه - ذلك الشاعر القديم في أبيات تدور في فلك بيته المشهور عن « السحاب » .

دان مسق فريق الأرض هيديه　　　يكاد يمسكه من قام بالراح

ألبس دافعه ما فاض من دهشته واندهاشه ، أو ما استثار وجدانه من عجب وإعجاب ، أو ما شاع في نفسه من رضاء وغبطة ، أو ما راقه وشاقه من احتشاد سحب يرتقب غيثها وما ينسكب من ريها ، ومثيله - أو قسيمه - ما عقده أبو تمام في بيته المشهور :

مطر يذوب الصحو منه وبعده　　　صحو يكاد من النضارة يمطر

ولتكن معنا - أول الأمر - هذه الأبيات المعروفة عن « الجزيرة » في قول شوقي :

وكأني أرى الجزيرة أيكا　　　نغمت طيره بأرخم جرس

حسبها أن تكون للنيل عرسا　　　قبلها لم يجن يوما بعرس

لبست بالأصيل حلة وشى　　　بين صنعاء في الثياب وقسِ

(ثوب قسى - وتكسر قافه - منسوب إلى قس ، وهو موضع قرب العريش من أرض مصر) .

فداها النيل فاستحت فتوارت　　　منه بالشط بين عرى ولبس (٢٤)

إن الأبيات السابقة تتجاوز سكونية الوصف ، وتفارق ماديته الجامدة ، وإن « شوقي » في مخيلته التصويرية - أو ملكته التخييلية - يلتقط برهافة بالغة شتات ما يتناثر ويتجزأ ، فيلم شذراته ، ويوحد فلذاته ، فتتغام وتتراس ، ثم تتمازج وتتشاكل .

فالجزيرة تتدفق في جنباتها حيوية الحياة ، وتنبعث عروسا شابة ، وفي زفاف

النيل بها .. نغمت « طيرها بأرخم جرس » وثوب الجزيرة العروس مطرز موشي الأصيل : « لبست بالأصيل حلة وشى » وفيما يخلو من شجر أو يتغطى ، يكون الثوب : « بين عرى ولبس » ويقبل النيل على عروسه الذي « قبلها لم يجن يوما بعرس » ، وهو - النيل - لم يعد ماء صامتا أو موجا صموتا ، فإنه نافث الحياة فيها : قُدها النيل » ، ولا يغفل شوقي في دقته التصويرية ، خجل « العرس » : « فاستحت فتوارت منه بالشط بين عري ولبس » .

* * *

وربما يتسرب هاجس يتشكك في التقاطنا ما سبق من سينية « شوقي » الطويلة، وهي غير مقصورة على ما نحن فيه ، ولذا نشير - فيما يلي - وبإيجاز إلى قصائد تخلص إلى ما نحن فيه .

وليكن معنا - من هذا السياق - أبيات من قصيدتين مختلفتين ، حيث تخلص كل منهما - من المفتتح إلى المختتم - إلى الطبيعة متخذة منها إطارا ومتكأ يحتضن - في الأولى - ما ينبث في بنيتها من حنين وتحنان ، وما يبتعث - في الثانية - من تأمل وتذكر . ونعني بالأولى قصيدته عن « غاب بولون » وإنها - القصيدة لنفثه ممرورة ، تنحني فيها الذات على ذاتها ، لتبث شجوها وشجاها ، وتعكف على ابتعاث ما يعتمل في وجدان شوقي ، ولنلتقط هذين البيتين دليلا وشاهدا :

حلم أريد رجوعه	ورجوع أحلامي بعيد
وهب الزمان أعادها	هل للشبيبة من يعيد

وإنهما - كذلك - يكشفان خيبة الأمل في اللاأمل ، ولنلحظ كيف يلهث إيقاع الشطر الأول - من أولهما - وكأنه انخطاف لا شعوري :

حلم أريد رجوعه

وسرعان ما يتسرب بثه ، وينضمر صوته ، لتتوالى - فيما بعده - مدات

الأحرف، وتتباطأ إيقاعية الأصوات ، كأنها نفثة ممتدة تطول شكاتها ، لتنفتح في آخر شطر على شكاة أخرى :

« هل للشبيبة من يعيد »

وتتجاوز القصيدة « غاب بولون » - تكرارية السرد الوصفي للطبيعة في صورها المتعددة ، لتكون مراوحة بين الأسى والتأسي والشكاة والتعزي :

يا غـاب بولـون ولي	ذمـم عليك ولـي عهود
زمـن تقضي للهـوى	ولنا بظلك هـل يعود ؟
حلـم أريـد رجوعـه	ورجوع أحلامـي بعيد
وهب الزمـان أعادهـا	هل للشبيبة من يعيـد ؟
هـلا ذكرت زمان كنا	والزمـــان كمـا نريـد
حتى إذا دعـت النوى	فتبدد الشمـس النضيـد
بتنـا ومـا بيننـا	بحر ودون البحر بيد (٢٥)

ونعرض للأبيات التالية من قصيدته « الهلال » وكأنها - كذلك - جملة تأملية ممتدة ، تحتضن في تتابعها - وتلاحقها - نفسا شعريا واحدا ومتوحدا :

سنون تعاد ودهر يعيد	لعمرك ما في الليالي جديد
أضاء لآدم هذا الهـلال	فكيف تقول : الهلال الوليد
نعـد عليه الزمان القريب	ويحصي علينا الزمان البعيد
ومن عجب وهو جد الليالي	يبيد الليالي فيما يبيد (٢٦)

وواضح - كذلك - أن كلتا القصيدتين تتعدى الاحتفال الكلاسيكي برصد الشكل ولقط المظهر ، وتتجاوز الاحتفاء برصانة المعجم وفخامة التعبير والتصوير ، ومن ثم تنتقي سكونية الوصف وتقليدية الاداء ونمطية المضمون .

وهل تتفاوت قصيدته عن « النيل » عما نحن فيه ؟

والقصيدة - كما نعلم - قصيدة ممتدة ، ويستحيل أن تكون نفثة مغلقة ، أو

دفعة منغلقة ، وكما الموسيقى في تعدد القفلات - أو تنوع النقلات - تتعدد - كذلك - وحدات القصيدة ، التي قد تنفسح وتتسع ، أو تضيق وتقصر .

وربما يجوز القول بأن تسلسلا سريا لما يعرف بالتداعي قد يتيح لكثير من تلك الوحدات أن تنفتح على سواها ولا تنعزل عن غيرها ، وكأن خيطا خفيا يلم بنيتها ويضم حركتها .

وليس تبريرا ما نقوله ، وليس مناطحة لمفهومات نقدية معروفة ، بقدر ما يكون تفسيرا لما نلحظه بشيء من الأناة والتأني في مراقبة بنية القصيدة والتي تكاد تكون في رأينا ابتهالية شعرية ، تتفرع لتتجمع ، وتتعدد لتتوحد « فبدءا من المفتتح الابتهالي عن قدم النيل :

من أي عهد في القرى تتدفق وبأي كف في المدائن تغدق

والذي يستمر متلبسا هذا الطقس الابتهالي ، بدءا من تتابع أبيات تحتشد بتساؤلات محملة باكبار وإجلال مثل :

- ومن السماء نزلت . .
- أم فجرت من عليا الجنان . .
- وبأي عين أم أية مزنة . .
- أم أي طوفان . .
- وبأي نول أنت ناسج بردة . . .

ومرورا بعرفان فضله واجلال قدره مثل :

- فإذا حضرت اخضوضر الإستبرق .
- في كل آونة تبدل صبغة .
- تسقى وتطعم . . *

وتستمر هذه الدائرة إلى البيت الحادي والعشرين :

وإليك بعد الله يرجع تحته ما جف أو ما مات أو ما ينفق

لينفتح البيت السابق - مختتم الوحدة - على ما يكاد يكون شاهدا أو شهادة ، بدءا من البيت الثاني والعشرين :

أين الفراعنة الأولى استذرى بهم   عيسى ويوسف والكليم المصعق

وحتى في هذه الدائرة لا يغيب « النيل » . فثمة حضور له يفترش تسعة عشر بيتا ، تخلص إلى « عروس النيل » من أول قوله :

ونجيبة بين الطفولة والصبا   عذراء تشربها القلوب وتعلق

وفيها تعكف - تلك الأبيات - على تشكيل مسرد تصويري وقص حركي لـ : «مهرجان هزت الدنيا به أعطافها » - على حسب شوقي - ، وكأننا نرقب المشهد أو نشهد المهرجان .

ومع ما استغرقته تلك التذكارات - أو التداعيات - فثمة عودة لما انشعب وتشعب ، أو للدائرة التي انفتحت على دوائر تبعد أو تقرب ، وتلك العودة يحتضنها ما يمتد في مسار القصيدة ، وما يتوالى حتى مختتمها في سبعة وعشرين بيتا ، بدءا من :

أصل الحضارة في صعيدك ثابت   ونباتها حسن عليك مخلق
ولدت فكنت المهد ثم ترعرعت   فأظلها منك الخفي المشفق
.. تابوت موسى لا تزال جلالة   تبدو عليك له وريا تنشق
وجمال يوسف لا يزال لواؤه   حوليك في أفق الجلال يرنّق
ودموع إخوته رسائل توبة   مسطورهن بشاطئيك منمق
وصلاة مريم فوق زرعك لم يزل   يزكو لذكراها النبات ويسمق
وخطى المسيح عليك روحا طاهرا   بركات ربك والنعيم الغيدق(٢٧)

وإنها - الأبيات السابقة - لحميمة الصلة بذلك الطقس الابتهالي ، والذي يكاد يشكل محور القصيدة ، فمن بين استذكار لمدلولات دينية ، واستجلاء لتذكارات روحية وابتثاث لوشائج تاريخية ، تتواكب وماضوية النيل القديم ، من بين ذلك كله تنسبغ - على النيل - أثر قداسة وإجلال ، ومأثور مهابة وإكبار كقوله أيضاً :

فتنت بشطيك العباد فلم يزل   قاصٍ يحجهما ودانٍ يرمق

ولنلحظ على عجل - كيف تتوثب فلذاتها التصويرية ، وكيف تتكشف إيماءاتها واستلهاماتها السابقة ، والتي تنعطف - بحتمية النسق - وتنضاف إلى النيل نفسه وكأنه ملاذ خائف ومأمن مرتاع ، ومجلي جمال وأفق جلال ، ومنزل عبادة ومحراب صلاة ، كما الأبيات السابقة .

ولسنا في مجال تحليل لجماليات الأداء ، ومن ثم تكفينا الإشارة إلى البيتين الرابع والخامس ، وما بهعما من تشاكل وتشابك وتمازج وامتزاج ، وما يتولد بهما من شذرات تصويرية ، لتتضام في تناسق تصويري فريد ومنفرد .

وفي مختتم القصيدة ، كأن « شوقي » يتوحد بقصيدته الابتهالية ، وكأنه - كذلك - يودّع النيل - وقد دنا الرحيل - ويودعه خلفه وولده :

مما يحملنا الهوى لك أفرخ   سنطير عنها وهي عندك ترزق

تهفو إليهم في التراب قلوبنا   وتكاد فيه بغير عرق تخفق

ولنلحظ كيف ينفث البيت الأخير شجوا بالغا ، ويكاد الشطر الأخير يتملك فرادة وتفردا في تصويره الرهيف لحنوه وتحنانه ، ولا يخلو بيته الأول من تلك اللمسة الحانية والتي يماثلها قوله في قصيدة أخرى :

كسيت أفرخي بظلك ريشا   وربا في رباك واشتد غرس

* * *

ولا يمنعنا احتفاؤنا بذلك المنتحى الوجداني ، والذي انتجعه « شوقي » - في شعر الطبيعة - فيما سبق ، ولا يدفعنا احتفالنا بقدرته على تطويع المعجم الكلاسيكي ، وترويض بلاغته الجامحة ، لا يمنعنا ذلك من الإشارة الخاطفة إلى قصائد - في المنحنى نفسه - تقع تحت سطوة المعجم الكلاسيكي وتسلط تكويناته البيانية المسرفة أو تشكيلاته التصويرية المترفة .

ولعلنا نتذكر - وما زالت على بعد صفحات - قصيدته السابقة عن « الهلال » وما بثه « شوقي » وابتثه فيها من نفثات تأملية ، ولنلحظ المفارقة التالية في قصيدة تكون - هذه المرة - عن « البدر » - لا الهلال - أو على حسب عنوانها : « منظر طلوع البدر من سفينة » يقول فيها :

وافى بك الأفق السماء فأسفرت   عن قفل ماس في سوار نضار
الماء والآفاق حولك فضـة   والشهب دينار لدى دينـار
والفلك مشرقة الجوانب في الدجى   يبدو لها ذيل من الأنـوار
بينا تخطر في لجين مائـج   إذ تنثني في عسجد زخار[٢٨]

ومثيله من قصيدة أخرى :

غشيتك والأصيل يفيض تبرا   وينسـج للربى حللا ويكسـو
وتذهب في الخليـج له وتأتي   أنامـل تنشـر العقيـان خمس

(العقيان : الذهب)

وفي جيد الخميلة منه عقـد   وفي آذانـها قـرط وسلـس

(السلس : الخيط الذي ينظم به الخرز الابيض)

ولألات الجبال فضـاء سفـح   يسر الناظرين ونـار رأس[٢٩]

ونكتفي بنموذج آخر :

ولقد تمر على الغدير تخالـه   والنبت مرآة زهت بإطـار
حلو التسلسل موجه وخريره   كأنامـل مرت على أوتـار
مدت سواعد مائه وتألفـت   فيها الجواهر من حصى وجمار[٣٠]

(جمار : جمهرة وهي الحصى)

ينساب في مخضلة مبتلـة   منسوجـة من سندس ونضار

ومن اللافت أن لشوقي قصيدة عن « مدينة جنيف » تنفلت في بعض أبياتها ، من حرفة الصنعة ، وتفر من مهارة التصنيع من خلال مسرد قصصي ، تتوالى به

الأفعال - حاملة الحركة - وتغطي - تلك الأفعال - مساحة الشطر الأخير من الأبيات التالية :

.. حتى اذا هدأ الملا في ليله   جاذبت ليلى ثوبه متحيرا
وخرجت من بين الجسور لعلني   أستقبل العرف الحبيب إذا سرى
آوى إلى الشجرات وهي تهزني   وقد اطمأن الطير منها بالكرى
ويهز مني الماء في لمعانه   فأميل أنظر فيه أطمع أن أرى (٣١)

إن تلك المراوحة بين إغراء تصنيع وإغراء تصنع ، وبين ما ينبثق من شعور ، وما يتدفق من مشاعر ، تنجو منها أعمال « شوقي » المسرحية ، والتي تجسد إبداعا شعريا له سموق وبهاء ، وله جمال وجلال ، وربما تتذكر ما اقتبسناه من قول الدكتور عبد القادر القط : " وشعر شوقي في مسرحياته طراز فريد في الشعر العربي كله " .

المراجع والهوامش

١- ديوانه ، ط دار الكتب المصرية ، ١٩٤٦ ، جـ ١ ، ص ١٢١ .

٢- السابق ، جـ ، ص ١٢٥ .

٣- الاتجاه الوجداني - القاهرة ، ١٩٩٢ ، ص ٧٩ .

٤- السابق ، ص ٧٦ .

٥- ديوانه ، جـ ٢ ، ص ٢٣١ .

٦- ديوانه ، جـ ٢ ، ص ٢٤٣ .

٧- مقدمة « الديوان » ، ص ١٤ .

٨- ديوانه ، جـ ١ ، ص ٩٠ .

٩- ديوانه ، جـ ١ ، ص ٣٩ .

١٠- ديوانه ، جـ ١ ، ص ٢١٦ .

١١- ديوانه ، جـ ١ ، ص ٢٩٥ .

١٢- ديوانه ، جـ ١ ، ص ٦٢ .

١٣- ديوانه ، جـ ٢ ، ص ٢٢٤ .

١٤- ديوانه ، جـ ٣ ، ص ١٣٤ .

١٥- ديوانه ، جـ ١ ، ص ١٠٦ .

١٦- ديوانه ، جـ ٣ ، ص ٢٢ .

١٧- ديوانه ، جـ ٣ ، ص ٩٦ .

١٨- ديوانه ، جـ ٣ ، ص ١٥٤ .

١٩- ديوانه ، جـ ٢ ، ص ٢١٤ .

٢٠- ديوانه ، جـ ٢ ، ص ١٢٧ .

٢١- ديوانه ، جـ ١ ، ص ١٣٧ .

٢٢- « أغاني الحياة » ، تونس ، ١٩٧٠ ، ص ١٤٠ .

٢٣- ديوان شوقي ، جـ ٢ ، ص ١٨٢ .

٢٤- ديوانه ، جـ ٢ ، ص ٥٥ .

٢٥- ديوانه ، جـ ٢ ، ص ٣٠ .

٢٦- ديوانه ، جـ ٢ ، ص ٣٤ .

٢٧- ديوانه ، جـ٢ ، ص ٨٥ .

٢٨- ديوانه ، جـ ٢ ، ص ٣٧ .

٢٩- ديوانه ، جـ ٢ ، ص ٦٢ .

٣٠- ديوانه ، جـ ٢ ، ص ٤٤ .

٣١- ديوانه ، جـ ٢ ، ص ٣٩ .

أثر التقنيات المعلوماتية
في لسانيات النص العربي
« النص النقدي خاصة »

د٠مراد عبد الرحمن مبروك

أستاذ اللغة العربية المساعد

بجامعتي القاهرة وقطر

(١)

لا أحد ينكر التقدم التقني الذي ساد حياتنا العصرية في شتى العلوم التطبيقية والتنظيرية ٠ حتى كادت الفواصل تتلاشى بين هذه العلوم ٠ ويرجع ذلك إلى إفادة هذه العلوم جميعها من المنجزات التكنولوجية العصرية في مجالات المعلومات ، والهندسة ، والتشريح ، والفيزياء ، والكيمياء ، والبيولوجي ، والصوتيات ، والطباعة، وعلم النفس ، وعلم الاجتماع ، والجغرافيا ، والموسيقى ، والفن التشكيلي ، والوثائق والمكتبات ٠ وتأتي الحاسبات الالكترونية في مقدمة هذه التقنيات التي أفادت منها كل هذه العلوم ٠

وليس أدل على ذلك من وجود بعض الدراسات الأدبية واللغوية التي أفادت من الحاسوب ، ومنها - على سبيل التمثيل وليس الحصر - دراسات الدكاترة : علي حلمي

موسى «استخدام الآلات الحاسبة الالكترونية في دراسة ألفاظ القرآن الكريم »[١] ، و « إحصائية جذور معجم لسان العرب باستخدام الكمبيوتر » ، وإبراهيم أنيس « الحاسبات الالكترونية في البحوث اللغوية »[٢] . ويحيى هلال « تحليل صرفي بالعربية عن طريق المعالجة الآلية »[٣] . ونبيل علي « اللغة العربية والحاسوب »[٤]) ، وسعد مصلوح[٥] « الأسلوب دراسة لغوية إحصائية » ، و « تحقيق نسبة الشعر إلى المؤلف دراسة إحصائية في الثابت والمنسوب من شعر شوقي » ، و « قياس خاصية تنوع المفردات في الأسلوب دراسة تطبيقية لنماذج من كتابات الرافعي والعقاد وطه حسين » ، و « في التشخيص الأسلوبي الإحصائي للاستعارة دراسة تطبيقية لقصائد من أشعار البارودي وشوقي والشابي » . و عبد الكريم حسن[٦] « الموضوعية البنيوية دراسة في شعر السياب » ، و جان بياجيه[٧] « الابستمولوجية التكوينية » ، وجان فرانسوا ليوتار[٨] « الوضع ما بعد الحداثى تقرير عن المعرفة » . و عبد الرحمن أيوب «الكلام انتاجه وتحليله »[٩] .

وكل هذه الدراسات اتخذت العلوم البحتة أساساً جوهريا لها في التحليل النقدي واللغوي وخاصة أنها اعتمدت على التحليل الفيزيائي والرياضي والإحصائي في دراسة الظواهر اللغوية والأسلوبية للنص الأدبي . ونجد هذه المحاولات عند العديد من النقاد الأوربيين مثل رولاند بارت "Roland Barthes" ، وجاك دريد " Jacques Derrida" وجوناثان كولر Jonathan Culler.

وهكذا نجد العديد من الدارسين المحدثين اعتمدوا في تحليلهم للبنية اللغوية النصية على التقنيات العلمية المتقدمة ولاسيما الحاسبات الالكترونية ، والأجهزة الإحصائية ، والأجهزة الصوتية مثل : الاسبكتروجراف « راسم الطيف الصوتي » السبكترومتر «مقياس الطيف الصوتي » الأسيلو جراف « الرسم الذبذبي » أو « راسم الذبذبة » والكيمو جراف « راسم الموجة الصوتية » وغيرها من الوسائل التكنولوجية التي أدت إلى تطوير المعرفة العلمية ، ولاسيما المعرفة اللغوية والأدبية .

(٢)

ولعل شيوع التحليل العلمي الدقيق والمحدد للبنية اللغوية في النص يرجع إلى شيوع وسائل التقنيات المتقدمة وإلى التطور العلمي الذي تجاوز مرحلتي الثورة الصناعية، والتكنولوجية ، إلى عصر الثورة المعلوماتية .

وكان من البدهي أن تنعكس هذه الثورة على المعرفة الإنسانية ، ولاسيما المعرفة الأدبية والنقدية ويمكن القول : « إن علوم وتكنولوجية الصدارة ترتبط منذ أربعين عاما بعلم الفونولوجيا والنظريات اللغوية . ومشكلات الاتصال ، والسيبرنطيقا ، ونظريات الجبر ، والمعلوماتية الحديثة ، والحاسوبات ولغاتها ، ومشكلات الترجمة ، والبحث عن تساوق بين لغات الحاسوب، ومشكلات تخزين المعلومات وبنوك المعلومات، علوم الاتصال عن بعد ... ويمكن توقع أن يكون تأثير هذه التحولات التكنولوجية على المعرفة ملحوظاً . وقد بدأت وظيفتاها الأساسيتان - البحث ونقل المعارف المكتسبة - تتأثران فعلاً أو سوف تتأثران في المستقبل ، وبالنسبة للوظيفة الأولى فإن علم الوراثة يقدم مثالاً يسهل ادراكه على الشخص العادي ، إذ أنه يدين بنموذجه النظري للسيبرنطيقا، وهناك أمثلة أخرى عديدة ، أما بالنسبة للوظيفة الثانية فمن المعروف أن تصغير وتسويق الأجهزة قد بدأ يغير بالفعل طريقة اكتساب وتصنيف واستغلال المعارف ، ومن المعقول أن نفترض أن انتشار آلات تجهيز المعلومات يؤثر ، وسوف يظل يؤثر على تداول المعارف ، بقدر ما فعل التقدم في وسائل نقل البشر (شبكات المواصلات) وبعدها في وسائل تداول الأصوات والصور المرئية (وسائل الإعلام) »[١٠] .

ومن البدهي أن تخضع اللسانيات العربية وفي مقدمتها النصوص اللغوية والنقدية للمعرفة العلمية والتكنولوجيا المتقدمة ، لأن اللغة هي أكثر العلوم المعرفية خضوعاً للمعايير العلمية الدقيقة ، والنص الأدبي أداته اللغة أيضاً .

ومن البدهي أن تنعكس التكنولوجية المعلوماتية على المعرفة العلمية للنص ،

فقد حلّت الأجهزة العلمية الإحصائية محل الطريقة اليدوية التي كانت تستخدم في استنباط البنية اللغوية الطاغية في النص . وإذا كانت الطريقة اليدوية يشوبها أحياناً بعض الخطأ فإن الطريقة الآلية أكثر دقة وتحديداً لهذه البنية .

ونظن أن المرحلة القادمة ستكون هي مرحلة « علمية النص » وهي المرحلة التي يعتمد فيها النص على الأجهزة الآلية الإحصائية ، ولعلنا لا نبالغ كثيراً لو قلنا إن كل ما لا يقبل التوافق مع لغة الحاسوب أو لغة الأجهزة التقنية المعاصرة من المعرفة النقدية سيتم التخلي عنه، أو قد يتلاشى دوره في حقل المعرفة العلمية ، وأن اتجاه الأبحاث الجديدة ستمليه قابلية نتائجها المحتملة للغة التقنيات المعلوماتية ، إذ لا يكون هناك وقت نضيعه في اجترار عبارات نقدية مألوفة عن طريق استخدام اللغة الإنشائية بل إن الأحكام العلمية اليقينية هي التي تتوافق مع عصر المعرفة العلمية المعلوماتية ، التي تساير بدورها لغة الأجهزة الآلية المتقدمة في حقل المعرفة الإنسانية .

وقد يرجع هذا أيضاً إلى سيطرة القوة الانتاجية والاستهلاكية على مقدرات الحياة ، فقد أصبح كل شيء يُنْتَج حتى المعرفة العلمية تحولت إلى قوة انتاجية تنتج لكي تباع وتستهلك حتى يجري تقييمها في انتاج جديد « ومن المقبول على نطاق واسع أن المعرفة قد صارت القوة الرئيسية للانتاج خلال العقود القليلة الماضية ، وقد كان لذلك تأثير ملحوظ على تكوين قوة العمل في البلدان الأكثر تطوراً ، كما أنه يمثل عنق الزجاجة الرئيسي أمام البلدان النامية . وفي العصر ما بعد الصناعي ، وما بعد الحداثي ، سيحافظ العلم على وضعه البارز في ترسانة الطاقة الانتاجية للدول القومية ، وفي الحقيقة فإن هذا الوضع هو أحد الأسباب التي تدفعنا إلى استنتاج أن الفجوة بين الدول المتقدمة والدول النامية ستتسع أكثر في المستقبل "[١١] . ما لم تواكب الدول النامية ركب التقدم المعرفي في البلاد المتقدمة .

ومن هنا كان العامل الاقتصادي سببا من أسباب تأثير العلوم البحتة على العلوم الإنسانية ، فقد جاءت الكتابات المتعددة حول علاقة العلوم البحتة وخاصة العلوم البيولوجية والحاسوبية والرياضية والإحصائية بمثابة الدعاية للمخترعات المعلوماتية

الحديثة لبيان فعاليتها في جميع الميادين ، بما فيها ميدان البحث في العلوم الإنسانية، حتى تساير هذه العلوم - ولاسيما اللسانية منها والنصية - ركب العلوم البحتة . وليصنعوا جيلاً له ألفة بالآلة ، وله القدرة على التحكم فيها وتسييرها ، يحلل بها النص ويستنبط بها المعيار النقدي ، ويحصي بها البنى اللغوية في النص .

إن كل معلومة معرفية تحولت إلى سلعة انتاجية بفعل التغيرات الحياتية والمادية في الواقع المعاصر ، حتى اللغة النصية والنقدية تحولت إلى سلعة معرفية ، ولم يعد في مقدور الناقد كتابة اللغة الإنشائية الاسهابية التي تطول دون أن تقدم معلومة معرفية ، وفي أقصى حد لها يمكن أن تقدم معلومة معرفية ضئيلة من حيث القيمة ولا تتوافق مع الجهد والوقت الطويل المستغرق في انتاجها ، أو التوصل لها .

ولذلك يلجأ الدارس أو الناقد إلى أقصر الطرق للوصول إلى النتائج العلمية المرجوة وذلك عن طريق استخدامه للتقنيات المعلوماتية . ومن البدهي أن يخضع الدارس النص إلى لغة الآلات العصرية المتقدمة لتعينه في تشريح البنية اللغوية للنص تشريحا رياضيا أو فيزيائيا أو إحصائيا أو هندسيا . وهذا التشريح بدوره ينحو بالنص النقدي نحو المعرفة العلمية. ولا يتحقق هذا إلا بإخضاع النص الأدبي لبعض التقنيات المعلوماتية المقترنة بالعلوم المعرفية ، كجهاز الحاسوب ، أو الأجهزة الإحصائية أو الصوتية أو الهندسية أو البيولوجية أو الفيزيائية .

يضاف إلى ذلك عامل سياسي ، فقد تحولت المجتمعات الإنسانية المتقدمة إلى «مجتمعات معلوماتية » تعتمد على المعلومة المعرفية وسيلة من وسائلها الحياتية وقد ينشأ عن هذا التحول أحد أمرين :

الأول : ائتلاف السلطة مع المعرفة العلمية - على فرض أن المعرفة العلمية والتقنية تراكمية - وحينئذ تصور المعرفة على أنها منتظمة ومتصلة واجتماعية - وهذا يحدث في حالة ارتباط المعرفة العلمية بأفكار المجتمع والعمل على الاتزان الداخلي له والتعايش معه - ويكون المنطوق العلمي حينئذ خاضعا لقاعدة أن أي منطوق - يجب أن يلبي منظومة معطاة من الشروط لكي ينال القبول بوصفه علميا . وفي هذه الحالة تكون المشروعية هي العملية التي يكون بها « المشرع » الذي يتناول

الخطاب العلمي مخولاً سلطة تحديد الشروط المقررة سلفا ، وهي عموما شروط التجانس الداخلي بين المعرفة العلمية وواقع المجتمع وتجاربه . وقد يتحقق هذا التجانس في بعض البلاد المتقدمة التي يتوافق فيها التنظير والتطبيق ، أو المعرفة العلمية والسلطة التشريعية ، وإن كان هذا التجانس يبدو قسريا لأن مشروعية المعرفة العلمية ظلت مرتبطة برباط لا ينفصم بمسألة مشروعية المشرع منذ زمن أفلاطون ، ولكن عندما يتجانس ما هو صادق مع ما هو عادل حينئذ يتحقق التوازن بين المعرفة العلمية والسلطة السياسية . وهذا بدوره يجعل المعرفة العلمية تنحو نحو الصدق والعدل وأداتهما اللغة العلمية الدقيقة والنتائج اليقينية ، ومحاولة السيطرة على العلوم المعرفية بوسائل التقنية المعلوماتية التي تميل إلى التراكم والاختزال والتخزين حتى يسهل التحكم في المعايير المعرفية للظاهرة العلمية ، على فرض أن نقد النص ظاهرة علمية .

الثاني : نزاع السلطة مع المعرفة العلمية وهذا قد يحدث عندما تتحول « المعرفة إلى سلعة معلوماتية لا غنى عنها للقوة الانتاجية ، وحينئذ تمثل بالفعل وستظل تمثل رهانا رئيسيا في المنافسة العالمية على السلطة . فمن المتصور أن الدول القومية سيحارب بعضها بعضا يوما ما من أجل السيطرة على المعلومات ، مثلما تقاتلت في الماضي من أجل السيطرة على الأراضي ، وبعدها من أجل التحكم في الوصول إلى استغلال المواد الخام وقوة العمل الرخيصة ، لقد تم فتح مجال جديد أمام الاستراتيجيات الصناعية والتجارية من جهة ، والاستراتيجيات السياسية والعسكرية من جهة ثانية .... ستتقادم مقولة أن المعارف تقع ضمن سلطات الدولة ، بوصفها ذهن أو عقل المجتمع وذلك مع تزايد قوة المبدأ المقابل ، الذي طبقا له لا يوجد المجتمع ويتقدم إلا إذا كانت الرسائل المتداولة في نطاقه غنية بالمعلومات ، ويسهل حل شفرتها ، ستبدأ أيديولوجية « شفافية الاتصال » التي تمضي يداً بيد مع تجارة المعرفة ، ستبدأ في النظر إلى الدولة بوصفها عامل قتامة « وتشويش » ومن وجهة النظر هذه تهدد مشكلات العلاقة بين سلطات الدولة والسلطات الاقتصادية بأن تطرح نفسها بإلحاح جديد »[١٢] .

ومن هذا المنظور نجد بعض الشركات متعددة القومية قد بدأ يهدد اقتصادها استقرار الدولة ، وسوف يزداد الخطر والتهديد مع تقدم العلوم المعرفية ومع تطور الحاسوب وعلوم الاتصال عن بعد . لأن شفرة الاتصال قد يصعب على سلطات الدولة حلها ، ولاسيما عندما تطلق هذه المؤسسات أقمار اتصال أو تخزين معلومات ، أو حتى عندما تحصل على ترخيص بأن تحتل حزاما في مجال دوران الأرض ، حينئذ من الذي يحكم أهي السلطة أم من يملك المعرفة ؟ وخاصة أن المعرفة حينئذ يتم تخزينها في معلومات وشفرات سرية يصعب حلها .

وسواء كانت المعرفة العلمية في حالة توازن وتجانس مع السلطة أو في حالة اختلاف معها فإن ما يعنينا هو طرح تصور ثورة المعلومات التي غزت وسوف تغزو الإنسان المعاصر ، والتي أثرت بدورها على تقنين كل العلوم وجعلها في شكل معلومات مركزة ومكثفة ومقننة في بعض الأحيان حتى تتوافق والمتغيرات العصرية .

ولذلك جاءت بعض النظريات النصية انعكاساً للمحاولات التي تسعى للهيمنة على الإنسان وتحليله ، وتمثل ذلك في محاولة صياغة قوانين للمجادلة وانتاج الكلام وتحليل الأصوات والنصوص ، ووضع مفاهيم لتكييف الخطاب فضلاً عن نظرية مثل « نظرية الذكاء الاصطناعي » - وهي ضمن النظريات التي تربط لسانيات النص بالوسائل المعلوماتية - نابعة من فلسفة تجريبية رياضية تقدس الآلة وتحلها محل الإنسان ، وتحاول الكشف عن آليات الإنسان البيولوجية حتى يمكن التنبؤ بسلوكه وتكوينه ، وربما يكون هذا العامل هو السبب الجوهري وراء كل هذه النظريات العلمية التي سنعرض لها في موضع آخر من هذا البحث .

ومن ثم لا نستبعد إخضاع لسانيات النص العربي إلى هذه العلوم المعرفية سواء في المرحلة الآنية أو المستقبلية ، وقد وجدت ارهاصات هذا التحول في بعض الدراسات اللغوية والنقدية المعاصرة ، والتي أشرنا إلى بعضها سواء في المعاجم أو التراكيب ، أو الدلالة أو الصوتيات أو النقد الأدبي أو العروض أو الايقاع الشعري . ونقف عند

بعضها - على سبيل التمثيل - لتوضيح مدى افادة اللسانيات النصية المعاصرة من التقنيات المعلوماتية .

* * * *

(٣)

في مجال المعاجم العربية تحتل كتابات علي حلمي موسى مكانة رائدة في حقل الدراسات الآلية للمعاجم العربية ، وأهم دراساته هي : (١) استخدام الآلات الحاسبة الالكترونية في دراسة ألفاظ القرآن الكريم ، (٢) دراسة إحصائية لجذور معجم الصحاح باستخدام الكمبيوتر ، (٣) دراسة إحصائية لجذور معجم لسان العرب ، (٤) دراسة إحصائية لجذور معجم تاج العروس باستخدام الكمبيوتر .

وقد بدأت بوادر هذه الفكرة تطرأ على الدكتور علي حلمي موسى عندما ذهب الدكتور إبراهيم أنيس إلى جامعة الكويت أستاذاً زائراً لقسم اللغة العربية سنة ١٩٧١ وعرض فكرة استخدام الحاسوب في تحقيق نوع من الإحصاءات اللغوية ، وتلقف الدكتور علي حلمي موسى الفكرة وعايشها ثم خرج على الأوساط العلمية بعمله الأول عن « معجم الصحاح » ثم « لسان العرب » ثم « تاج العروس » والعمل الأخير قد أعده بالاشتراك مع الدكتور عبد الصبور شاهين .

ومما لا شك فيه أن استخدام الطريقة الإحصائية الحاسوبية في دراسة جذور هذه المعاجم يؤكد الجدية العلمية في التناول ، حيث لم يعتمد الباحث على الطريقة اليدوية أو الذهنية الفردية التي قد يجانبها بعض الخطأ . بل اعتمد على طريقة علمية مقننة ، وتوصل من خلال هذه الطريقة إلى نتائج علمية ومنها الوصول إلى علاقة حروف الجذر اللغوي مع بعضها ، وأن منها ما يأتلف[١٣] ومنها ما يختلف . والوصول إلى النتيجة في أقل وقت ممكن عن طريق الجداول المبينة في دراسته لمعجم الصحاح ، فقد حوت هذه الدراسة اثنين وتسعين جدولا ، هي كلها تشمل إحصائية جذور المعجم ، وحوى معجم

تاج العروس مائة وأحد عشر جدولاً ، تشمل أيضاً كل جذور المعجم .

ومن ثم يسهل العودة إلى أي جذر لغوي في المعجم في أقل وقت ممكن وبأقل جهد كما أن العملية الإحصائية الحاسوبية لهذه الجذور تيسر على الباحث في اللسانيات الوصول إلى المادة العلمية التي تتعلق بالأصوات والحروف دون عناء .

ولاشك أن هذا يتوافق مع روح العصر وطبيعته فقد أصبح الإنسان يلهث خلف مقتضيات الحياة اليومية ، ولا يجد متسعا من الوقت للبحث اليدوي عن معلومة معينة قد يجدها أو لا يجدها في متن الكتاب . غير أن البحث عن هذه المعلومة في الجداول لا يكلفه عناء في البحث، فضلاً عن الاطمئنان العلمي والنفسي للنتيجة التي يتوصل إليها .

ويتوافق هذا أيضاً مع الثورة المعلوماتية التي غزت العلوم المعرفية في نهايات هذا القرن، وقد تكون اللغة المعلوماتية هي لغة الخطاب العلمي في نهايات هذا القرن ومشارف القرن القادم .

وكان من نتيجة استخدام الحاسوب في دراسة المعاجم - المشار إليها أيضاً - أنه تم التوصل إلى الألفاظ غير العربية الواردة في هذه المعاجم ، وأمكن إحصاء جذرها اللغوي والتوصل من خلالها إلى معيار علمي ، هذا المعيار يحدد ماهية الحروف المتجاورة التي تتشكل منها الحروف غير العربية . وعليه يسهل دراسة الظاهرة اللغوية في الكلمات العربية أو المعربة ونستطيع القول إن علم المعاجم يعد في مقدمة لسانيات النص العربي الذي دخل مجال الإحصاء الرياضي وخضع للحاسوب ، ويرجع هذا لسببين :

الأول : وجود عالم لغوي مستنير ودينامي الفكر كالدكتور إبراهيم أنيس الذي أشار إلى امكانية إفادة علوم اللغة العربية من الحاسوب والإحصاء ، وكان له الفضل في علم المعاجم بعلمي الإحصاء والحاسوب .

والثاني : توافق مادة المعجم وجذورها مع الطريقة العلمية الإحصائية والحاسبات الآلية ، لكون أن جذور المادة اللغوية محدد تحديداً علميا دقيقا ، ومرتب على أسس

منهجية حسب أوائل الأصول أو أواخرها ، أو حسب الترتيب الهجائي . ومن هنا فإن ارهاصات المنهج العلمي موجودة في المعاجم اللغوية ولذا يسهل إخضاعها للحاسوب .

على أن اللافت للنظر أن الذي تحمس لفكرة الدكتور إبراهيم أنيس وطبقها هو الدكتور علي حلمي موسى وهو أستاذ في الفيزياء النظرية - وفيما نعلم - لم يطبقها أحد من المتخصصين في علوم اللغة ، باستثناء الدكتور عبد الصبور شاهين الذي اشترك مع الدكتور علي حلمي موسى في الدراسة الإحصائية لجذور تاج العروس باستخدام الحاسوب » . ومنذ ذلك الحين لم نجد - في حدود ما نعلم - تطويراً لهذه الفكرة . ونظن أنه لو كتب لهذه الفكرة التطور والاستمرار ، وخاصة أن الحاسوب قد دخل معظم المؤسسات والهيئات والبيوت ، لكنا وجدنا ثورة علمية حقيقية في بحوث علوم اللغة .

ولكن ما إن توقف الدكتور علي حلمي موسى عند جذور معاجم الصحاح ولسان العرب ، وتاج العروس ، حتى خمدت جذوة الفكرة التي طرحها الدكتور أنيس والسؤال الذي يتبادر للذهن هو : هل من الضروري أن يتحمس لهذه الفكرة أستاذ في الفيزياء أو علوم الحاسب حتى يتحقق التطوير ؟ أم أنه قد آن الأوان لأن يقترب علماء اللغة من حيز الدراسات العلمية والعملية والحاسوبية ويفيدوا من التقنيات المعلوماتية ، مثلما اقترب علماء الفيزياء والحاسوب من علوم اللغة ، حتى يتحقق التطوير ونواكب ثورة المعلومات العصرية ؟ أم أنه لابد أن يحدث التلاحم بين العلوم التنظيرية والتطبيقية حتى يتحقق التقدم المعرفي في علوم اللغة ؟ وخاصة أن الفجوة بين العلوم الإنسانية والتطبيقية بدأت تضيق(١٤) نتيجة وجود الأجهزة والتقنيات المعلوماتية المتقدمة مثل علوم الحاسب وغيرها .

ونظن أنه لو حدث التلاحم بين علم المعاجم والعلوم التطبيقية ، فسوف يحدث تطور كبير في مجال الدراسات اللغوية والمعجمية خاصة . وقد تتحقق نبوءة الدكتور إبراهيم أنيس الذي رأى في تصويره للعدد التاسع والعشرين من مجلة مجمع اللغة العربية بمصر ، أن هذه الجداول اللغوية الإحصائية التي تم إحصاؤها عن طريق الحاسوب

في الصحاح ولسان العرب وتاج العروس ستصبح بمثابة المسطرة الحسابية في يد المهندس ، فتنطلق البحوث اللغوية في المستقبل بناء على ما توفر لدى أصحابها من بيانات إحصائية دقيقة . ولو تم مواصلة الطرق العلمية الإحصائية في دراسة المعاجم العربية وتم الافادة من التقنيات المعلوماتية ، حينئذ سيصبح المعجم اللغوي كالآلة الحاسبة الصغيرة قد تختزل معلومات معجم يصل حجمه إلى عشرات المجلدات ، وهذا لا يأتي إلا بانفتاح العلوم اللغوية المعاصرة على علوم الحاسب ، واستعداد الباحث اللغوي للانفتاح على العلوم التقنية ومحاولة الافادة منها وتوظيفها في خدمة النص اللساني .

* * * *

(٤)

أما في مجال المعالجة الآلية لمنظومات الكتابة العربية ، والصرف والنحو العربي ، والكلام ، فإن دراسة الدكتور نبيل علي « اللغة العربية والحاسوب » سنة ١٩٨٨ تعد ضمن الدراسات الرائدة في هذا المجال ففيما نعلم نظن أنها أول محاولة أصيلة تطرح قضية التحام الدراسات اللغوية بتقانات علوم الحاسب طرقا منهجيا وشموليا ، فما زلنا في الوطن العربي بعيدين كثيراً عن تحقيق شيء من هذا للغتنا العربية . ومازلنا نفتقد المعالجة الأصيلة لمسألة تعريب الحاسوب بالمعنى الجامع الشامل لهذه الكلمة تكون صالحة للتطبيق في كل مجالات استخدامه ، وعلى نحو ما جرى في لغات عديدة أخرى ، وضرورة تعريب علوم الحاسب مسألة مبدئية ولا نتصور أن عربياً متمسكاً بعروبته يطرحها لأي نوع من النقاش ، وخاصة أنه مع ظهور مفهوم « الذكاء الصناعي » وتطور أساليبه وأدواته أصبحت لسانيات الحاسوب فرعاً متخصصاً في علوم الحاسب واللغة معاً .

كما أن اللسانيات العربية قد لا تواكب متغيرات القرن القادم إلا بانفتاحها على

النظريات اللغوية الحديثة ، وتذليل الوسائل النظرية والعملية أمامها حتى تسلس وتنقاد للمعالجة الآلية . وذلك كأحد المقومات الأساسية في اعداد المجتمعات العربية لعصر المعلومات واقتصاد المعرفة ، « ولاسيما أن مشروع الجيل الخامس الياباني من الحاسوب قد حمل في طياته ثورة معرفية ومعلوماتية هائلة ، وسوف يؤدي إلى زيادة الهوة السحيقة بين المجتمعات المتقدمة والمتخلفة ما لم تطور لغتها وتدخل بها حقل المعرفة المعلوماتية »[١٥] .

وتجدر الإشارة إلى « أن معظم مجتمعاتنا العربية تصنف ضمن « الجائعة معلوماتياً وحاجتها جد ملحة لاستغلال مورد المعلومات كأحد المقومات الأساسية لعملية التنمية ، ومن هنا تبرز أهمية اللسانيات العربية لجعلها لغة الحاسبات الآلية كمدخل لاستغلال هذه الموارد المعلوماتية . على أن الحاسوب لا يجب ولا يمكنه أن يغير اللغة ، بل عليه أن يستغل خصائصها الكامنة وعلاقتها الدفينة لتيسير أمور معالجتها آليا ، واكتشاف طرائق جديدة لإكساب الآلة خاصية الذكاء الاصطناعي ، فضلاً عن أن هذه الأهمية سوف تبدد الافتراءات التي تزعم أن اللسانيات العربية لا تخضع للمعالجة الآلية باستخدام الحاسوب ، وهذا التجني يذكرنا بحملة مشابهة لدى بداية تطويعها لتقنيات الطباعة والتراسل الآلي »[١٦] .

* * * *

٤ ـ ١

تعد منظومة الكتابة العربية إحدى الوسائل الرئيسية للتواصل اللغوي ، وقد شهدت تطبيقات الحاسوب منذ بداية ظهورها اهتماماً كبيراً بالأمور المتعلقة بالكتابة الآلية، وكان من البدهي أن تطغى الكتابة اللاتينية على نظم المعالجة الآلية « ولكن نجم عن ذلك مشكلة لأن ثلثي سكان العالم تقريباً يستخدمون أبجديات غير لاتينية ، وربما كان من حسن الطالع أن تقود اليابان الثورة التقنية في عالم الحاسوب والمعلومات، حيث أدى نظام كتابتها المعقد - مقارنة بنظام الكتابة الإنجليزية - إلى

استحداث أساليب فنية متطورة لمعالجة نظم الكتابة آليا بصورة دفعت الأمور نحو التوازن التقني ، الذي بدأت بوادره تلوح في الأفق فعلاً ، فلقد شرعت تقنيات المعلومات وبخطى حثيثة تتخلص من أسر القيود التي فرضتها الكتابة اللاتينية »[١٧] .

ومن ثم تم توفير مرونة كبيرة للمستخدم النهائي في تصميم أشكال حروفه ، واختيار أنماطها وأحجامها ونسبها وأوضاعها ، وانقسمت عناصر منظومة الكتابة العربية آليا إلى عدة عناصر هي : الأبجدية ، علامات الاملاء ، الترقيم ، وسائل تمييز النصوص وابرازها ، عناصر تنظيم كتابة النصوص ، وسائل الاختصار .

على أن الأشكالية التي تواجه الكتابة الآلية للسانيات العربية تتمثل في عملية الضبط أو التشكيل ، وهذه الأشكالية لا يمكن حلها إلا في إطار منظومتها اللغوية الشاملة « والمتمثلة في السيمانتيك « (المعنى) والفونيميك (الصوت) والجرافيميك (الكتابة) وهذه العناصر بحكمها عنصر جوهري هو (الصرف - نحوي) يرتبط بها ارتباطا وثيقا[١٨] . وهناك صعوبات أخرى تواجه الكتابة الآلية للعربية تتمثل في عملية تقييس نظم الكتابة واقرارها شفرات عربية موحدة إلى أن وصلت إلى شبه اتفاق على الشفرة سباعية العزوم (7-bit) التي أقرتها المنظمة العربية للمواصفات والمقاييس » سنة ١٩٨٣ ، والمدرجة تحت رقم (ASMO 449)[١٩] وموضحة في الجدول التالي :

b_7					0	0	0	0	1	1	1	1
b_6					0	0	1	1	0	0	1	1
b_5					0	1	0	1	0	1	0	1
b_4	b_3	b_2	b_1		0	1	2	3	4	5	6	7
0	0	0	0	0	NUL	TC	SP	٠	@	ذ	ـ	ـِـ
0	0	0	1	1	TC	DC	!	١	ء	ر	ف	ـّـ
0	0	1	0	2	TC	DC	"	٢	آ	ز	ق	ـْـ
0	0	1	1	3	TC	DC	#	٣	أ	س	ك	
0	1	0	0	4	TC	DC	¤	٤	ؤ	ش	ل	
0	1	0	1	5	TC	TC	%	٥	إ	ص	م	
0	1	1	0	6	TC	TC	&	٦	ئ	ض	ن	
0	1	1	1	7	BEL	TC	'	٧	ا	ط	ه	
1	0	0	0	8	FE	CAN	)	٨	ب	ظ	و	
1	0	0	1	9	FE	EM	(	٩	ة	ع	ى	
1	0	1	0	10	FE	SUB	*	:	ت	غ	ي	
1	0	1	1	11	FE	ESC	+	؛	ث	]	ـًـ	}
1	1	0	0	12	FE	IS	،	>	ج	\	ـٌـ	¦
1	1	0	1	13	FE	IS	-	=	ح	[	ـٍـ	{
1	1	1	0	14	SO	IS	.	<	خ	^	ـَـ	‾
1	1	1	1	15	SI	IS	/	؟	د	_	ـُـ	DEL

شكل (٤ : ٤) الشفرة العربية الموحدة سباعية العزوم (7-bit) (ASMO 449)

وهناك تحديات أخرى تواجه جهود تقييس المعلوماتيات في العالم العربي منها انعزال معظم اللغويين عن الدراسات اللغوية الحاسوبية وعدم تفاعلهم مع باحثي علوم

الحاسب في وضع الشفرات اللغوية التامة ، فمن العسير على باحثي علوم الحاسب أن يتقن اللغة بكل دقائقها وأسرارها وتفصيلاتها كاللغوي المتخصص ، ومن ثم يشكل التفاعل بينهما ضرورة حتمية من ضرورات التطوير ، وإلا فسوف نجد أنفسنا في المجتمع العربي لا نتجاوز حد استهلاك المعلومات التقنية ، ولا سبيل أمامنا إلا الالتزام في معظم الأحوال بالقيود المفروضة علينا تقنياً من قبل المنظمات العالمية العاملة في حقل التقييس على مستوى الوطن العربي ، ومن هذه التحديات أيضاً ضعف التنسيق وغياب وعي التقييس على مستوى الوطن العربي ، والنظر إلى المعايير القياسية في أغلب الأمور بصفتها تشريعاً لا إقراراً للمقبول والشائع ، ويزيد من صعوبة المشكلة ندرة الخبرات البشرية المتخصصة التي يمكن لها أن تساهم في هذه الجهود الفنية بالغة التخصص والتي تتطلب إلماما دقيقاً بتفاصيل التقنيات واتجاهات تطورها »[٢٠] .

ولكي ننهض بالكتابة العربية الآلية فإنه يجب على رجالات علوم اللغة والحاسب أن يتفقوا على شفرة عربية موحدة لرموز الكتابة العربية ، وأن يوحدوا مخططات لوحات المفاتيح العربية وثنائية اللغة (عربي / انجليزي ، عربي / فرنسي) وأن يراعوا تقييس الأشكال المختلفة للحروف العربية ، أي عدد أشكال كل حرف ، والأشكال الرئيسية له ، وأن يوحدوا أسلوب تحويل الكتابة العربية إلى كتابة صوتية .

* * * *

٤ ـ ٢

أما المعالجة الآلية لمنظومة الصرف العربي فهي من المعالجات الأساسية في حقل اللسانيات العربية ، لأن الصرف يتعامل مع البنية الداخلية للكلمات ، إنه وسط لغوي يجمع بين هيكلية النحو وتحليلية الفونولوجي ، وبين اطراد الاثنين واعتباطية (اصطلاحية) المعجم »[٢١] ، لذلك فهو من أهم الأسس التي ترتكز عليها الدراسات اللغوية المقارنة والتقابلية .

« وتعد معالجة نظام الصرف العربي آلياً الخطوة المنطقية التالية لمعالجة نظام الكتابة ، حيث يرتقي بها النظام الآلي من بدائية التعامل مع الحروف إلى معالجة

الكلمات ، وهي العملية التي تعد مطلبا أساسيا لميكنة المنظومات اللغوية الأخرى ، ونقصد بها منظومات النحو والدلالة والمقاميات والمعجم »[٢٢] .

وبرغم الأهمية القصوى للصرف في الدراسات البنيوية على يد « بلومفيلد » ، و « دي سوسير » إلا أن الدراسات الصرفية لم تنل حقها كثيراً في نظرية النحو التوليدي التحويلي على يد تشومسكي في أواخر الخمسينيات « فقد صاحب ظهور هذه النظرية انتكاسة صرفية حادة حيث أغفل عنصر الصرف واختزله في المنظومة اللغوية لثنائية النحو الفونولوجي وتبعثر الشق المطرد والمنتظم من الصرف أشتاتا بين طرفي هذه الثنائية[٢٣] » ، « وربما يرجع السبب في اهمال نظرية النحو التوليدي التحويلي للصرف إلى الخلفية الفونولوجية لصاحبها وانطلاقه من اللغة الإنجليزية ذات الأبعاد الصرفية المحدودة للغاية كأساس للوصول إلى تعميماته اللغوية ، في إطار النظرية المذكورة اندرج الاشتقاق الصرفي في إطار النحو واعتبرت عملية تكوين الكلمات بمثابة عمليات تحويل نحوية ، وذلك بصورة قاصرة ومفتعلة[٢٤] . الأمر الذي أدى إلى ضمور الخاصية الصرفية في المعالجة الآلية للغة يضاف إلى ذلك « أن معظم النظم المتوفرة حالياً لمعالجة اللغة آليا قد أقيمت على أساس نظريات ومفاهيم سادها النحو وأغفل فيها الصرف بدرجة كبيرة . ونجاحها النسبي في مجال اللغة الإنجليزية يرجع لضآلة الخاصية الصرفية لهذه اللغة ، غير أن هذه النظم تحتاج إلى تغييرات جذرية لتطويعها لمطالب المعالجة الآلية للغة العربية ، والتي للصرف فيها دور حاسم ومحوري »[٢٥] .

وقد استقر رأي معظم الدارسين على أن اللغة الإنجليزية لا يمكن أن تكون هي المدخل لنظرية عامة للصرف . « وفيما يخص صرف الأنماط (الصرف غير المتصل أو الانصهاري) يبرز الاشتقاق العربي وبلا منافس كأساس للتنظير والتعميم ، لهذا السبب يبدي كثير من الباحثين حالياً اهتماماً خاصاً بالصرف العربي ، أما على مستوى (الصرف الإلصاقي) فجاء الحل على ما يبدو من اللغة الفنلندية ، وكانت هناك محاولات لاخضاع مزيدات الأفعال العربية للنموذج الالصاقي حيث نظر إليه كجذع ومجموعة لواحق وسوابق ، وآخر هذه المحاولات محاولة « مكارثي » لتطبيق

مفهوم التقطيع الذاتي المستخدم في الفونولوجيا لتفسير ظاهرة اشتقاق الصيغ المختلفة للفعل العربي . وفي ظل هذا المفهوم يتم تحليل صيغة الفعل إلى ثلاثة مستويات هي : القالب الحركي ، حروف الجذر ، الحركة المميزة (الضمة أو الفتحة أو الكسرة) وتتم عملية الاشتقاق من خلال التفاعل بين هذه المستويات للوصول إلى الصيغ المختلفة لمزيدات الأفعال لتحقيق هذا الهدف اضطر مكارثي لاستحداث عدد من المبادئ والعمليات الفرعية للربط بين عناصر المستويات المختلفة ، وبرغم قبول مفهوم التقطيع الذاتي من وجهة النظر الفونولوجية . إلا أن تطبيقه على صرف الأنماط لا يخلو من افتعال وتعقيد لا مبرر له ، وفضلاً عن عدم توافقه مع سليقة الاستخدام (أو الحدس) اللغوي في العربية ، وهو مبدأ عام في تحديد الكفاية التفسيرية للتنظير اللغوي كما حددها تشومسكي[٢٦] . وعلى الرغم من وجود بعض الخصائص المميزة للصرف العربي مثل « وضوح عملية الاشتقاق واطراد التصريف وميله لتركيب الكلمات بالإضافة وكرهه لتكوين الكلمات : من خلال المزج والاختصار والصلة العضوية بينه وبين المعجم العربي . إلا أن هناك بعض المزالق في دراسة الصرف العربي منها غياب الإحصائية الصرفية التي تلزم لتفسير كثير من ظواهر الكلمات في العربية ولتنظيم المعاجم ولتعليم الصرف العربي، ولتصميم نظم المعالجة الصرفية الآلية وترشيد أدائها ، وصورية الصرف من حيث تركيزه على المبنى دون المعنى ، والتركيز على الجانب التحليلي لعملية الاشتقاق (استخلاص الجذور) واغفال الجانب التوليدي لتكوين الكلمات العربية بصفة عامة . الأمر الذي كان له أثره الواضح في قصور المصطلحات »[٢٧] . ومن ثم يؤثر على المنظومة الآلية للصرف العربي غير أن هذه المزالق لا تحول دون المعالجة الآلية للصرف ، لأن مدى نجاحنا في تعريب نظم المعلومات والمعارف يتوقف بالدرجة الأولى على ما نحققه من آلية الصرف بمعناه الشمولي . أي مبناه ومعناه وتعريفه واشتقاقه وتركيبه وتحليله وتوليده واطراده وشذوذه .

« ونستطيع التأكيد على أن الصرف العربي يمثل مجالاً نموذجياً لتزاوج الحاسوب واللغة ، ومرجع ذلك هو نمطية الاشتقاق واطراد التصريف . وانتظام قواعد الإبدال والإعلال ، واتساق بنية الكلمة . وأهم الأسس التي تعالج الصرف العربي آليا هي :

أ - ضرورة تعامل المعالج الصرفي الآلي مع أطوار التشكيل المختلفة للنصوص العربية : تامة التشكيل والخالية من التشكيل ، والمشكولة جزئياً ، وفي هذا الصدد ومن وجهة نظر تصميم النظم ، يعد الطور الخالي من التشكيل هو الحالة العامة التي تجب الطورين الآخرين . يعني هذا ضرورة أن يتوفر في النظام الآلي قدر « الذكاء » الكافي لتخمين النقص في عناصر التشكيل ، وتغطية جميع الاحتمالات الممكنة صرفيا ومعجميا .

ب - كمبدأ عام في تصميم النظم الآلية ، يجب أن يكون نظام الصرف الآلي « تجزئياً » أي مكوناً من عدة آليات يربط بينها علاقات ترابط واضحة ويجب أن تؤسس تجزئيه النظام الآلي على أساس لغوي . أي تقسيم النظام إلى عناصر تعكس الوظائف الأساسية للمنظومة الصرفية ، لا الخطوات الاجرائية للبرنامج .

ج - يجب أن يتعامل المعالج الصرفي الآلي مع ثنائية الصيغة الصرفية والميزان الصرفي (البنية العميقة والبنية السطحية) حيث يكمن في العلاقة الثنائية بينهما قدر كبير من السر الصرفي والاهتمام بالمعنى الذي يمثل الغاية القصوى للتنظير اللغوي للصرف ومعالجته الآلية »[٢٨] .

كما أن الإحصاء الصرفي يشكل ملمحاً بارزاً في طرق المعالجة الآلية شريطة أن تتجاوز المعالجة الآلية النمط التقليدي الذي تسير عليه ، « والمتمثل في المحاولات غير المجدية لاخضاع العربية للنماذج المصممة للغات مثل : الإنجليزية أو الفرنسية لأنها تستوعب الصرف العربي في إطار النموذج الإلصاقي والإطار الإلصاقي هو حالة خاصة في الصرف لكنه لا يشمل كل أنماطه - ولتجاوز هذا الخلط لجأت بعض نظم التحليل الصرفي للأساليب الإحصائية ، فأقيمت هذه النظم على أساس عينة من كلمات النصوص وذلك للحصول على مصفوفة تربط بين الجذر والموازين الصرفية[٢٩] . غير أن هذه النظم تحتاج إلى تلاحم الجهود بين اللسانيين وأخصائيي علوم الحاسب ولاسيما أخصائيي اللسانيات الحاسوبية ، حتى تنطلق الجهود للاهتمام بشقي التوليد والتحليل للظاهرة الصرفية ، واستغلال الحاسب الآلي في علاج مشكلة المصطلحات .

* * * *

٤ ـ ٣

أما المعالجة الآلية للنحو العربي فتأتي خطوة مكملة للمعالجة الآلية للصرف حيث تعنى آلية الصرف ببنية الكلمة وآلية النحو ببنية الجملة من حيث ترتيب عناصرها (أو مكوناتها) والعلاقات التركيبية البنائية والوظيفية التي تربط بين هذه العناصر والنحو بلا شك أكثر العناصر اللغوية اطراداً وقابلية للتجريد والاختزال ، ومن ثم هو خط الالتقاء الأساسي بين اللسانيات والرياضيات ، واللسانيات والبرمجيات مثلما كانت الفونولوجيا خط التقاء اللغة مع الفسيولوجيا ، والدلالة خط التقاء اللغة مع المنطق والفلسفة »[٣٠] .

وفي ظل النظريات النحوية الحديثة يمكن برمجة النحو العربي آلياً لأن مصطلحاته ورموزه قريبة من المنطق الصوري ، والرياضيات الحديثة . ويعد هذا عاملاً أساسياً في تهيئته للمعالجة الآلية ، وقد وضع الدكتور نبيل علي[٣١] عدة تصورات لعلاقة النحو بالنموذج الرياضي ، كما وضع الاطار العام للمنظومة النحوية ، والذي يتضمن علاقة منظومة النحو بالمعجم والصرف ، والدلالة ، والفونولوجيا .

ومنذ محاولات « فرديناند دي سوسير » في علم اللغة الحديث ، وتشومسكي في «البنى النحوية » اقتربت المنظومة اللغوية من التحليل الإحصائي والرياضي والمعلوماتي ، « فقد نشر تشومسكي سنة ١٩٥٧ بحثاً عن « البنى النحوية » ضمنه الأسس الرياضية للنماذج النحوية لجميع اللغات ، والتي صنفها في أربعة مستويات متدرجة تغطي اللغات الرمزية (كالرياضية والمنطقية) واللغة الاصطناعية « كلغات البرمجة » واللغات الإنسانية ، وقد أثارت نظرية تشومسكي ثورة عارمة في الأوساط النحوية والدلالية والصرفية والنفسية وعلوم المنطق وعلوم الحاسب ، وعلم النفس والفسيولوجيا »[٣٢] .

« ويأتي لقاء نظرية النحو لـ « تشومسكي » مع علوم الحاسب مزيجاً من الوفاق والخلاف فعلى جبهة الوفاق مثلت النظرية النحوية الحديثة همزة الوصل بين اللسانيات وعلوم الحاسوب ، فقد وفرت النظرية مطلباً أساسياً لمعالجة اللغة آليا ، وهو صياغة

قواعد النحو في صورة رسمية دقيقة يتعذر بدونها إخضاع اللغة لسطوة الآلة وقطعيتها ، فالحاسوب - كما هو معروف - لا يمكنه التعامل إلا مع الدقيق والمكتمل والقاطع - أما الخلاف فمصدره انحياز النظرية النحوية الحديثة نحو التوليد والتفسير... وسبب آخر هو استناد النظرية إلى مفهوم التحويل النحوي والذي يمثل صعوبات جمة بالنسبة للمعالجة الآلية»[٣٣] .

ولن يكتمل هذا المزج أو تطوير المعالجة الآلية للنحو العربي إلا باتحاد جهود اللغويين والحاسوبيين ، فهذا سوف يؤدي إلى استخدام الحاسوب في اقامة النماذج النحوية ، وإدخال مناهج اللسانيات الرياضية والحاسوبية والإحصائية في أقسام اللغة العربية بالجامعات والمعاهد العربية .

والمعالجة الآلية للنحو سوف تؤدي إلى اقتراب النحو العربي من علوم الحاسب وإلى اكساب منظري اللغات الطبيعية المقدرة على التحليل الأسلوبي والمنهجي الدقيق لعلوم اللغة ، الأمر الذي يحدث امتزاجاً بين علوم اللغة وعلوم الحاسب .

وما من شك أن الثورة المعلوماتية المعاصرة وفي مقدمتها ثورة علوم الحاسب قد أثرت تأثيراً كبيراً على سبل المعالجة الآلية للنحو العربي ، الأمر الذي سوف يؤدي إلى اختزال التراكيب النحوية وبرمجتها آلياً بحيث نتوصل إلى تحليل النص وتركيبه في أقل وقت ممكن . إلا أن « هذه المعالجة تعترضها مجموعة من الصعوبات ومن أهمها اسقاط علامات الضبط في معظم النصوص العربية ، وتعدد حالات اللبس النحوى وتداخلها الشديد وتعدد العلامات الاعرابية وحالات الجواز والتفضيل والحذف ، وعدم توفر الإحصائيات النحوية[٣٤] ، لكن المشكلة الجوهرية فيما نظن تتمثل في انصراف معظم الدارسين النحويين عن علوم الحاسب وعن التقنيات المعلوماتية المعاصرة . وعدم محاولتهم الافادة منها أو على الأقل الالتحام مع دارس علوم الحاسب حيث يمكن تطوير علوم اللغة وبرمجتها برمجة آلية ، لتساير مقتضيات العصرين الحاضر والمستقبلي حيث ستصبح لغة الحاسوب هي اللغة العصرية السائدة .

* * * *

٤ ـ ٤

أما المعالجة الآلية للصوت ، فقد تقدمت خطوات بارزة عند بعض علماء اللغة المحدثين ، في الدراسات اللغوية الأوربية[٣٥] والعربية . فقد واكبوا روح العصر وأفادوا من التقنيات المعلوماتية ، ومن هؤلاء الدارسين العرب الدكاترة : إبراهيم أنيس، وعبد الرحمن أيوب، وسعد مصلوح ، ومحمود فهمي حجازي ، وأحمد مختار عمر .

وقد فطن هؤلاء في دراساتهم إلى أهمية استخدام الأجهزة الصوتية الحديثة في دراسة الحزم الصوتية ، والنبر ، والتنغيم ، والمقاطع الصوتية ، والهمس والجهر ، والشدة والرخاوة ، والصفات الاكوستيكية للصوت وأثرها على الدلالة . وقد استعان بعضهم بالإحصاء الرياضي للوصول إلى نتائج محددة ، ولعلنا لا نبالغ لو قلنا ؛ إن انفتاح الدراسات اللغوية الحديثة على التقنيات العلمية جعلها أكثر دقة واقترابا من معايير العلوم البحتة . الأمر الذي انعكس بدوره على النصوص النقدية النصية والبنائية ، وجعلها أقرب إلى روح العلم المعياري والرياضي منها للانطباعات الذاتية المحضة ، ولسنا هنا بصدد العرض التاريخي للدراسات الصوتية قديماً وحديثاً ، ولكن ما يعنينا هو الدراسات الصوتية التي أفادت من التقنيات العصرية ، وأثرت على لسانيات النص النقدي المعاصر . بل وصبغت المعايير النقدية صبغة علمية خالصة .

وأهم دراستين صوتيتين لغويتين أفادتا من هذه التقنيات هما : دراسة الدكتور سعد مصلوح[٣٦] « دراسة السمع والكلام » سنة ١٩٨٠ ودراسة الدكتور عبد الرحمن أيوب[٣٧] «الكلام انتاجه وتحليله » سنة ١٩٨٤ ، وقد اعتمدتا على وسائل التقنيات الحديثة وخاصة جهاز « الاسبكتروجراف » "Spectrograph"« الراسم الطيفي » ، أو « الكلام المرئي » أو «المطياف» ، وقد فتحت هاتان الدراستان الطريق أمام الدراسات اللغوية والنقدية للافادة من التقنيات المعلوماتية في تحليل النص الأدبي تحليلاً صوتياً .

وتحتاج قراءة الاسبكتروجراف إلى وقت طويل لاكساب الخبرة الكافية لتمييزه

وكشف وسائله ، حيث يتعذر القيام بذلك دون اللجوء إلى وسائل لغوية ومصادر معرفية خارجية ، لأن نقل الصوت الإنساني إلى الآلة وتحليله من خلال الآلات العصرية كالاسبكتروجراف أو السنوجراف Sonograph أو غيرهما يعد من قبيل التحديات الأساسية التي تواجه عملية تمييز الكلام آلياً .

وفي الأونة الأخيرة ظهرت أجهزة حديثة أكثر تطوراً ، ومن أهمها جهاز التحليل الطيفي الفوري ويطلق عليه Speech Workstation ، وهو يعني بتحليل الأصوات باستخدام جهاز الحاسوب الفوري . حيث يقوم بالتحليل الإحصائي والفيزيائي والاكوستيكي للصوت آليا ، وفي وقت قصير جداً بالقياس إلى الوقت الذي كان يستغرقه جهاز الاسبكتروجراف أو السنوجراف ، ونستطيع من خلال جهاز الطيف الفوري أيضاً تحديد مواضع النبر والتنغيم والتقطيع الصوتي والحزم الصوتية والموجات الصوتية آليا .

ومن خلال هذه التقنيات المتطورة تقدمت الدراسات الصوتية العربية تقدما ملحوظا ، وكانت الشرارة التي انطلقت منها دراسة دلالة البنية الصوتية في النصوص الأدبية .

* * * *

(٥)

أما المعالجة الآلية لمنظومة النص النقدي ، فإنها قد جاءت بعد سلسلة طويلة من الخبرة العلمية والمعرفية في حقل فروع اللسانيات العربية والأوربية . ولعلنا لا نبعد كثيراً حين القول: إن الفلسفة العقلية « لكانط » كانت البذرة الجنينية الأولى لميلاد العلمية النصية أو لنقل لميلاد النص النقدي العلمي . فقد كانت هذه الفلسفة سبباً في ميلاد البنيوية التي عنيت بدراسة النص على أسس علمية وإحصائية ورياضية .

والنظرة الفاحصة والمدققة في الدراسات النقدية النصية والبنيوية تكشف لنا هذه

الحقائق، فقد تحولت الدراسات النقدية - نتيجة شيوع هذه الفلسفة الكانطية ومن بعدها البنيوية التحويلية والتوليدية والأسلوبية والتكوينية والشكلية - إلى معايير علمية وإحصائية ورياضية سواء في الدراسات النقدية الأوربية أو العربية ·

ونقف عند بعض النماذج النقدية العربية المعاصرة التي أفادت من التقنيات المعلوماتية · وذلك في بعض النظريات النصية والأسلوبية والبنيوية · لأنها أقرب النظريات النقدية لروح العلم ، وكلها تدور حول الدراسة العلمية للنص الأدبي ، الأمر الذي أدى إلى علمية النص النقدي في كثير من الأحيان · وبرغم إدراكنا عدم وجود فواصل جوهرية بين هذه النظريات لأنها جميعها تصب في معين واحد هو « النص » ، إلا أننا آثرنا التحديد النسبي بغية توضيح ملامح العلوم البحتة فيها وكيفية تطويرها وافادتها من التقنيات المعلوماتية ·

* * * *

٥ ـ ١

هناك العديد من النظريات النصية التي عُنيت بدراسة النص على أسس علمية خالصة متأثرة في ذلك بالعلوم البحتة ، لكننا نقف عند أهم هذه النظريات · ولاسيما النظريات النصية التي تماست وتداخلت في بعض الأحيان مع المعايير العلمية ومن هذه النظريات ؛ النظرية السيميوطيقية ، والنظرية الكارثية ، نظرية الشكل الهندسي ، نظرية الحرمان ، نظرية الذكاء الاصطناعي ، ونظرية التواصل والعمل ، وكل هذه النظريات تتعلق ببيولوجيا علم النص ، كما أنها تتعلق بالعلاقة القوية والحميمة بين النص واللغة من حيث إعادة توزيعه وتفكيكه ثم اعادة بنائه مرة أخرى ، وهذا يجعل النص صالحاً لأن يعالج بمقولات منطقية ورياضية وإحصائية وهندسية ·

* * * *

٥-١-أ النظرية السميوطيقية :

دخلت هذه النظرية حقل الدراسات النقدية عندما بدأ الاهتمام بالجوانب اللغوية في النص، واختلفت تسمياتها من دارس لآخر ، فقد أطلق عليها بعض النقاد السيميولوجية ومنهم دي سوسير ، والبعض الآخر السيميوطيقة ومنهم بيرس ، والبعض الثالث السيميائية ، ولسنا بصدد العرض التاريخي لهذه النظرية ، لكننا نعني بالجوانب التي تتماس فيها مع روح العلوم البحتة ·

فالنظرية السيميوطيقية عند « بيرس » تعتمد على عدة عناصر هي : التطورية، والواقعية ، والبراجماتية ، وانسجاما مع هذه العناصر يؤسس بيرس فلسفته على الظاهراتية · والظاهراتية Phaneroscopie عنده تعني بوصف الظاهرة الكلية الجماعية لكل ما هو حاضر في الذهن بطريقة ما · أي دراسة مجموع ما يظهر · إنها تقف عند المظاهر المباشرة مع محاولة الجمع بين تدقيق الجزئيات والتعميم الأوسع الممكن·

« وتعتبر سيميوطيقا « بيرس » من هذا المنظور أنسب نموذج يرجع إليه للاشتغال على الخطابات البصرية حتى الآن · فلقد عملت الثورة التقنية في مجال تمثيل Represention وإعادة إنتاج الواقع على قلب تاريخ التمثيل البصري التقليدي المسمى « أيقونيا » منذ مطلع القرن الحالي ، فمن جهة سوف تحتكر الصورة الفوتوغرافية مجموعة مجالات التعبير التي كانت من نصيب الفنون التشكيلية : من مثل رسم الطبيعة والصور الشخصية Portraits إلى غير ذلك · ومن جهة ثانية سوف تعمل السينما على تطوير استعمال الطرق الفوتوغرافية وتقنياتها وعلى الخصوص فيما يتعلق بتمثيل الوقائع والمشاهد المتحركة ، مانحة بذلك مجالاً واسعاً ومفهوماً جديداً لحفل العرض (Spectacle) الذي كان حكراً على الفن المسرحي · ومن جهة ثالثة سوف يغزو الحاسوب الالكتروني مجال البصريات بقدرته الفائقة على إنتاج معطيات بصرية متعددة تتراوح بين المعطيات الفنية الخالصة والبيانات البصرية الدقيقة لتحليل المعطيات ، ومجال تصميم الأشكال المختلفة للاستعمالات الفنية ، في

« مجالات الرسم الصناعي وفنون الديكور والاتصالات السمعية البصرية »[٣٨] .

وإذا أخذنا في الاعتبار أن نظرية بيرس ارتكزت في بدايتها على الفلسفة « الكانطية »، أدركنا أن فلسفة نظريته تعتمد على فلسفة تجريبية وفق روح العلم التجريبي . أي روح المختبر، وفي الوقت نفسه لا تتنافى مع كونها فلسفة تطورية وواقعية وبراجماتية ، وبهذا تتوافق مع التقنيات المعلوماتية ، ولا سيما علوم الحاسوب .

ففي ظل الثورة المعلوماتية الحاضرة والمستقبلية تتطور الدراسات والنظريات النقدية التي أفادت من روح العلم ، وجاءت امتداداً لظاهراتية كانط ، وهيجل ، تلك الظاهراتية المستمد أصولها من الرياضيات ، والمنطقية العقلية .

ويرى « بيرس » أيضاً أن لعلم السيميوطيقا ثلاثة فروع هي : (١) النحو الخالص ومهمته اكتشاف ما يجب أن يكون حقيقيا من قبل أي فكر علمي حتى يكون قادراً على تلقي دلالة معينة ، (٢) والمنطق بمعناه الدقيق أو النقد ، وهو العلم الصوري أو بمعنى آخر هو علم ما هو حقيقي كلية من ممثلات فكر علمي ما ، (٣) والبلاغة الخالصة ومهمتها اكتشاف القوانين التي بموجبها تنتج فكرة ما فكرة أخرى .

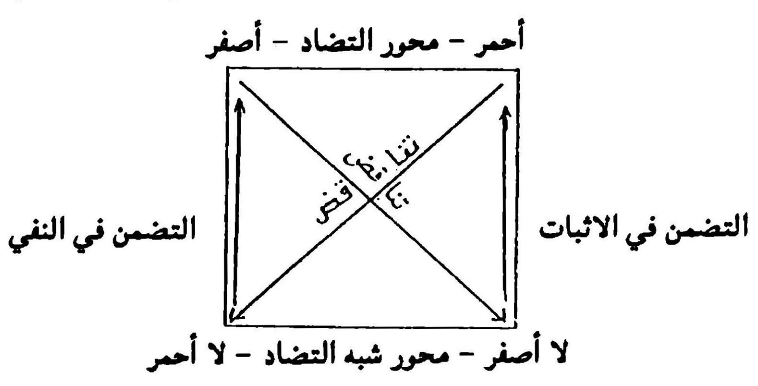
« هذه الفروع الثلاثة ليست جديدة كمجالات معرفية ، غير أن الجديد هنا يكمن في كون قاعدتها هي النظرية الجديدة للعلاقات عوضا عن الميتافيزيقا الأرسطية . تبعا لهذا فقد أخذ المنطق الرياضي الجديد ، ومنطق البحث العلمي الجديد مكان المنطق الأرسطي لتكون المجالات المذكورة آنفا منطق العلامة La logique du signe أو السيميوطيقا كما هي لدى « بيرس »[٣٩] .

ومن الواضح أن النظرية السيميوطيقية قد تأثرت بالدراسات الرياضية القائمة على المنطقية العقلية ، وذلك من خلال اعتمادها على المقصدية والمربع السيميائي . وهذه المصطلحات دخلت حقل النقد الأدبي عن طريق التأثر بالمصطلحات الرياضية والهندسية ، وذلك لاعتماد نظرية بيرس على الفلسفة الكانطية العقلية والمصطلحات الرياضية والهندسية . وقد عني بالدراسات السيميائية كل من : رولان بارت ، وجيرار

جينت ، وجوليا كرستيفا ، وتزفتان تودروف في باريس ، وامبرتوايكو في ايطاليا ، ويوري لوتمان ، ويوريس اوسبنسكي في الاتحاد السوفيتي ، وسيمود تشاتمان ، وميشال ريفاتير في الولايات المتحدة ، وكل دراسات هؤلاء النصية تعتمد على المنطقية العقلية في التحليل ، فاستخدموا التقنيات الهندسية الحديثة كالدوائر ، والمربعات ، والمستطيلات ، والمنحنيات ، والخطوط المستقيمة والأشكال البيانية والمحاور الرأسية والأفقية ، وكلها تفيد من العلوم الهندسية والإحصائية والرياضية .

وقد تزدهر هذه النظرية السيميوطيقية من خلال اخضاع النص الأدبي للحاسوب ، حيث يستعين الناقد بالتقنيات المعلوماتية حتى يسهل فهم النص وفض مغالقه .

وقد استعان الدكتور « محمد مفتاح » برسم الشكل الهندسي للمربع السيميائي حتى يسهل تحديد أبعاد النص ومحاوره التحليلية والدلالية ، ويرى « أن المربع السيميائي لم يصبح وسيلة عيان تساعد على الفهم وحسب ، وإنما صار شكلاً هندسياً يصح توليد مفاهيم منه لصياغة نظرية تعتمد على الطوبولوجيا والعلاقة والاختلاف والائتلاف » . ويوضح المربع السيميائي - على سبيل المثال - في الشكل التالي[٤٠] :



وهكذا نجد أن النظرية السيميوطيقية تعتمد إلى حد كبير على تقنيات العلوم البحتة .

* * * *

٥-١- ب - النظرية المكارثية .

تعتمد هذه النظرية في المقام الأول في فعالياتها النصية على التطبيقات الرياضية، « فقد مرت بمرحلتين : الأولى : مرحلة « روني طوم » Rone Thom ، وفيها تم ربط البنية بالقوانين والأشكال وذلك في كتابه « الاستقرار البنيوي وقوانين الأشكال» فقد ذكر القوانين المحددة للشكل والبنية والدينامية ، وتمثلت هذه القوانين والمبادئ السيميو- لسانية في عدة مبادئ هي: اختزال المفاهيم اللسانية إلى مورفولوجيا ، واختزال المورفولوجيا إلى نظام من الانقطاعات الكيفية في فضاء معتمد ، وكل موضوع أو شكل فيزيائي يمثله مركز جذب L'Attracteur ضمن نظام دينامي في فضاء من المتغيرات الداخلية ، ووسيلة الإدراك الأساسية هي الحواس ، ولكل كائن تفرده وشكله ، والشكل هو الذي يحكم الموضوع »[٤١] .

« الثانية : مرحلة جان بتيطو - كوكوردا "Jean Petito-Cocorda" : وفيها عني بالقوانين المحددة للمعنى في كتابة مجموعة من القوانين المحددة ، واعتمد على نقطتين أساسيتين هما : الدينامية ، والمورفولوجيا ، ففي الدينامية عني بالبنيوية الدينامية من حيث فعاليتها في ميادين شتى مثل البنيوية البيولوجية ، والنظرية الجشتالية والظاهراتية ، وعلم وظائف الأصوات ، والبنيات السيميو-سردية . كما أنها تعتمد على الصيغة الصورية الرياضية للبنى - صورنة البنيات صورنة رياضية - معتمدة على بعض مسلمات « كانط » من مثل الزمان - المكان - التعالي، وعلى فلسفة « البرلوتمان » الرياضية »[٤٢] .

أما المورفولوجيا فإنها استندت عند بتيطو على الطوبولوجيا ، وما تضفيه من صبغة هندسية ورأى « أن النظرية السردية بنيوية وعلاقية وموقعية ، ومن ثم فإن توضيحها Schematisation يجب أن يعتمد على « هندسة الموقع » وإذن على التصور Eidetique الوصفي المكارثي ، وعلى ضوء هذا المبدأ العام صاغ فرضيات يدعو فيها إلى إضفاء الصبغة الرياضية Mathematisation على المفاهيم اللامحدودة، والمفاهيم المشتقة ، والمربع السيميائي ، ومع أن بعض الباحثين رحبوا

بالصبغة الرياضية ، فإنهم رأوا أنه يجب أن يسار في طريقها بتدرج واحتياط حتى تلحق السيميو - سردية بالعلوم البحتة »[٤٣] .

وعليه فإن النظرية المكارثية عند « بتيطو » « تعتمد على هندسة الفضاء والتفاعل والتتابع الصوري أو الاحتمالي ، ويرى « بتيطو » أن النظرية الكارثية لغة صورية بمعنى جديد كل الجدة ، إنها لغة ولكنها ليست منطقية وإنما هي هندسية طوبولوجية مبنية كلغة طبيعية لغة علم ، دلالاتها مهندس وتركيبها مكون - محليا - من أحداث بسيطة وتفاعلات بسيطة كل البساطة أي أحداث وتفاعلات نموذجية أولية Archetypes متتالية Ritualises غير متكلفة أو مفتعلة واذن مؤتمة Automatises »[٤٤] .

ومن ثم يتضح إلى أي مدى تعتمد النظرية الكارثية في لسانيات النقد الأدبي على معايير القوانين الهندسية والرياضية والعقلية ، وهذه الروح العلمية البحتة التي سادت هذه النظريات تتوافق مع التقنيات المعلوماتية السائدة في الواقع الحاضر . كما أنها مهيأة للتطور في المستقبل بتطور أجهزة التقنيات المعلوماتية في المراحل القادمة أكثر من أي وقت مضى .

* * * *

٥-١- جـ - نظرية الشكل الهندسي :

وتأتي هذه النظرية مكملة للنظرية الكارثية ، « لأن النظرية الكارثية - ابستمولوجيا - مثالية جديدة وأداتها - منهاجياً - الرياضيات وخصوصا الهندسة ، وهدفها - عمليا - تحطيم الحدود بين الإنسانيات والعلوم البحتة ، وكذلك نظرية الشكل الهندسي فقد تبنت نفس الفكرة والأداة وتوخت نفس الهدف ولكنها - ابستمولوجيا - تجريبية . وصاحب هذه النظرية هو «توماس بالمر » وقد أوضحها في كتابه « الأسس البيولوجية للتواصل اللساني »[٤٥] .

وقد عنيت هذه النظرية بثلاثة جوانب[٤٦] : الأول : العلاقة بين بيولوجية الكائن الإنساني وتطوره اللغوي ، من حيث المزج بين العلوم البحتة ممثلة في البيولوجية -

وخاصة وظيفة الدماغ تجاه اللغة - والعلوم الإنسانيـة ممثلة في اللغة ، أو لنقل العلاقة بين اللغة والدماغ ، أو اللغة والفكر والواقع . أي أن توماس بالمر يرى أن هناك تشابها بين البنية اللغوية والبنية الدماغية ، بل هناك علاقة احتواء ، حيث اللغة تشمل الدماغ Brain والدماغ يحتوي اللغة ، ولكن اللغة مستقرة في الدماغ نفسه .

والثاني : الشكل الهندسي Geometrizer ويعني به التشكيل الهندسي للنص ، ويعزي هذا إلى أن عملية التطور والدينامية تقع على أرض الفضاء الفيزيائي ، وهذا الفضاء يتيح خلق المفاهيم والوصف الرياضي والتحليل ، وفي هذا الفضاء تتحقق عملية الكلام وتنجز اللغة ، حيث لا انفصام بين اللغة والفكر والواقع . والثالث : الدينامية ؛ إذ أن عملية التطور الدينامية ومراقبتها ووصفها وصياغة قوانين لها هي صلب هذه النظرية ولبها ، وقد برهنت عليها نظرية الشكل الهندسي من خلال دراسة الأفعال في النص حيث تعني بمستوى التطور اللغوي وزمانه ونماذجه واسقاطاته ومشابهاته من خلال الأفعال . وهذا التشكيل الهندسي يصبح أكثر دقة عندما نستخدم وسائل التقنيات المعلوماتية في دراسة أبعاده وجوانبه .

* * * *

٥-١- د - نظرية الحرمان :

وتأتي هذه النظرية مكملة أيضاً لنظرية التشكيل الهندسي من حيث المشابهة بين آليات عمل الدماغ وعمل الآليات اللغوية ، ونظرية الحرمان Theori de Frustation قد أشار إليها «جان ماري برادي » في بحثه « البيو- لوجي والسيميو- لوجي من بنية الحي إلى حياة المعنى» ومنطلقه الأساسي هو « أن المعرفة لا تقتصر على التداول المنظم للمعلومات فحسب ، ولكنها تمارس تأثيراً في الأعضاء التي بقاؤها نفسه خاضع للمعرفة ، وسرعة عملية الانعكاس المؤسسة للمعرفة فرضت اعادة تقويم الإدراك ، والسنن الرمزية التي تضمن خزن المعلومات ونقلها وعلاجها ، وما أدى إلى هذه السرعة في ميدان المعرفة هي العلوم المعاصرة مثل البيولوجيا والفيزياء والميكانيكا ، وقد

ساهم بعض هذه العلوم في الكشف عن العلاقات الوثيقة التي تربطه بالسيميولوجيا »[٤٧] .

وفحوى هذه النظرية هو ايجاد علاقة بين البيولوجيا والسيميوطيقا العامة ، أو بين العلوم البحتة والعلوم الإنسانية ، وذلك عن طريق الحدس أو الاستبصار أو التجربة. وبرغم أن هذه النظرية ما تزال افتراضية من حيث طبيعة العلاقة بين البيولوجيا والسيميوطيقا ، أو بين الدماغ واللغة النصية ، إلا أن الكثير من الدراسات البيولوجية المعاصرة لا تنفي العلاقة بين الدماغ واللغة ومن ثم بين البيولوجيا والسيميوطيقا ، وخاصة النظرية البيولوجية الثنائية حيث « نجد أصداءها في الدراسات السيميوطيقية . وفي تحليل الخطاب وفي فلسفة اللغة ، فهناك منظور سكوني يرى أن اللغة مرآة عاكسة لأشياء المحيط ، واللغة والمحيط بدورهما ساكنان ومعطيان مرة واحدة ، وهناك منظور دينامي يرى أن اللغة والمحيط في تفاعل مستمر ونمو مطرد وتشعب أبدي ، على أنه يمكن التوفيق بين وجهتي النظر هذه .. فاللغة تستعمل وتتداول في مختلف الأشكال تكملة لما عجزت عنه الأعضاء البيولوجية وهذا يعني تداخل البيولوجي والثقافي ، وتأثير كل منهما في الآخر . ومؤدى هذا أن المؤهلات اللغوية تختلف باختلاف البيئة »[٤٨] .

ومن الواضح إن هذه النظرية تستند إلى العلوم البحتة ، وبحدوث الحرمان بين العلوم البحتة واللغة يحدث الحرمان السيميوطيقي - لو جاز لنا استخدام هذا التعبير - ومن ثم تأتي هذه النظرية أيضاً صدى للتفاعل بين العلوم البحتة والعلوم الإنسانية، ولتجاوز بعض الحدود والحواجز التقليدية بينهما . وهنا يأتي دور التقنيات المعلوماتية والحاسوبية ودورها في المزج بين البيولوجيا والسيميوطيقا .

٥-١- هـ - نظرية الذكاء الاصطناعي :

« هي النظرية التي تم فيها دمج النظريات الإعلامية والنفسانية والبيولوجية والمعلوماتية ، وقد عنيت هذه النظرية أيضاً بتوليف الذاكرتين : الإنسانية والحاسوبية. وعليه فقد تم اللقاء بين الدراسات اللسانية النفسانية ، واللسانية التحسيبية وإجراءات

الذكاء الاصطناعي من خلال محاولات تطبيقية لفهم أو توليد النصوص في اللغة الطبيعية [٤٩].

إن النماذج التحسيبية التي هي إحدى التقنيات المعلوماتية « قدمت - وفق هذه النظرية - الوسيلة الإجرائية لتأسيس العلاقات الوظيفية الممكن وجودها بين مختلف المستويات تجريديا ، وكذلك فعلت نظرية جريماس ، والنظرية الكارثية ، ونظريات انسجام النص المختلفة » [٥٠].

٥-١- و - نظرية التواصل في العمل :

وهي توليفة من مجموعة من النظريات المختلفة بغية التواصل الخطابي بين النص والعمل الجماعي ، ولم تقف هذه النظرية عند هذا الحد بل إنها عنيت بجانبين أساسيين هما : « نحو النص. والنظرية الحوارية . وهذا هو القسم الأكثر اتصالاً بمجال تحليل النصوص . ففيه مناقشة لكثير من القضايا التي تتعلق بتحديد النص وانتاجه ودلالته وتأويله وتداوله وقواعده. والعلاقة بين نظرية العمل والنص علاقة اشتقاق ، إذ أن العمل لا يفهم إلا كعنصر من عائلة أعمال ، كما أن الجملة لا تفهم إلا بدمجها في نظام الجمل وعليه فإن انسجام النص لا يفهم إلا كانسجام لمتوالية أعمال . ويتحقق هذا الانسجام النصي على مستويات عدة منها : المستوى اللغوي ، والعاملي الزمني والهدفي » [٥١] ، لأن النص الأدبي سلسلة متواصلة الحلقات بين المتكلم والمخاطب . وليست نظرية التواصل والعمل إلا مزيجاً من نظريات معاصرة مختلفة اجتماعية ولسانية وعلمية .

ومن الواضح أن هذه النظريات النصية جاءت صدى للثورة المعلوماتية المعاصرة ، واقتحام العلوم الحاسوبية شتى صنوف المعرفة بما فيها المعرفة النقدية واللسانية كما أنها تواكب التقنيات المعلوماتية التي ستكون لغتها هي اللغة المعرفية السائدة في المراحل القادمة وهكذا نجد أن النظريات النصية النقدية المعاصرة قد سيطرت العلوم البحتة - وخاصة العلوم البيولوجية والحاسوبية والرياضية والإحصائية - على أسسها ومبادئها ومعاييرها .

* * * *

٥ ـ ٢

وقد اعتمدت نظريات التحليل الأسلوبي والقواعد التوليدية أيضاً على التقنيات العلمية، لأنها تقوم على أطر عقلية في دراسة النص الأدبي أقرب إلى علوم الرياضيات والإحصاء منها إلى أي علم آخر .

وترتبط القواعد التوليدية بالتحليل الأسلوبي ارتباطا وثيقاً لأن « المسلمات الأساسية في كلتا الدراستين - في القواعد التوليدية ضمنا وفي الأسلوبية صراحة - مسلمات عقلية - بالمعنى الذي أشار إليه كارتز ١٩٦٤ ... والقواعد التوليدية مهمة للأسلوبية لأنها معنية بالإضافة إلى وقائع « البنى السطحية » هذه بما يسمى بـ « البنى العميقة » للغة . أي الوقائع الخاصة بالبنية اللغوية التي يمكن وصلها مباشرة بما هو قابل للملاحظة . وتتعلق أكثر الأحكام الأسلوبية بالبنية العميقة »[٥٢] .

ولعلنا لا نبالغ حين القول : إن القواعد التوليدية والتحليل الأسلوبي ينبثقان من معطف واحد هو معطف المعايير العقلية والمنطقية ، ويعتمدان في ظل التقنيات المعاصرة على علمي الرياضيات والإحصاء .

وبرغم شيوع النظريات البنيوية المتعددة وكثرة الدراسات النظرية[٥٣] والتطبيقية حولها ، وبرغم تعدد أنماطها وتداخلها مع النظريات النصية والأسلوبية للحد الذي يصعب أحياناً الفصل بين المدارس البنيوية بعضها عن بعض نتيجة تداخل معاييرها وأسسها في كثير من الأحيان نقول برغم هذا التداخل إلا أننا آثرنا الوقوف عند بعض النظريات البنيوية والأسلوبية التي أخذت صبغة علمية بحتة واعتمدت على العلوم الرياضية والإحصائية في التحليل وأفادت من التقنيات المعلوماتية ، وخاصة في نقدنا العربي التطبيقي المعاصر . ونقف عند دراستين - على سبيل التمثيل وليس الحصر - الأولى : دراسة الدكتور سعد مصلوح عن « الأسلوب دراسة لغوية إحصائية » ، والثانية : دراسة الدكتور عبد الكريم حسن عن « الموضوعية البنيوية دراسة في شعر السياب » .

* * * *

٥-٢- أ

تعد دراسة الدكتور سعد مصلوح إحدى الدراسات الأسلوبية والنقدية التي أفادت من التقنيات المعلوماتية ، ولاسيما التحليل الإحصائي والرياضي كما أنه كان واعياً بعلمية النقد ، ولذلك اختار الطريقة العلمية البحتة في تحليل النصوص الأدبية يقول : « والذي اعتقده أن الأدب فن ولكن دراسة الأدب ينبغي أن تكون علماً منضبطاً ، وربما كان صحيحا أن النقد - كما يقول الأستاذ أحمد الشايب - « لا يمكن أن يكون من العلوم التجريبية كالطبيعة والكيمياء ، ولا من العلوم الرياضية كالحساب والهندسة والجبر »(٥٤) . ولكنه صحيح أيضاً أن كثيراً من العلوم الإنسانية الأخرى - وفي مقدمتها علم اللغة - استطاعت أن تحقق قدراً لا بأس به من الدقة والانضباط في مناهجها على اختلاف التخصصات والاتجاهات والمدارس ، وإذن فليست دراسة الأدب بدعاً حتى تتخلف في هذا المضمار عن اللحاق بعلوم أخرى مثل علم اللغة وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا وغير ذلك من العلوم »(٥٥) .

وقد حاول في هذه الدراسة إرساء منهج لغوي في نقد الأدب العربي يكون فيه النص The Text والخطاب الأدبي The Discourse أولاً وقبل كل شيء هو موضوع الدراسة ويكون منهج الدراسة فيه لغوياً Linguistic بالمفهوم العلمي لهذا المصطلح»(٥٦) .

وقد استند في دراسته للأسلوب إلى القياس الكمي Quantitative Measurment أو التحليل الإحصائي Statistical Analysis للنصوص حيث يرى أن « السمات اللغوية حين تحظى بنسب عالية من التكرار . وحين ترتبط بسياقات معينة على نحو له دلالته تصبح خواص أسلوبية Statistical Markers تظهر في النصوص بنسب Ratios وكثافة Density وتوزيعات Distributions مختلفة وهذا يبرر أهمية القياس الكمي باعتباره معياراً موضوعياً منضبطاً وقادراً على تشخيص النزعات السائدة في نص معين أو عند كاتب معين ، وإن شئت فقل تحديد المميزات الأسلوبية في هذا النص أو في نتاج هذا الكاتب ، ويطلق على هذا النوع من الدراسة

مصطلح علم الأسلوب الإحصائي Statistic Stylistics ، وهو أحد مجالات الدراسة اللغوية الأسلوبية المعاصرة Linguistic Stylisitics »[٥٧] .

وفي أكثر من موضع تؤكد هذه الدراسة على أهمية الطريقة الإحصائية في دراسة الأسلوب ، ومهما يكن من صحة هذا التصور حول العملية الإحصائية ، أهي منهج يصح الاستناد إليه ؟ أم طريقة من طرق تحليل النص يمكن استخدامها في كل المناهج ؟ فإن ما يعنينا هو مدى إفادة النص الأدبي من التقنيات المعلوماتية في الواقع المعاصر ، وتأثير ذلك على مسار الحركة النقدية .

وبرغم أن النظرية الإحصائية للأسلوب تعتمد على أن الأسلوب مفهوم احتمالي أي يمكن استخدام التوزيع الاحتمالي لخصائص أسلوبية معينة في نص أدبي ، أو استخدام عينات عشوائية أو مشروطة في النص ذاته . نقول على الرغم من هذه الاحتمالية في النظرية الإحصائية للأسلوب إلا أن الإحصاء سيظل طريقة علمية في تحليل النص الأدبي ويقترب بالنص النقدي من العلمية البحتة ، بدلاً من الانشائية والذاتية غير الموضوعية .

وتتضح المعايير العلمية والإحصائية في هذه الدراسة في محاولة تطبيق معادلة العالم الألماني أ. بوزيمان A. Busomann على بعض النصوص الأدبية كالمسرحية والرواية والسيرة الذاتية والمقال ، وهي معادلة علمية بحتة تستخدم الأسس الرياضية والإحصائية ، وكان بوزيمان قد اقترح هذه المعادلة وطبقها على نصوص من الأدب الألماني في دراسة له نشرت سنة ١٩٢٥[٥٨] .

واعتمد في هذه المعادلة على العلاقة بين الصفات والأفعال ، ورأى أن نسبة الصفات كلما زادت كانت أقرب إلى الأسلوب العلمي وإلى اللغة الكلامية ، وكلما نقصت كانت أقرب إلى الأسلوب العلمي واللغة المكتوبة ، وجاءت المعادلة على النحو التالي :

$$\text{نسبة الفعل إلى الصفة} = \frac{\text{عدد الأفعال}}{\text{عدد الصفات}}$$

$$\text{ن ف ص} = \frac{\text{عدد الأفعال}}{\text{عدد الصفات}}$$

ولسنا بصدد مناقشة هذه المعادلة ، فقد لا تتطابق تطابقاً كلياً مع النصوص الأدبية العربية ، لأن لكل لغة معناها الدال على مبناها فضلاً عن أن هناك أفعالاً في العربية لا تتضمن تعبيراً واضحاً عن الحدث « الفعل » كالأفعال الناقصة ، وأفعال المدح والذم ، وأفعال المقاربة والشروع . ومحاولة تجاهلها وعدم دخولها في العملية الإحصائية يؤدي إلى نقص في النتائج وعدم دقتها[٥٩] ، ولاسيما أن هذه الأفعال - المشار إليها - تشكل لازمة أساسية في النثر الأدبي وخاصة القصة القصيرة ، والرواية، لكننا لا نستطيع في الوقت نفسه أن نرفضها رفضا كليا ، بل يمكن تطويرها وتطويعها بحيث تتوافق مع التحليل الإحصائي والدلالي للنص الأدبي .

نقول إننا لسنا بصدد مناقشتها في هذا الموضع ، لكننا بصدد الإشارة إلى أهمية الطرق العلمية في تحليل النص الأدبي ، واقتحامها مجال اللغة النقدية - فمما لاشك فيه أن هذه المعادلة تعد من قبيل تطويع النص النقدي للتقنيات المعلوماتية والعلمية ، إذ مع وجود المعلومات الحاسوبية يمكن تطويع النص الأدبي لها واستخلاص النتائج الإحصائية في وقت قصير ، وعلى الباحث استنباط العلاقة الدلالية بين الأرقام الإحصائية والمعاني التي يطرحها النص .

وقد أفادت هذه الدراسة من الأشكال البيانية الرياضية والإحصائية في تحليل بعض النصوص المسرحية والروائية[٦٠] . الأمر الذي أدى إلى علمية اللغة النقدية وتحولها من الأسلوب الإنشائي إلى الأسلوب العلمي المقنن والدال في عبارات موجزة . ويرجع هذا - كما ذكرنا - إلى إفادة النقد الأدبي من المعايير العلمية المقننة .

* * * *

٥-٢- ب

أما محاولة الدكتور « عبد الكريم حسن » فقد جاءت عن « الموضوعية البنيوية دراسة في شعر السياب » لتفيد من الطريقة الرياضية والإحصائية في تحليل البنى اللغوية .

فإذا كان الدكتور سعد مصلوح استخدم معادلة بوزيمان الإحصائية في تحليل الظاهرة الأسلوبية في النص ، فإن الدكتور عبد الكريم حسن استخدم الطريقة الإحصائية أيضاً في تحليل البنية اللغوية في النص الشعري معتمداً على تصوره الخاص للعملية الإحصائية ، فعمد إلى حصر البنى المفردة في كل الأعمال الشعرية للسياب ، يقول : « ونقطة البدء هي «تكنيس» الأعمال الشعرية الكاملة إحصائيا ، فالإحصاء يجب أن يشمل الأغلبية الساحقة للمفردات إن لم يكن كلها »(٦١) .

وكان من الممكن أن تفيد هذه الدراسة من التقنيات المعلوماتية ، ويتوفر عناء ست سنوات قضاها الباحث في إحصاء البنى المفردة في كل أعمال السياب ، ولكن يبدو أن التقنيات المعلوماتية آنذاك (أواخر السبعينيات) لم تكن قد وصلت إلى التطور الهائل الذي نشهده الآن (منتصف التسعينيات) فلجأ الباحث إلى الطريقة اليدوية في العملية الإحصائية يقول : « ولقد كان من الضروري أن نقوم بهذا العمل مستعينين بالعقل الالكتروني ، ولكننا عندما هممنا بذلك وجدنا أن ما يتطلبه العقل الالكتروني من وقت لوضع البرامج وتدقيقها لا يقل كثيراً عن الوقت الذي يتطلبه الإحصاء اليدوي»(٦٢) . وعلى الرغم من أننا نقر بوجود علاقة ما بين البنى المكررة والمعنى الدلالي ، أو بينها وبين الجوانب النفسية ، إلا أن العملية الإحصائية لابد أن تقوم على رؤية متكاملة من حيث مبنى اللغة ومعناها وتراكيبها ومعاييرها المنهجية ، ولا تقوم على الحدس الشخصي فحسب يقول : « وفكرة الإحصاء حدس شخصي جاءنا من أن المجموعة اللغوية التي تردد مفرداتها بكثرة لابد وأن يكون لموضوعها أهمية متميزة بالمقابلة مع الموضوعات الأخرى ، والعكس صحيح إذ أن اهتمام الشاعر بموضوع ما ، لابد وأن يدفعه إلى الدوران في حومة المفردات التي تعبّر عنه فلننقل إذاً مع

"J.P.Richard" التكرار أينما كان دليل على الهوس »[٦٣] .

وبرغم الاتفاق مع هذه الرؤية في بعض الأحيان إلا أن دراستها لابد أن تكون وفق منظومة متكاملة من حيث توافقها مع الأسس المعيارية للنظرية الإحصائية ، والرؤية الشمولية للمنهج النقدي المتبع ، فكما ذكرنا إن الطريقة الإحصائية هي طريقة معينة في تحليل النص الأدبي يمكن أن تتوافق مع أي منهج نقدي . لكنها ليست منهجاً مستقلاً بذاته ، بل إن الناقد J.P.Richard نفسه يقرر هذه الحقيقة عندما يقول في موضع آخر « وعلى الرغم من أنه لا جدال فيما تقدمه الإحصائيات ، إلا أنها لا يمكن أن تقود إلى حقائق نهائية »[٦٤] .

ويبدو أن الدكتور عبد الكريم حسن كان واعياً ومدركاً لأبعاد هذه المقولة ومن ثم لم يكن تركيزه على البنى المفردة فحسب ، بل عني أيضاً بالبنى المركبة ، أو على حد تعبير A.J.Greimas « النويات النصية للمعنى » وكان معنيا بالبنى المفردة في إطار البنى الشمولية للنص والموضوعية البنيوية عنده تعني - على حد تعبير J.P.Richard - الملاحقة المستمرة للتعددية التي يتميز بها المعنى ، إنها بحث عن المعنى في كل الاتجاهات »[٦٥] .

ومهما يكن من أوجه اتفاق واختلاف حول مفهوم البنيوية الموضوعية فإن هذه الدراسة تعد خطوة متقدمة نحو علمية النص النقدي ، كما تعد إرهاصا صوب إفادة النقد الأدبي من التقنيات المعلوماتية المعاصرة .

فقد يشهد مطلع القرن الواحد والعشرين لغة نقدية علمية خالية من الألفاظ الإنشائية غير المحددة ، وذلك بفعل اقتحام المعلومات الحاسوبية شتى مناحي المعرفة العلمية والإنسانية . بل قد تصبح اللغة النقدية السائدة هي اللغة المعلوماتية الحاسوبية ، التي توصلنا إلى دلالات النص الأدبي وفيض معانيه في وقت قصير ، وإلى توزيع احتمالي وشمولي لأبعاد النص ورموزه .

* * * *

الهوامش

١- د. علي حلمي موسى :

- استخدام الآلات الحاسبة الالكترونية في دراسة ألفاظ القرآن الكريم ، عالم الفكر، المجلد الثاني عشر ، العدد الرابع ، ديسمبر ١٩٨١ ، ص ١٠٨٦ - ١١٢٦ .
- إحصائية جذور معجم لسان العرب باستخدام الكمبيوتر ، مطبوعات جامعة الكويت، سنة ١٩٧٣ .
- دراسة إحصائية لجذور معجم تاج العروس باستخدام الكمبيوتر ، مطبوعات جامعة الكويت ، د.ت .
- دراسة إحصائية لجذور معجم الصحاح باستخدام الكمبيوتر ، مطبوعات جامعة الكويت ، سنة ١٩٧٣ ، هيئة الكتاب ، القاهرة سنة ١٩٧٨ ط ٢ .

٢- د. إبراهيم أنيس : الحاسبات الالكترونية في البحوث اللغوية ، المجمع المصري للثقافة العلمية، العدد الثاني والأربعون ، نوفمبر ١٩٧٨ ، ص ١٩٨ - ٢٠١ .

٣- د. يحيى هلال : تحليل صرفي للعربية ؛ أوراق عمل ندوة « المعالجة الآلية للغة العربية » التي عقدت بالكويت في تاريخ ١٤ - ١٦ إبريل سنة ١٩٨٥ ، مجلد ١ .

٤- د. نبيل علي : اللغة العربية والحاسوب ، دراسة بحثية ، تقديم د. أسامة الخولي ، مطابع الخط ، د . ت .

٥- د. سعد مصلوح :

- الأسلوب دراسة لغوية إحصائية ، عالم الكتب ،ط ٣ ، القاهرة سنة ١٩٩٢ .
- تحقيق نسبة الشعر إلى المؤلف ، دراسة إحصائية في الثابت والمنسوب من شعر شوقي ، فصول ، مج٣ ، ع١ ، القاهرة ، سنة ١٩٨٢ .
- « قياس خاصية تنوع المفردات في الأسلوب ، دراسة تطبيقية لنماذج من كتابات الرافعي والعقاد وطه حسين » ، حولية كلية الآداب ، مج ١ ، جامعة الملك عبدالعزيز ، سنة ١٩٨١ .
- « في التشخيص الأسلوبي الإحصائي للاستعارة ، دراسة تطبيقية لقصائد من

أشعار البارودي وشوقي والشابي » ، الحياة الثقافية » ، ع ٤٥ - ٤٦ ، تونس ، ١٩٨٧ .

٦- د . عبد الكريم حسن : الموضوعية البنيوية ، دراسة في شعر السياب ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت سنة ١٩٨٣ .

٧- جان بياجيه : الابستمولوجية التكوينية . ت . د . السيد نفادي ، دار الثقافة الجديدة، القاهرة سنة ١٩٩١ .

٨- جان فرانسوا ليوتار : الوضع ما بعد الحداثي ، ترجمة أحمد حسان ، دار شرقيات ، القاهرة سنة ١٩٩١ .

٩- د . عبد الرحمن أيوب : الكلام إنتاجه وتحليله ، مطبوعات جامعة الكويت .

١٠- الوضع ما بعد الحداثي ، ص ٢٧ - ٢٨ .

١١- الوضع ما بعد الحداثي ، ص ٢٨ .

١٢- الوضع ما بعد الحداثي ، ص ٢٨ - ٢٩ .

١٣- انظر : د . علي حلمي موسى :

- دراسة إحصائية لجذور معجم الصحاح باستخدام الكمبيوتر ، الفصل الخاص بـ« تتابع الحروف » ، ص ٢٩ وما بعدها .

- وانظر : دراسة إحصائية لجذور معجم تاج العروس باستخدام الكمبيوتر ، ص ٥٩ .

١٤- للمزيد انظر : كلود ليفي شتراوس : مقالات في الإناسة ، ت.د. حسن قبيسي ، دار التنوير، بيروت سنة ١٩٨٣ ، ص ١٠٧ خاصة فصل « المعايير العلمية في فروع المعرفة الاجتماعية والإنسانية » .

١٥- انظر : اللغة العربية والحاسوب ، ص ٣ ، ٧ .

١٦- للمزيد انظر : اللغة العربية والحاسوب ، ص ٥ ، ١٠ .

١٧- انظر : اللغة العربية والحاسوب ، ص ١٩٧ - ١٩٨ .

١٨- انظر : اللغة العربية والحاسوب ، ص ٢١٠ .

١٩- للمزيد حول جدول الشفرة العربية الموحدة للكتابة العربية « الشفرة سباعية العزوم - 7 bit) وتوضيح أهم ملامحها ، انظر اللغة العربية والحاسوب ، ص٢١٤-٢١٥.

٢٠- اللغة العربية والحاسوب ، ص ٢١٣ .

٢١- اللغة العربية والحاسوب ، ص ٢٤٧ .

٢٢- اللغة العربية والحاسوب ، ص ٢٤٨ .

٢٣- انظر اللغة العربية والحاسوب ، ص ٢٤٨ .

٢٤- اللغة العربية والحاسوب ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

٢٥- انظر : اللغة العربية والحاسوب ، ص ٢٥١ .

٢٦- للمزيد حول مفهوم التقطيع الذاتي انظر :

McCarthy, J. Aprosdic Theory of Non - Concatenetive Morphology Linguistics 12,pp:375-418.

وانظر اللغة العربية والحاسوب ، ص ٢٧٢ .

٢٧- للمزيد انظر : اللغة العربية والحاسوب ، ص ٢٧٣ .

٢٨- اللغة العربية والحاسوب ، ص ٢٩٩ - ٣٠١ ، وانظر الرسم التوضيحي للاطار العام لمعالجة الصرف العربي آليا ، ص ٣٠١ .

٢٩- للمزيد انظر : اللغة العربية والحاسوب ، ص ٣٣٠ - ٣٣١ .

٣٠- انظر : اللغة العربية والحاسوب ، ص ٣٣٣ - ٣٣٤ .

٣١- انظر اللغة العربية والحاسوب وخاصة الرسم التوضيحي للإطار العام للمنظومة النحوية ص ٣٤٤.

٣٢- اللغة العربية والحاسوب ، ص ٣٥٨ - ٣٥٩ .

٣٣- اللغة العربية والحاسوب ، ص ٢٦٠ .

٣٤- للمزيد انظر : اللغة العربية والحاسوب ، ص ٣٩١ .

٣٥- انظر على سبيل التمثيل في الدراسات الأوربية : برتيل مالمبرج :

- الصوتيات ، ترجمة د. محمد حلمي هليل ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية ، القاهرة سنة ١٩٩٤ .
- ارنست بولجرام : في علم الأصوات الفيزيقي ، مدخل إلى التصوير الطيفي للكلام ، ترجمة د. سعد مصلوح ، مكتبة دار العلوم سنة ١٩٧٧ .

٣٦- انظر : د. سعد مصلوح : دراسة السمع والكلام ، عالم الكتب ، القاهرة سنة ١٩٨٠ .

٣٧- انظر : د. عبد الرحمن أيوب : الكلام انتاجه وتحليله ، مرجع سابق .

٣٨- محمد الماكري : الشكل والخطاب ، مدخل لتحليل الظاهراتي ، ص ٤١ ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء سنة ١٩٩١ .

٣٩- الشكل والخطاب ، ص ٤٦ .

٤٠- انظر المربع السيميائي وتوضيح أبعاده في كتاب الدكتور « محمد مفتاح » « دينامية النص ، تنظير وإنجاز » المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، سنة ١٩٨٧ ، ص١١-١٢.

٤١- انظر : دينامية النص ، ص ١٣ .

٤٢- انظر : دينامية النص ، ص ١٥ .

٤٣- دينامية النص ، ص ١٧ .

٤٤- انظر : دينامية النص ، ص ١٨ .

٤٥- دينامية النص ، ص ١٨ - ١٩ .

٤٦- انظر : دينامية النص ، ص ١٩ - ٢٠ .

٤٧- دينامية النص ، ص ٢٣ .

٤٨- دينامية النص ، ص ٢٤ - ٢٥ .

٤٩- انظر : دينامية النص ، ص ٢٥ .

٥٠- دينامية النص ، ص ٢٩ .

٥١- للمزيد انظر : دينامية النص ، ص ٣٠ - ٣١ .

٥٢- انظر بحث جي . بي . ثورن عن « القواعد التوليدية والتحليل الأسلوبي » ضمن كتاب « اللغة والخطاب الأدبي » ت. سعيد الغانمي ، ص ٨٠ ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء سنة ١٩٩٣ .

٥٣- ونذكر هنا بعض هذه الدراسات التي عنيت بالنظرية البنيوية على سبيل التمثيل وليس الحصر :

- د. جابر عصفور : عن البنيوية قراءة في لوسيان جولدمان ، فصول ، القاهرة مج ١ ، ع ٢ سنة ١٩٨١ ، وترجمته كتاب « النظرية الأدبية المعاصرة » لرامان سلدن، دار الفكر للدراسات والنشر ، القاهرة سنة ١٩٩١ .

- د٠ زكريا إبراهيم : مشكلة البنية ، مكتبة مصر ، القاهرة سنة ١٩٧٦ ٠
- جاك ديريدا : البنية - الدليل - اللعبة في حديث العلوم الإنسانية ، ت ٠ محمد البكري، الثقافة الجديدة ، المغرب سنة ١٩٧٨ ٠
- جان بياجيه : البنيوية ، ترجمة عارف منيمنة ، بيروت ، د٠ت
- جان كوزينيه : البنيوية ، الفكر العربي المعاصر ، بيروت ، نوفمبر سنة ١٩٨٠ ٠
- صلاح فضل : نظرية البنائية في النقد الأدبي ، مكتبة الانجلو ، القاهرة سنة ١٩٧٨ ٠
- د٠ عبد السلام المسدي : بنيوية الشمول في اللسانيات العربية ، الحياة الثقافية ، تونس، ديسمبر سنة ١٩٧٩٠
- جورج زيناتي : تأثير البنيوية في الفلسفة ، الفكر العربي المعاصر ، بيروت ، نوفمبر سنة ١٩٨٠ ٠
- أمينة رشيد : السيميوطيقا : مفاهيم وأبعاد ، فصول ، القاهرة ، مج ١ ، ع ٣ ، إبريل سنة ١٩٨١ ٠
- بشارة صارجي : البنيوية ، غياب الذات ، الفكر العربي المعاصر ، بيروت ، نوفمبر سنة ١٩٨٠ ٠
- أضولفو باسكيز : البنيوية والتاريخ ، ت٠ مصطفى المسناوي ، الثقافة الجديدة ، ع١٧ ، المغرب ، سنة ١٩٨٠٠
- أميل فان تيسلار : البنيوية ، الفكر العربي المعاصر ، عدد أكتوبر ، نوفمبر ، سنة ١٩٨٠ ٠
- سيزا قاسم ، نصر أبو زيد ، مدخل إلى السيميوطيقا ، مقالات مترجمة ، دار إلياس العصرية ، سنة ١٩٨٦ ٠

٥٤- أحمد الشايب : أصول النقد الأدبي ، ط ٥ ، القاهرة سنة ١٩٥٥ ، ص ١٧٦ ٠

٥٥- د٠ سعد مصلوح : الأسلوب ، دراسة لغوية إحصائية ، ط٣ ، عالم الكتب ، القاهرة سنة ١٩٩٢ ، ص ٢٦٠

٥٦- الأسلوب ، ص ٢٩ ٠

٥٧- الأسلوب ، ص ٣٢ ٠

58- Friederike Antosch, "The Diagnosis of Literary Style With

The Verb - Adjective Ratio " in Statistics and Stylistics, ed L. Dolezel and R.W.Baily, NewYork, 1969,P.57.

٥٩- تجدر الإشارة إلى أن الدكتور سعد مصلوح في محاولته تطبيق معادلة بوزيمان على بعض النصوص الأدبية العربية ، جعل الأفعال التي تخصصت دلالتها في الزمن كالأفعال الناقصة ، أو التي جمدت دلالتها على الحدث ، جعلها خارج الإحصاء . أي خارج العملية التطبيقية ، ونظن أن ذلك سيحدث قصوراً في النتيجة الكلية لأن النصوص العربية الحكائية وخاصة القصة القصيرة والرواية تشكل الأفعال الناقصة فيها - ولاسيما الفعل « كان » ملمحاً بارزاً في بنائها لا يمكن تجاهله في العملية الإحصائية .

٦٠- انظر الأسلوب ، ص ١٠٦ - ١١٠ - ١١١ - ١١٤ - ١١٥ - ١١٦ - ١٣٠ - ١٣١ .

٦١- د. عبد الكريم حسن : الموضوعية البنيوية ، ص ٣٣ .

٦٢- الموضوعية البنيوية ، ص ٣٣ .

٦٣- الموضوعية البنيوية ، ص ٣٣ .

٦٤- الموضوعية البنيوية ، ص ٣٥ .

٦٥- الموضوعية البنيوية ، ص ٣٧ .

الخواص الفنية لرواية الأصوات العربية

د. محمد نجيب التلاوي

أستاذ اللغة العربية المساعد

بجامعتي المنيا وقطر

بعد أن أدت الرواية العربية فروض الولاء لمجتمعاتنا العربية فعبرت عن رغبة التحرر والاستقلال، ثم عززت الهوية العربية، ورصدت مجتمعاتنا العربية في تحولاتها الحضارية المعاصرة وعبرت عن علاقة الحاكم بالمحكوم ... بدأ الروائيون العرب رحلة البحث عن التميز الفني، فكان التوظيف التراثي... وكان (تيار الوعي) الذي عبّر عن النماذج العربية المأزومة كرواية (هابيل) لمحمد ذيب ... ثم كانت رواية الأصوات العربية التي بُعثت في الستينيات .

ورواية الأصوات تمثل نقلة نوعية في مسار الرواية العربية، لأنها نوع حداثي متميز يتأبّى على البنى السائبة، وينأى بالمسار الروائي عن غياهب الغموض المفرط. وتتمتع رواية الأصوات ببناء فني خاص، ولذلك لم تجتذب إلا المبدعين المتميزين الممتلكين للثقافة والموهبة والقدرة الغيْرية . وهذا يفسر لنا سبب قلة المنتوج الروائي لرواية الأصوات العربية .

وكان (فتحي غانم) قد بدأ في منتصف الستينيات برباعيته (الرجل الذي فقد ظله) ثم تبعه نجيب محفوظ في (ميرامار).. وتوالى بعدهما عدد من الروائين المتميزين (سليمان فياض / عبده جبير/ عبدالرحمن منيف/ جمال الغيطاني/ يوسف القعيد/ طه وادي/ إبراهيم عبدالمجيد)[1] .

وإذا كان (هنرى چيمس) قد أعلن عن رغبة عامة لتطوير الفن الروائي عندما أعلن (وجهة النظر) في مطلع هذا القرن من أجل اختفاء الروائي من روايته ، فطوّر الفن الروائي... فإن (باختين) قد كشف عن بناء رواية الأصوات عند (ديستوفسكي) وهو جهد مماثل قد أفاد الرواية العالمية ... والعرب قد أفادوا من رواية الأصوات الديستوفسكية مما يفجر السؤال عن طبيعة الاستفادة وهل هي مجرد بعث أم أنها اكتسبت بعض الخواص البنائية الأخرى ؟

وقبل الإجابة عن هذا السؤال يجدو بنا أن نستطلع الإرهاصات الفنية التي مكنت لـ(ديستوفسكي) أن يقدم صورة ناضجة لرواية الأصوات، وذلك لقناعتي بأن إلقاء الريادة والأولية لـ(ديستوفسكي) أمر فيه إجهاض لقدرات ومحاولات قد سبقته وعبّدت له الطريق . والبحث عن الإرهاصات الغائرة في القدم هو بحث عن جذور رواية الأصوات التي لم تنبت نبتاً شيطانياً .

أما عن تصوري للإرهاصات فاعتقد أنها تمتد إلى (أرسطو) الذي امتدح (هوميروس) عندما لا يدخل الشاعر أو الراوي في عرض الأحداث إلا نادراً ، وذلك ليترك فرصة الظهور الكامل للشخصيات[٢] ، وهو تحجيم مبكر لدور الكاتب والراوي. ثم يعزز (سقراط) هذا الإرهاص الباكر بالحوار السقراطي الذي تميز بأسلوبي : السينكريزا Senkriza والأناكريزا Anakriza ، أما الأول فقصد به تقابل وجهات النظر حول مسألة بعينها ، وأما الأخر فقصد به القدرة على أن تثار كلمة المناقش أو تستفز[٣]. والتحلق حول فكرة أو قضية هي نفسها فكرة رواية الأصوات التي تأبى وجهة النظر الأحادية، وكان الحوار السقراطي يقترن بصورة حامله. ثم جاء (بريخت) وأحيا فنية تحلق الشخصيات حول فكرة بعينها في المسرح الملحمي حديثاً.

وفي نهاية القرن الماضي جاء (فلوبير) وسعى تنظيرياً لإخفاء الراوي والروائي من الرواية ودعا إلى مسرحة الأحداث لاختفاء الروائي... ، وفكرة المسرحة موجودة في رواية الأصوات على نحو خاص - كما سنرى - .

ومن ناحية أخرى فإنني اعتقد أن (رواية الرسائل) تعد إرهاصاً مهماً لرواية الأصوات ، لأنها تعتمد على شخصيات روائية مستقلة ومتحاورة فيما بينها بالرسائل المتبادلة كما نجد في رواية (ماجدولين)[٤] ، ونلاحظ أن الحدث يتم استعراضه عبر وجهات نظر متباينة للشخصيات الروائية، ومن هنا تتولد المشابهة مع رواية الأصوات. وفي أدبنا العربي نلتقي برواية رسائل أظنها وحيدة للروائي (محمد عبد الحليم عبد الله) وهي رواية (إبريسم)[٥] التي كتبها في شبابه ١٩٣٥.

وقبيل (ديستوفسكي) نلتقي بإرهاص آخر مهم وهو (ن.غ تشيرنيشيفسكي) الذي وقع على تنظير جيد وهو يبحث عن تصميم موضوعي لموقع المؤلف الحيادي. وكان معاصراً لـ(ديستوفسكي) لكنه سبقه برواية (درة التكوين) التي سعى فيها لتجاوز الحدود السائبة لشكل الرواية المنولوجية. وكان (تشيرنيشيفسكي) قد ركز على نقطتين الأولى تتصل بموقع الروائي وطالب بحيادية تصل إلى حد برودة الجليد، والأخرى الحرص على تباين الشخوص الروائية تباينا يشبه ألوان قوس قزح - على حد تعبيره - .

واعتقد أن النقطتين تمثلان أساس البناء الفني لرواية الأصوات التي لا تحفل بوجود الروائي الذي ينبغي أن يكون اختفاؤه بقدرة غيرية، والتباين بين الشخصيات هو نفسه (اللاتجانس) بين الأصوات وهو من أساسيات رواية الأصوات - كما سنرى - .

وإذا تمثلنا محاولات المسرحيين والمنظرين القدامى (أرسطو/سقراط/هوراس) فضلاً عن (فلوبير) ثم (تشيرنيسيفسكي) ، وإذا تذكرنا (رواية الرسائل) فهذا كله يشير إلى وجود إرهاصات قوية لابد أنها كانت الزاد القوي الذي أعان (ديستوفسكي) لكي يكون رائداً لرواية الأصوات برواياته الناضجة فنياً في هذا المجال * .

---

* وهناك رأي آخر يرى أن الوضعية الحضارية والسياسية التي أذابت حكم الفرد وساعدت على الحرية والديمقراطية هي نفسها التي هيأت المناخ المناسب لظهور الأصوات

ومن بعد دراسة (باختين)[٦] استقر مصطلح (رواية الأصوات Polyphone) في المعاجم النقدية التي استقت أقوالها من تنظير (باختين) لمعنى رواية الأصوات وهو النص المتعدد الأصوات "والذي لا يتوفر على فاعل (أيديولوجي) لأنه جهاز يعرض عبر أيديولوجيات ، ويستهلك داخل هذه التعارضات . وتوزع الكلمة والخطاب توزعاً بين مختلف القضايا الخطابية التي يمكن أن يحتلها " أنا " متعدد الأصوات في آن واحد "[٧] . وقال (تودوروف) بمصطلح (الرؤية المقولبة) وقصد به تجميع لوجهات النظر حول نفس الحدث ، وهو مصطلح قريب من آليات التنفيذ الفني لرواية الأصوات ومنطوق المصطلح لا يساعدنا على تكوين رؤية دقيقة للبناء الفني لرواية الأصوات ، فضلاً عن وجود مسافة - من الفروق - معترف بها بين التنظير والتطبيق في السرد الروائي والخطاب الروائي ، وهو أمر يدفعنا إلى محاولة الاقتراب من النصوص الروائية - مصدر الدراسة - لنحدد من داخلها الخواص البنائية المميزة لرواية الأصوات. وأتصور أن هذه الخواص يمكن الكشف عنها من خلال الأليات الروائية التنفيذية لرواية الأصوات :

(أ) اللاتجانس (ب) الحوار/المنولوج (جـ) الأسلبة (د) الزمان والمكان (هـ) الهيكل البنائى .

أ - اللاتجانس :

كانت هناك مبررات قوية لوجود البطولة المطلقة في الرواية التقليدية ، وهي بطولة تصبغ الأحداث الروائية بوجهة نظرها ، وسعي الروائي لممارسة فاعلية الموحد من أجل تبنى وجهة نظر أحادية لأسباب منها ، ضعف الروائي وعدم تمتعه بالقدرة الغيرية فضلاً عن التقليد . . . أو النزعة الرومانسية والاتجاه السيري ثم الواقع المتحد ضد الاستعمار أو التحرك الجمعي بعد الاستقلال بفعل زعامة أو مبادىء . . . وهذه الأسباب كلها قد ساعدت على إذابة اللاتجانس - إن وجد - في الرواية من أجل الوصول إلى رؤية أحادية .

أما في رواية الأصوات ، فأصبحت مهمة الروائي ليست التغلغل في الموضوعي بل

"التأكيد على استقلالية الأنا الغيرية (الصوت) لا بوصفها الموضوع Abject بل بوصفها الذات الفاعلة Sebject "[٨]. ومن ثم فالحدث الروائي في (رواية الأصوات) لا يذعن لتفسير أحادي مشدود لمركزية محورية ؛ لأن الحدث الواحد يتوزع على أصوات لإبراز ردود الأفعال .. ولذلك فهذه الرواية لا تعرف التجانس التقليدي الذي يغري نقاد الرواية التقليدية .

ورواية الأصوات مشدودة إلى الواقع - غالباً - لأن الواقع منطقة مفعمة بالتناقضات المتعايشة في ممارساتنا الحياتية ، ولأن كل شيء في الحياة له طبيعة طباقية Cointerpaint ، ولذلك سعت الروايات التقليدية إلى صهر العناصر المتنافرة داخل وجهة نظر أحادية مما كان يؤدي - غالباً - إلى نوع من الانسجام القهري أو القسري كـ (السرير البروكستي) * .

ثم إن الواقع نفسه يمثل عنصراً متنافراً مع (الذات) وليس منسجماً معها ، لأن كثرة التحديات الواقعية تعمق الرؤى وتحيلها إلى مثل عليا ذاتية فتزيد الأصوات قدرة على الاستقلالية النوعية . وهذا يفسر لنا سبب ركون رواية الأصوات إلى الواقع والتغذي على معطياته الحافلة باللاتجانس الذي يمثل الانطلاقة الأساسية لفلسفة البناء الفني لرواية الأصوات .

والتعددية الجوهرية لأشكال الوعي هي المخلقة للتعددية الصوتية التي تأبى الاندماج والتوحد في رؤية أحادية البعد . وإزاء (اللاتجانس) تصبح النقدات الباحثة عن حدود الانسجام القسري لإبراز وجهة نظر أحادية في رواية الأصوات بمثابة نقدات غير مقدرة لخصوصية البناء الفني لرواية الأصوات .

في رواية (أصوات) لسليمان فياض يقرر (حامد البحيري) العودة إلى الوطن بصحبة زوجته الفرنسية (سيمون) فاحتلفت البلدة بهما ... وكل بطريقته الخاصة

---

* كناية عن إحداث الانسجام القسري ، وهو يتصل بالميثولوجيا الإغريقية عندما كان « بوسيدون » يجبر المسافرين على الرقاد في سريره ملائمين أنفسهم عن طريق مط أجسادهم أو قطع أرجلهم ... .

(المأمور ، العمدة ، الأخ ، الأم ، زوج الأخ ، نفيسة القابلة . . .) وانتهى الأمر بغيرة نسائية أودت بحياة (سيمون) عندما قامت نساء القرية بختانها عنفة .

إن اختصار الأصوات اللا متجانسة جميعها في معنى واحد هو لقاء الشرق بالغرب لأمر فيه إجهاض حقيقي للمعطيات المختلفة لرؤى الأصوات هنا ، وتجاهل لإمكانات الأصوات الروائية ووجهات النظر المتباينة في الرواية . لقد كان البحث عن تجانس قصدي أمراً ميسوراً مع رواية الحكيم (عصفور من الشرق) - مثلاً - لأنه عمد إلى إبراز فكرة علاقة الشرق بالغرب بينه وبين فتاة المسرح . . . واستكمل الموقف الأحادي بحوارات مفتعله للبطل مع صديقه الروسي المغرم بالشرق . فالفكرة واحدة والانسجام قائم والتوحد غاية روائية اشتركت فيها روايات أخر تقليدية البناء في هذا الموضوع مثل (أديب لطه حسين ، وقنديل أم هاشم ليحيى حقي ، وموسم الهجرة إلى الشمال للطيب صالح . . .) لأن تلك الروايات جميعها تناولت وجهة نظر أحادية في موضوع الشرق والغرب .

أما مع رواية (أصوات) فالأمر يختلف لأننا أمام أصوات مكتملة التمايز ومتباينة أشد التباين. وكل صوت محمل بوجهة نظره الخاصة والأصوات تحلقت بآرائها المختلفة حول مقتل (سيمون) . .

وفي فكرة مثل الصراع الطبقي بين الإقطاع والفلاحين نجد بعض الروايات التقليدية البناء مثل (الأرض / رد قلبي / ما وراء النهر)[٩] ، وقد سعى روائيو هذه الروايات إلى غاية واحدة فذابت الشخوص في مضمارين (الإقطاع / الفلاحون) تماماً كالصراع الكلاسي بين الخير والشر أو الواجب والعاطفة . أما رواية الأصوات التي تناولت هذا الموضوع (للقعيد) فهي رواية (الحرب في بر مصر) قد عمدت إلى المواجهة الطبقية بمنظور الأصوات المتباينة الرؤى والآراء على الرغم من أن الحدث واحد وهو موت (مصري) وهو يؤدي الخدمة العسكرية بدلاً من ابن العمدة المدلل إلا أن العرض تمتع بوجهات نظر عديدة حملتها الأصوات فالعمدة يحكي ويدافع عن طبقته المالكة للأراضي الزراعية ، ووالد (مصري) الخفير الفقير يحاول أن ينتصر لطبقته الضعيفة

بضعف فيفشل حتى فى الحصول على جثة ابنه المستشهد ، و(المتعهد) المزيف يبرر تزييفه . . . وتجاهل هذه الأصوات ووجهات نظرها لاختصار الرواية في رؤية المواجهة الطبقية بين الفلاحين والإقطاع لأمر فيه كثيرمن الإجحاف وقليل من الإنصاف لقدرات اللاتجانس الذي تمتعت به رواية الأصوات .

ومن أجل هذا قيل إن رواية الأصوات تختلف في بنائها وتذوقها عن الرواية التقليدية، لأنها تخالف علم الجمال (الإستاتيكي) الذي يعلى من جمالية التجانس . أما رواية الأصوات فهي تحرص على (اللاتجانس) الذي يحتفظ للواقع بتنافراته ومتناقضاته وحيويته الساخنة .

واللاتجانس بين الأصوات من أساسيات إنجاح (رواية الأصوات) وكلما زادت الاختلافات الفكرية والطبقية والثقافية بين الأصوات كلما ساعد ذلك على نجاح رواية الأصوات مثل ما نجده في رواية (الرجل الذي فقد ظله) لفتحي غانم الذي أقام بناءه الروائي بين أصوات شديدة التباعد (خادمة/ممثلة/ رئيس تحرير . . .) ومثل محاولة (نجيب محفوظ) في (ميرامار) حيث نلتقي بـ(خادمة/ اقطاعي/مذيع . . .) .

وكلما ذابت الفروق بين الأصوات كلما خفت (اللاتجانس) وهذا يؤثر سلبياً على رواية الأصوات وتلاحظ هذا في روايات مثل (نحريك القلب) لعبده جبير لأن أصواته الروائية مجموعة لأسرة واحدة متقاربة العمر ومتحدة الطبقة الاجتماعية والثقافية ، واكتفى الروائي بأن جعل الطموح بينهم هو سبيل التميز .

والأمر نفسه نلاحظه مع (إبراهيم عبدالمجيد) في روايته (المسافات) لأن سكان المنطقة يتشابهون في الفقر والجهل والجنس حتى أنهم تعلقوا معاً بأمل واحد وهو عودة قطار (الكنسة) . . ومثل هذا التجانس والتشابه يؤثر سلبياً على رواية الأصوات ويجهض القدرات المتوقعة للأصوات ووجهات نظرها المتباينة .

لقد جاءت رواية الأصوات، وأعلت من شأن اللاتجانس كأساس بنائي وذلك لتحطيم التفكير (الإستاتيكي) والرؤية الموحدة الواحدة التي كانت تنطلق من المؤلف إلى بطله إلى أحداثه في الرواية التقليدية، ليظفر الروائي بوجهة نظر كلية كان قد أزمع

عليها وخطط لها سلفاً. أما رواية الأصوات فالمؤلف بعيد عن أصواته المستقلة المتمتعة بمساحة الحرية التي تستنبت وجهات النظر المتباينة تبعاً لحجم وقوة (اللاتجانس) بين الأصوات ، وكأن الرؤى المتباينة الناتجة عن اللاتجانس صدى لنسبية (أينشتين) حيث أصبح تعدد الأنظمة الحسابية معه أمراً مألوفاً .

واللاتجانس تنبع أهميته ليس فقط من إحصائنا لوجهات نظر متعددة في الرواية، وليس فقط من تحطيمه للرؤية الأحادية والبطل الأوحد، وليس فقط في عدم إعلان نهاية واحدة محسومة . وإنما تنبع أهميته الأخيرة في أن اللاتجانس الصوتي في رواية الأصوات قادر على كشف البناء الجيولوجي لمجتمع ما تماماً كما رأينا في رواية (الرجل الذي فقد ظله) حيث ساعد اللاتجانس الصوتي على إبراز حجم التصدع الحضاري والقيمي للمجتمع المصري قبيل وبعد الثورة، وذلك بإبراز التناقض القائم بين القيم الثابتة والواقع المتغير، وكانت رغبة الأصوات (يوسف /مبروكة/سامية..) في تجاوز طبقاتهم الاجتماعية قد أشعل الصراع (بالوعي الكامن) [١٠] وهو وعي نكتسبه إن أفلحنا في فهم الحقائق الاجتماعية والوصفية التاريخية والسياسية بكل تعقيداتها . وبذلك رصدت الرواية بعداً سيسيولوجياً يقترب من محاولات (ديستوفسكي).

إذن فاللاتجانس هو القوة المولدة لنجاح رواية الأصوات . والروايات التي تمثل مصدر هذه الدراسة عشر روايات نجد قوة اللاتجانس مثلت ٦٠٪ وهي روايات (الرجل الذي فقد ظله /ميرامار/ أصوات/ يحدث في مصر الآن/ الحرب في بر مصر/الزينى بركات)، بينما جاءت ٤٠٪ كان (اللاتجانس) ضعيفاً فأثر سلبياً على البناء الروائي في روايات (الكهف السحرى/ السنيورة/ المسافات/ تحريك القلب) .

ب - الحوار والمنولوج :

الحقيقة تتولد بالحوار ، والخاصية الحوارية في رواية الأصوات وسيلة أساسية لتقديم الحقيقة، والحقيقة الواقعية تحتفظ للواقع بقوامه المليء بالتناقضات والتفاوتات الفكرية والطبقية... ولم يكن غريباً أن يسمى (سقراط نفسه بـ(القابلة)؛ لأنه كان يستدرج الناس إلى الحوار والجدل ويولد منهم الحقيقة.

و(التكنيك) الفني لرواية الأصوات يرى أن الصوت الروائي ليس بطلاً بتعبير الكلاسيين ، وإنما هو وجهة نظر تجاه نفسه وواقعه ، فهو جزء من كل ينتمي إليه ، ويتفاعل معه فيحاوره ، فالحوار أساسي هنا ، وبدونه تتيبس الأصوات وتنغلق على ذاتها بطريقة الرومانسيين أو بطريقة تيار الوعي. . . لكن الصوت في رواية الأصوات عندما يستخدم (الأنا السردية) فهذا يعني الانعتاق وليس الانغلاق، لأن الصوت يسعى لاكتشاف نفسه ووعيه بذاته ثم وعيه بالآخرين ، ولأن الصوت لا يحفل بتصوير الممارسات الحياتية ، لأنه يركز بشكل مباشر على الفعل ورد الفعل، ولأن رد الفعل يمثل خلاصة وعي الصوت بذاته وبالآخر .

ولذلك فعلينا - نحن النقاد - ألا نحفل بالبحث عن ملامح الواقع في حركية الصوت قدر عنايتنا بالبحث عن الدلالة المحركة لرد فعل الصوت تجاه ذاته وتجاه الآخر أو كما قال ديستوفسكي :" إنني أبحث عن الإنسان داخل الإنسان".

إذن فالصوت الروائي ليس جديداً ، وإنما الجديد هنا هو بحث الصوت عن ذاته وعن الآخر ، وحرية الصوت مساعدة له لإتمام وعيه الداخلي والخارجي ولإبداء وجهة نظره ، لأن الصوت هنا ليس مجرد نموذج اجتماعي مقتطع من واقعة لإتمام رؤية أحادية كلية كما نجده في الرواية التقليدية، ولأننا مع رواية الأصوات لا يجوز لنا "تحويل الإنسان الحي إلى موضوع أبكم لإدراك غيابي يجري تنفيذه"(١١) .

واكتشاف الصوت لذاته وللآخر لا يتم إلا عبر التغلغل الحواري، وبالحوار تتحرك الأحداث للكشف عن الشخصية داخل الحياة نفسها التي ستكشف الآخر للصوت . ولذلك كان الطابع الحواري الدراماتيكي هو الأنسب لرواية الأصوات . . . ثم إن تعددية المواقف والرؤى (الأيديولوجية) المتعادلة النفوذ ، المختلفة الاتجاهات ستكون هي المولدة للحوار، لأن وجهة النظر للصوت لا تتحدد من خلال موقف حواري مغلق، وإنما تتحدد من خلال انفعال الصوت بالقوى الإدراكية من حوله . . . وبالتعامل مع الآخر .

ونجد صورة مباشرة لـ(إبراهيم) في رواية (الكهف السحري) حيث وصل

(إبراهيم) بالتعاقب التراكمي للأحداث إلى درجة الأزمة (القبض عليه بدون سبب/ دخوله السجن/ فقد حبيبته عبير/ موت أمه/ . . .) وقد وصل إلى درجة هيأته إلى المنولوجية الطاغية ، إلاّ أن (إبراهيم) لم ينغلق على ذاته، وإنما عمل من أجل الآخرين. . . وبالحوار اتصل بهم فاكتشف ذاته واكتشف الآخر حوله وبالحوار اقتحمت (كريمة) حياته ، وغيرت بالحب والحوار طبيعة السؤال داخله . . . فأعاد حساباته وتزوج (كريمة).

والحوار في رواية الأصوات ليس مقدمة للحدث وليس جزءاً من الحدث لأنه هو الحدث ذاته. لأن الحوار ليس وسيلة للمسْرحة وإنما أصبح غاية يكتشف به الصوت مستويات التفكير المختلفة حوله ثم إن الحوار يعزز التزامن السردي، والتزامن السردي هو المغذي لفاعلية الحدث الروائي .

ورواية الأصوات - إذن - تمثل جهداً جماعياً بما تمتلكه من علاقات حوارية فعالة تجاه موقف يمكن الاسترشاد به حوارياً بين الأصوات . . . وفي ضوء العلاقات الحوارية نقبل من الحداثيين مفهوم (الكلمة المزدوجة الصوت) وهي رؤية تمثل بعداً خاصاً (لما بعد علم اللغة).

ولكي نبرز دور الحوار وفاعليته في رواية الأصوات نستعير هذا المثل من رواية لتولستوي معنونة بـ(ثلاث ميتات) ، والميتات كانت (موت سيدة نبيلة/ موت لحوذي/ موت لشجرة . . .) وعلى الرغم من التباين واللاتجانس والخطوط الطولية لكل ميتة إلاّ أن المؤلف امتلك السرد (عارف بكل شيء) فوصف وقابل وفسّر وقارن وكان المؤلف هو المنظور الجامع لحدود الاستقلال النسبي لذاته . . . وبذاته أوجد عضونة قسرية بين الميتات الثلاث. . . لكن هذه الرواية لا تعد رواية أصوات لاختفاء الفاعلية الحوارية بين أصحاب الميتات الثلاث أنفسهم قبل الموت وعلى الرغم من تحقق اللاتجانس المعلن للحوار الكبير بين (الثلاثة) لكن ما أن نتقدم داخل الرواية حتى تنعدم الحوارات الجزئية الفعّالة فتبتعد عن كونها رواية الأصوات ، بسبب اختفاء الحوار المفترض بمستوياته بين (السيدة والشجرة والحوذي) .

ولعل هذه القيمة الكبيرة لفاعلية الحوار في رواية الأصوات لتعزز رأينا في إرهاصات رواية الأصوات التي امتاحت جذورها من مصادر عديدة (الحوار السقرطي/الأرسطي/مسرحية الأسرار/ الهاجائية المينيبية/ رواية الرسائل/ مسرحة الأحداث الروائية عند فلوبير...) لكن التنفيذ الحواري لرواية الأصوات يختلف اختلافاً نوعياً عن مصادره في تلك الإرهاصات الممهدة أو المستنبته لرواية الأصوات .

أما البعد (السيكولوجي) في الحوار الداخلي فهو محجم في رواية الأصوات، لأن البعد (السيكولوچي) في رواية الأصوات ليس ذاتياً خالصاً أو منغلقاً كما وجدناه عند الرومانسيين ، ولا متوغلاً في اللا وعي كما وجدناه عند (چويس وفرجينيا وولف) في تيار اللاوعي ، وإنما يأتي البعد (السيكولوجي) في الحوار الداخلي بطريقة فنية خاصة تسمح بالتغلغل في الجوهر الموضوعي للجماعة البشرية بتناقضاتها على مستوى الوعي .

إن الوعي الذاتي للصوت الروائي يأتي مشبعاً برغبة حوارية طاغية ، لأن الصوت عندما يتحدث فإنه يلتف نحو الخارج ، ومن ثم فهو دائم التعامل مع الأصوات الأُخَر، والمواقف الأخرى في مسارها الخارجي، وهذا المسار الخارجي الاجتماعي يشعل القدرة الحوارية الداخلية. ونلاحظ على سبيل المثال حوارات (ناجي) وهو رئيس التحرير المبُعد في رواية (الرجل الذي فقد ظله) ، حيث يستحضر بالحوار الداخلي (يوسف) الذي انتزع منه رئاسة التحرير فيحاوره ... ويُمني نفسه بالانتقام منه ، ثم يستحضر زوجته (سامية) ويتذكر علاقتها مع (يوسف) ويشتعل حواره مع ذاته عندما يتصور اتفاقهما عليه.. ويستمر في حواراته حتى تصبح ممارساته الواقعية امتداداً لحواراته الداخلية فيدعو (يوسف) على مائدته ويجالسه هو وزوجته ... ويجسد صورة داخلية تؤرقه ... ويعاني منها عناء يختلط بسكرات الموت حتى يفارق الحياة في تلك اللحظة .

فالحوار الداخلي متصل بالخارجي بل هوالمولد له في رواية الأصوات ، وفي الحوار الداخلي يقيم الصوت حواراً مع (الغير) ، لكن الصوت لا يمتص رحيق الآخر ، ولا

يندمج معه وإنما يستحضره ليحاوره ، ليقاومه ... ويستقل برأيه . في رواية (ميرامار) نجد (منصور باهي) يبتعد عن الحوارات الخارجية في (البنسيون) لكنه غير منعزل عنها ، فهو مشارك ، ولكن بحورات داخلية يعلن رأيه الخاص في الثورة ويتعاطف مع (زهرة) ... وعندما يعرف بخدعة (سرحان البحيري) لزهرة يحنق عليه ويخرج إليه وما أن ينفرد به حتى يشبعه ثورة وشتماً وبصقاً ... بل ويحاور نفسه ويصر على قتله ... ولما قُتل (سرحان البحيري) ظن أنه هو الذي قتله واعترف بذلك ثم نكتشف أن (سرحان البحيري) مات منتحراً.

وإذا كان (المنولوج) قد اتصل بالخارج وأثّر فيه ، فإن (المنولوج الداخلي) كان محدوداً في رواية الأصوات ، ولم يحتكر مساحة كبيرة على الرغم من انفراد أكثر الأصوات ، هنا (بالأنا السردية) وذلك لأسباب منها أن رواية الأصوات لا تقيم بطولة فردية مما يساعد على تقليص (المنولوج) ، ثم أن الأصوات تتصل -غالباً - بواقع خارجي متحرك متغير مما يجعل انتماءها خارجياً دائما ولاسيما أن الأصوات تركز على ممارسة ردود الأفعال الخارجية ، الأمر الذي لم يسمح لها بمعايشة منغلقة لانفعالات داخلية ، ولأن تحلق الأصوات حول فكرة بإشكالياتها ستطرح عليهم مجموعة من الأشكال الإدراكية حول قيمتها المضمونية، وردود الأفعال للأصوات بمثابة إعادة توزيع للنبرات المنولوجية والحوارات الداخلية معاً. ولذلك يحتكر الصوت الروائي بذاته المستويين : المنولوجي والإخباري. وهو أمر يختلف عن "الاتجاه المنولوجي الفلسفي الذي لا يكفي لظهور علاقة متبادلة جوهرية بين أشكال الوعي المختلفة" [١٢] مما يتعذر معه إقامة حوار بين الصوت والآخر كما نجد ذلك في بعض أصوات روايات الرومانسيين التقليدية، وهو أمر يختلف عن أصوات (رواية الأصوات).

إن المنولوج بالنسبة للصوت الروائي في (رواية الأصوت) مجرد خطوة إجرائية أولية نحو بناء وجهة نظر الصوت ... أما الدور الأكبر للحوار فهو القدرة على اكتشاف الصوت لذاته وللآخر وهو نوع من تجسيم الوعي الإنساني يستعصى على المنولوج القيام بهذه المهمة بدون الحوارات الخارجية المساعدة على الممارسات الحياتية الخارجية وهو الشق الثاني من مهمة الصوت الروائي . وهذا الشق الثاني المعتمد على

الحوار الخارجي يصبح أساسياً قياساً بحجم فاعلية المنولوج .

والوعي الحواري يعكس بعض السمات المميزة لرواية الأصوات منها الحرص على التزامن السردي المولد للفعل الحواري ، ومنها أن المواقف الحوارية تؤكد على استقلالية الصوت وهي فرصة لرصد الأبعاد الفكرية المتباينة للأصوات والتي تتسبب في عدم وجود نهاية محددة لرواية الأصوات فضلاً عن التوازي الفكري بين الأصوات وهو أمر يغيب مفهوم البطولة التقليدية ، والحوارات تمسرح الأحداث فيغيب الروائي أو الراوي بالتبعية في رواية الأصوات وهي خطوة فنية متقدمة .

جـ - الأسلبة[١٣] :

إذا كانت اللغة الشعرية مشدودة نحو مركزية مبدعها فتظهر بمستوى صياغي واحد، فإن اللغة الروائية بصفة عامة و(راوية الأصوات) بصفة خاصة تتحرك على محيط الدائرة الإبداعية بكل تنويعاتها فتعبر عن مستويات متباينة، لأنها ترتبط بالواقع التاريخي والأيديولوجي الذي أنتجها ، ومن ثم تصبح التعددية اللغوية داخل الرواية نتيجة طبيعية ، لأن اللغة تتحول إلى فرضية عمل لإدراك الواقع بتناقضاته، والأصوات بتباينها .

وكانت اللغة الروائية قد انفتحت مستوياتها التعبيرية عندما أفلتت من قيد الطبقة الأرستقراطية واقتربت من التعبير عن الطبقة البرجوازية ... ولم تتنازل الرواية عن هذا المكسب إلا مع رواية (السُفسطائيين)[١٤] ... وكان للواقعية فضل إعادة التعددية اللغوية إلى المجال الروائي ... إلاّ أن الروايات التقليدية التي أحكم فيها الروائي أو الراوي قبضته قد صهرت قبضته التعددية اللغوية وحولتها إلى صوغ موحد يدين بالولاء إلى المؤلف / الراوي ، وقد ساعد على ذلك ارتباط التعبير الروائي بالتوحد القومي، والهدف الواحد، ولأنها كانت تسعى لهدف لا إلى أهداف ، وإلى رؤية لا إلى رؤيات .

إلاّ أن الأسلبة القصدية لإبراز التعددية اللغوية ضرورة ملائمة لبناء رواية الأصوات بتباين توجهاتها ، واختلاف وجهات نظر الأصوات. ومن ثم تصبح الأسلبة

ضرورة لتجسيد حقيقي للوضعية الاجتماعية والأيديولوجية التي تمثلها الأصوات ، والصوت ينبغي أن يُحمل بلازمات تعبيرية توثق انتماءه الطبقي ومستواه الثقافي والبيئي ، وسيكون الصوت متميزاً بقدر ما يحمل من تميز، لأن الكلمة تنفذ وتؤثر بقدر ملكات الصوت وتوجهاته الفكرية ، ولأن الكلمة في الرواية هي البديل الحقيقي القائم مقام الحياة. ومن هنا تبرز أهمية تمثيل التعدد اللغوي القصدي ليتوازى مع مفهوم اللاتجانس الذي تعتمد عليه رواية الأصوات والكلمة في الرواية ذات مستويات ثلاثة :

* المستوى الأول : كلمة المؤلف .
* المستوى الثاني : كلمة الراوي .
* المستوى الثالث : كلمة الصوت .

ومن المفترض مع رواية الأصوات أن يختفي المستوى الأول والثاني بفعل القدرة الغيْرية للروائي وبتأثير وقوة المستوى الثالث(الصوت) المتمتع بحرية كاملة منحها له الروائي ... ومن ثم فالأصوات متباينة في رواية الأصوات، فمن الطبيعي ألا تأتي الصياغة بمستوى واحد وإنما ينبغي أن تحفل بالتعددية المعبرة عن (اللاتجانس) ، ولأن تكنيك الأصوات أشبه ما يكون بمسرحة الأحداث عبر انفراد كل صوت بالحكي انطلاقاً من (أنا) ، فمن الطبيعي أن تأتي التعددية اللغوية إحياء وتعميقاً لحقيقة وجود الـ(أنا) السردية مع كل صوت روائي .

وكان (ديستوفسكي) نفسه متهماً بتوحد الصوغ اللغوي في قصصه الأولى إلاّ أن رواياته الأخيرة التي أجاد فيها (تكنيك) الأصوات قد عالج هذا القصور وعمد إلى التعددية اللغوية عندما عمد إلى إمرار (التيمة) على أصوات مختلفة ... فكان كل صوت يصبغها برؤيته وأسلوبه .

وإذا كان التعدد اللغوي مهماً في رواية الأصوات ، فكيف يحققه الروائي؟ وإلى أي حد يمكن أن يقنعنا به ؟

أكثر الروائيين يعمدون إلى طريقة المحاكاة والتقليد المباشر الصوت بحجم ما

يوازيه في الواقع، لكن هذا التقليد - غالباً - يضعف الإحساس بالانفعال المقصود ، ولن يزيد عندئذ عن كونه حلية أسلوبية أو قل حيلة أسلوبية قلما تمتزج مع أغوار الفعل الإبداعي المعبر عن العمق الحقيقي للصوت.

ومن ناحية أخرى فإن موقع الراوي / الروائي ليس هو المؤثر الأساسي في التنوع اللغوي، ومثالنا في ذلك رواية (فتحي غانم) (الرجل الذي فقد ظله) فد اختفى الرجل واختفى الراوي المفترض، وجعل الظهور المباشر للصوت (مبروكة /سامية/ناجي/ يوسف) ، وعلى الرغم من تمكن الأصوات من (أنواتها) إلا أننا لم نقع على تعددية لغوية تتناسب مع التباين الكبير للأصوات . وبذلك فقدت الرواية جزءاً مهماً من قيمتها كرواية أصوات عندما تنازل المؤلف عن الأسلبة القصدية المميزة لأصواته الروائية.

و(فتحي غانم) بهذا التنازل عن الأسلبة يذكرنا بما قيل من قبل عن طه حسين في (دعاء الكروان) عندما أنطق (آمنة) بأسلوب الفلاسفة والمثقفين وهي خادمة، وكذلك وجدنا (مبروكة) الخادمة عند (فتحي غانم) تنطق بمستوى أسلوبي وفكري يقترب من (يوسف) الصحفي. وكذلك وضع الروائي(يوسف والممثلة سامية) في بوتقه شعورية ولفظية واحدة عكست الرغبة الجسدية الواحدة والحنان الأبوي المفتقد. فضلاً عن أن الروائي لم يحمل الأصوات بعبق المكان ولم يحرص على إبراز لازمات العصر التعبيرية، وغياب الأسلبة القصدية قد أوقع رواية الأصوات في تناقض بيِّن حيث تحقق اللاتجانس على مستوى الأصوات وغاب على مستوى تعبير الأصوات عن نفسها ؟

ولذلك فإنني اعتقد أن التعدد والتنوع لا يأتي بالتقليد أو من خلال تنوع موقع المؤلف/الراوي، وإنما يأتي من خلال الارتباط بالشكل الشفوي، لأن تمثل الأداء الشفوي للصوت وحواراته المتخيلة سينتج قصدية ممزوجة بعفوية طبيعية ، فتمثيل وتُمثل الشكل الشفوي المستنبت من مدى تخيلنا للشخصيات سيحدث نوعاً من التوافق والانسجام بين الصوت ومنطوق الصوت ، وعندئذ سنشعر بعفوية التعددية اللغوية لدرجة قد تشعرنا بالنبر الشفوي في الصوغ الأسلوبي، وهذا سيشعرنا بأن الأسلبة

القصدية جاءت ساخنة ودونما تكلف ، لأن الصوت الغيري سيتوازى مع التمثيل الشفوي لإمكاناته مما يزيدنا قناعة برواية الأصوات .

وقد تحقق هذا التمثل الشفوي بشكل جيد في رواية (السنيورة) لخيري شلبي إذ يعلن عن حجم التمثل الشفوي بمصداقية أكسبت التعددية اللغوية بعض المهام الوظيفية الفعّالة التي ساعدت على إبراز وجهة نظر الصوت الروائي . ونجاح التعددية اللغوية يبدأ من العنوانات المنتشرة في الرواية التي سكنت أحداثها ريف مصر ومنها (الولد مختار يحكي عن يوم مرواحه الترحيلة / حفناوي يحكي كيف وكيف / كيف تكلمت الزكيبة لشيخ البلد/ . . .) . ثم يمتد نجاح التعددية الصوتية إلى حفظ اللازمات التعبيرية المميزة لأصوات الرواية والمتممة لأبعاد شخصياتهم فلزمات (العمدة) اختلفت عن لزمات (سيدنا) . . وهكذا . . . حتي أن هذه اللزمات بمصداقيتها ساعدت المتلقي على تجسيم الصوت بأبعاده وهيأته في المدى التخيلي للمتلقي .

وعندما يتحدث (الولد مختار) يجسد بأسلوبه سذاجة الطفل كقوله عن الولد مختار بأنه "رأي سراية الكردي مثل العروسة زينوها بسعف النخيل والمناديل الحريرية . . . بين السراية والبيوت جرن كبير امتلأ بالرجال أغلبهم في عمر خالي معاطى . . . لابد أن ابن الملك سيتزوج الليلة - قلت هذا فضحك مَنْ حولي"[(١٥)] . . . وعندما يصف هذا الطفل السنيورة يستعير مادة صوره من بيئته بعفوية وسذاجة . . يقول . . "السنيورة . . كانت واقفة في شباك السراية تستند بكوعها على حافة الشباك . والأساور الذهب تلمع في يدها ، وصدرها عريض منتفخ . . . وذقنها مثل رأس الجوافايه الحلوة ، أما شعرها فينطرح على كتفيها مثل حزم البرسيم . . وأقسمت أنها زوجة الملك"[(١٦)] .

ويأتي صوت (سيدنا) محملاً بصوغ يختلف باختلاف شخصية سيدنا عن الولد مختار . . . قال سيدنا للعريف : " وحق جلال الله إنك عريف على قد حاله . . . تريد أن تعرف لماذا طلبني العمدة ليلة أمس ؟ الواجب يمنعني من أقول لك . لكني

سأقول لسبب واحد فقط وهو لتعرف أن الناس مقامات في هذا البلد . وحُد الله . تريد أن تسمع مني الحكاية ؟ صلى على النبي، تم زده صلاة . . . دفعني مقصوف الرقبة الذي اسمه شيخ الخفراء أمام العمدة . . . أقصد قال لي أتفضل يا سيدنا . . . "(١٧) .

أما في رواية (الزيني بركات) فقد جاءت التعددية اللغوية خارج منطوق الأصوات، لأن الأصوات لم تتمكن من (الأنا السردية) وقُدمت عبر (هو) الراوي ومن ثم سكنت التعددية الصوتية الوسائل التصويرية خارج الأصوات مثل (الرسائل / المرسوم / النداءات / الألقاب / الوظائف ومسمياتها / الوصف للأماكن كالأزهر والسجن والوصف للأزياء والملبس والأسواق) ولذلك وجدنا الألفاظ الموثقة لأحداث العصر المملوكي في هذه الرواية نحو (التجريس / البصاصون / مشمقدار السلطان / ناظر الحسبة / الزيني / الشهاب . .) . وهذه التعددية الشفوية للخلفية الواصفة قد عمقت التبئير الذرائعي ، وأوجدت هذه المصداقية التعبيرية الشفوية التماهي الفني والانسجام بين النص بأصواته كغاية وبين أدائه الوصفي الخارجي كوسيلة ساعدت على تجسيد الأحداث في زمانها ومكانها .

ومن المعروف أن التنظير لا ينطبق على النص الإبداعي بشكل مباشر . . . وإنما غالباً مانجد فروقاً في التطبيق تبعاً لخصوصية كل تجربة روائية . وبناء عليه ، فالتعددية اللغوية مرتبطة باللاتجانس ، وبهما معاً تتميز (رواية الأصوات) وتعلن عن نجاح مهمتها . إلاّ أن عدداً كبيراً من روايات الأصوات العربية في مصر لم تلتزم بالتعددية اللغوية ، ولا شك أن غياب الأسلبة القصدية قد أثر بشكل مباشر على المستوى الفني لرواية الأصوات ، وعندما تصل نسبة غياب التعددية اللغوية والأسلبة القصدية بين روايات الأصوات إلى ٨٠٪ فلا بد لنا من البحث عن الأسباب الفنية لارتفاع هذه النسبة غير المتوقعة .

وبداية فإنني لا أشك في القدرة الغيرية التي تمتع بها صفوة من المبدعين لرواية الأصوات الصعبة ، إلاّ أن هذه الغيبة للتعددية اللغوية كانت لأسباب تخص طبيعة التجربة من ناحية وحجم اللاتجانس بين الأصوات من ناحية ثانية تم موقع الراوي

والروائي من ناحية ثالثة .

أما السبب الأساسي لافتقار روايات الأصوات إلى التعددية اللغوية فيعود إلى تقارب المستوى الثقافي والبيئي بين الأصوات مما يجعل الفروق زهيدة بين الأصوات الروائية ونجد هذا في روايات (تحريك القلب/ الكهف السحري/ المسافات/ ميرامار) . في تحريك القلب جاءت الأصوات منتمية إلي أسرة واحدة لمجموعة من الأخوة تقاربت أعمارهم (صيام / وضاح / سمراء/ على / سالي ..) وطبيعة مواقعهم الوظيفية المتباينة (معيد/ رجل آثار / بائعة بوتيك ...) إلا أن ذلك انعكس على طريقة تفكيرهم لا على طريقة تعبيرهم ، فلم نظفر بتعددية لغوية .

وفي رواية (الكهف السحري) تنتمي الأصوات إلى الطبقة المتوسطة التي تعلى من شأن المثاليات والقيم الأخلاقية ، ولذلك كان (إبراهيم) مثل أبيه ... ومثل (كريمة وعبير) ومثل أخته وكلهم ينتمون إلى المستوى الجامعي ... ولم تنفرد إلا (الأم) فقط لكن الروائي لم يعطها فرصة التميز التعبيري المميز لمستوى تفكيرها الفطري المحدود الذي قادها إلى الدجالين عندما وقع ابنها (إبراهيم) في المعتقل... ولما عرف (الزوج) ثار عليها فعادت لوقارها واكتفت بحزن عميق أكل ما تبقى لها من عمرها ... وماتت قبل خروج ابنها (إبراهيم) من المعتقل .

وفي رواية (ميرامار) تنعدم التعددية اللغوية لتساوي وتقارب المستوى الثقافي للأصوات الروائية (سرحان البحيري/ حسنى علام/ عامر وجدي/ طلبة مرزوق / منصور باهي) ولم يشذ عن هذه المجموعة إلا الإقطاعي الصغير الجاهل (حسني علام) واكتفي (نجيب محفوظ) بالحفاظ على لازمة تعبيرية تنم عن استهتاره (فركيكو) التي كان يرددها مع كل انطلاقه لتنم عن غرائز

وفي رواية (المسافات) تساوت الأصوات في المكان والجهل بل والخيالات المشتركة والآمال المشتركة التي تعلقت بعودة (قطار الكنسة) . فجاءت الأصوات مشحونة بالفقر والجهل والجنس والخرافات (زيدان/ سعاد/ ليلى / زينب / سميرة / أم جابر...) .

والسبب الأخر لافتقار روايات الأصوات إلى التعددية اللغوية يرجع إلى ظهور

الراوي وسيطرته على الأصوات ... والملاحظ أن أكثر الروايات التي برزت فيها سلطة الراوي هي نفسها التي تساوي فيها الأصوات ثقافياً وطبقياً وهي (المسافات / تحريك القلب / الزيني بركات ...).

في (المسافات) كانت قبضة الراوي قوية وغيب أصواته تحت سطوة السيطرة الكاملة والتي اكتفت بالحديث عن الصوت بـ(هو) بدلاً من إعطائه فرصة الـ(أنا). والأمر نفسه نلتقي به في (الزيني بركات) وهي رواية تقاربت فيها مستويات الأصوات (الزيني بركات/ زكريات بن راضي/ العدوي/ الجهيني..) فضلاً عن الانتماء إلى مكان واحد وهو المجتمع القاهري المملوكي ... وتفاوت الوظائف لم ينعكس على مستوى التعبير ، فاختفت التعددية اللغوية التي تميز بين الأصوات الروائية .

وفي (تحريك القلب) نجد سلطة مرشدة للراوي ، ولكنها أقل من سلطة راوي (الزيني بركات والمسافات) . وتأتي رواية (الرجل الذي فقد ظله) مفتقرة إلى التعددية على الرغم من التمايز الكبير بين الأصوات الروائية وهو تمايز طبقي وثقافي، وعلى الرغم من اختفاء الروائي والراوي اختفاء تاماً .. وهو أمر يجعلنا نحيل سبب غيبة التعددية اللغوية التي تهيأت فرصتها للأصوات إلى الروائي نفسه وبشكل خاص .

إن تميز رواية الأصوات بخاصة لا يتم إلا بإزكاء التعددية اللغوية بأسلبة قصدية تتجاوز الأنساق اللفظية المستقرة ، وتبحث عن إعادة بعث الصوت بقدر ما يحمله من دفء الخصوصية الصوتية له وللزماته التعبيرية ، ليساعد على إنتاج خطاب روائي يعمق القناعة بالأحداث الروائية في حماية المصداقية التعبيرية الشفوية المتنوعة تنوع الأصوات لتعبر عن المستويات الاجتماعية والبيئية والأيديولوجية في واقعنا الحياتي، لأن هذه التناغمات الصياغية ستؤثر بشكل مباشر في الطبقات الدلالية للخطاب الروائي والسرد الروائي لرواية الأصوات .

د - الزمان والمكان :

الزمان والمكان ركيزتا الإدراك العقلاني . وكان من الطبيعي أن تستعين الرواية

التقليدية بهما على نحو يعزز مشابهتها بالواقع الحياتي كواحدة من وسائل التوثيق والإقناع بالأحداث الروائية . ومع التطور الروائي بدأ الروائيون في تطوير استخداماتهم للزمان والمكان ، فمنهم من يحرص على عنصر الزمان أكثر من المكان ، ومنهم من يحرص على التوسع المكاني أكثر من عنايته بالزمن كالروايات الواقعية لنجيب محفوظ .

وفي فترة لاحقه بدأ الروائيون تشكيلات الزمان والمكان بشكل طوّر الأداء الروائي بداية من (اللازمن والعدمية ومروراً بالزمن النفسي الدائري أو الزمن الفني الذي يتمدد وينكمش تبعاً لغايات فنية مؤثرة .

أما خصوصية استخدام الزمان والمكان في رواية الأصوات فهي مثيرة للذهن لأنها تستخدم الزمان والمكان كالرواية التقليدية تماماً . . . وتعني بالبعد الواقعي المنطقي لكننا نلاحظ قدراً من التميز عندما نعيد النظر لحقيقة الزمان والمكان في روايات الأصوات التي نطبق عليها .

وأولى النقاط اللافتة للنظر أن الزمان والمكان لا يتسعان ولا يمتدان كالرواية التقليدية وإنما نلاحظ أن المكان واحد أو محدود ، وأن الزمان المستوعب للأحداث قصير - نسبياً - قياساً بالروايات التقليدية.

فالمكان في (تحريك القلب) هوالبيت الآيل للسقوط فقط ، والمكان في (ميرامار) هو (البنسيون) في الإسكندرية والمكان في (المسافات) هو (البيوت العشرين) بجانب خط السكة الحديد ، وإذا اتسع المكان أكثر فهو لا يتجاوز قرية كمانجد ذلك في روايات (أصوات/ يحدث في مصر الآن / الحرب في بر مصر . . .).

والزمان في (تحريك القلب) فترة الإرهاصات للسقوط، والزمان في (ميرامار) محدود بفترة مؤقته لا تتجاوز فترة العلاقة بين (زهرة) و(سرحان البحيري) حتى انتحر (سرحان البحيري) والزمان في (أصوات) لا يتجاوز أيام هي ترقب وصول (البحيري وزوجته سيمون إلى القرية) ، وخلال أيام تم قتل (سيمون) . وانتهت الرواية في هذه الفترة الزمنية المحدودة . . . والزمان في (الحرب في بر مصر) لم يمتد

إلا لفترة محدودة قد تصل إلى بضعة شهور هي مسافة ذهاب (مصري) للجيش بدلا من (ابن العمدة) ثم استشهاده في حرب اكتوبر .

والزمان في (الزيني بركات) امتّد لصيف واحد وشتاء واحد ... اتسع الشتاء لنشاط البصاصين وحمل الصيف نبأ دخول العثمانيين إلى مصر .

وهذا الامتداد المحدود جداً للزمان والمكان قد ساعد على التكثيف وأوجد فرصة كبيرة (للتزامن) وقد نجد تفسيراً مقنعاً لمحدودية الامتداد الزماني والمكاني فقد يعود هذا إلى طبيعة رواية الأصوات التي تعلن عن فكرة أو حدث ما تتحلق حوله الأصوات بأفعالها وردود أفعالها ...وهذا بدوره لا يسمح بالامتداد الزماني أو التنوع المكاني.

أما الخصوصية الأخرى المهمة للزمان والمكان في رواية الأصوات فهي الاستخدام الصريح للزمان بحجمه الطبيعي ، وللمكان بحجمه الواقعي ثم يعمد روائيو الأصوات إلى استخدامهما استخداماً يختلف عن الرواية التقليدية ، في الرواية التقليدية يتمثل الزمان والمكان بطبيعة واحدة ، وبامتداد واحد فالزمان يعزز مفردات المكان ، والمكان يجسد متغيرات الزمان . لكن الزمان والمكان في رواية الأصوات يستخدمان كسالب وموجب وبذلك يخلقان الصراع الروائي.

وفي رواية الأصوات نجد الظرفية المكانية المحدودة ، والظرفية الزمانية المحدودة يجمعهما تزامن سردي يساعد على إنتاج الأصوات لوجهات النظر. الزمان جاء في رواية الأصوات ممثلاً لـ(السالب) وهو يأتي محملاً بالمتغيرات والتحولات ، بينما نجد المكان (الموجب) يأتي ممثلاً لثوابت النشأة البيئية والمبادىء القيمية والأخلاقية ، ويأتي التزامن ليعلن عن الصراع داخل الصوت بالدرجة الأولى... ثم بحورات الصوت الداخلية والخارجية يتبلور الصراع وتتحدد المواجهة ، لأن الـ (أنا) السردية للصوت الروائي ترتبط بالبعد الخارجي أكثر من انغلاقها على العمق الداخلي - كما وضحنا في خصوصية الحوار - ولعل هذا يفسر لنا قلة التنبؤ والاسترجاع داخل روايات الأصوات.
ويمكن أن نتمثل فاعلية السالب والموجب (الزمان والمكان) في روايات الأصوات على النحو المؤمثل الآتي :

في رواية (الرجل الذي فقد ظله) يلعب الزمان والمكان بدورها المؤثر على كل صوت روائي فـ(يوسف ومبروكة وسامية وناجي) الجميع حاولوا استثمار حركية الزمن وتحولاته ليقتلع كل منهم جذوره ويتجاوز طبقته حتى لو كان ذلك على حساب المثاليات التي تشبع بها في بيئته المكانية الأولى... ومحاولة التجاوز كانت هي سبيل الصراع المعلن داخل الصوت ثم بين الأصوات في الخارج، وهي السبب في الصراع بين (ناجي ويوسف) ثم بين (مبروكة ويوسف).

لقد خضعت الأصوات لنظام كوني... فاستجابت الأصوات لرغبة التبدل والتغير لكن الاستجابات تحققت بوسائل غير طبيعية حيث تمرد كل صوت على مكان نشأته، فمبروكه فلاحة ثم خادمة ثم زوجة عبد الحميد أفندي فأرملته...وفشلت حتى في اللحاق بالطبقة المتوسطة بعد أن رأت أنه من المستحيل اللحاق بطبقة الإقطاعيين ولم تفلح إغراءاتها الجنسية لـ(مدحت) ابن راتب بك الإقطاعي.

أما (يوسف) فالمكان نقش داخله ثوابت قيمية... لكن الزمن يحوله من النقيض إلى النقيض... ثم يكتشف أن المكان بقيمه مازال قائما داخله ينازعه هذا التحول من النقيض إلى النقيض ويكتشف أنا (يوسف الصغير) بنشأته ومبادئه ومكانه مازال قائماً يحاوره، وهنا يتخلق الصراع داخله... فلا يشعر بأي طعم للانتصار أو التفوق حتى وهو رئيس للتحرير... بل إنه كان يتذكر إساءاته للآخرين ويستغربها بفعل (يوسف الصغير) الذي يؤرق (يوسف الكبير) وكأنه يبحث بذلك عن النسبي داخل المطلق وعن المطلق داخل النسبي... وكأن الصراع بين (الزمان والمكان) لم يحسم حتى نهاية الحديث لـ(صوت يوسف).

وفي رواية (تحريك القلب) نجد صراعاً مباشراً بين السالب والموجب أي بين الزمان بمتغرياته وبين المكان (البيت القديم)، فيتعامد الزمان على ثبات المكان ويحدث تحولات كانت هي إرهاصات السقوط.. وانتصر الزمان فسقط البيت (المكان).
وكانت الأصوات داخل الرواية مجرد ردود أفعال ذاتية أمام هذا الصراع الأساسي بين الزمان بدلالاته (السالبة) وبين المكان بدلالاته (الموجبة) والتي أعلنت الاستسلام

بالسقوط . وبذلك أصبح المكان (البيت) مفعولاً ، والزمان فاعلاً ومؤثراً لا في المكان ولكن في الأصوات الروائية أيضاً عندما حملهم على (الخروج الكبير) بعد السقوط .

ونلاحظ هذه التيمة الفنية للزمان والمكان كسالب وموجب في روايات أخر مثل (الزيني بركات. الكهف السحري/ المسافات/ . . .) . . وفي كل رواية نجد المكان يتصف بالثبات المعبر عن الخصائص المادية والقيمية للحياة وثوابتها الأخلاقية ، ويأتي الزمان ليتسع لاستيعاب المتغيرات . . . وبالمتغيرات (الزمان) والثوابت (المكان) جاء إشهار الأصوات لوجهات نظرها المختلفة اختلافاً يبرز عمق الانتماء المكاني أو فاعلية التحول الزماني .

الهيكل البنائي :

على الرغم من ريادة (ديستوفسكي) في بناء رواية الأصوات إلاّ أن البعث الروائي العربي لرواية الأصوات لم يكتف بالنموذج الهيكلي الأوحد الذي قدّمه (ديستوفسكي) ، وإنما أضاف إليه وحوّره وجدده بهياكل بنائية متعددة . وهذه الشكول الروائية الحادثة لرواية الأصوات من الأمور المتوقعة ، لأن ثبات شكل فني واحد لجنس أدبي هو نشاز واضح بين الفن والحياة . . . وفي رواية الأصوات يصبح النشاز هو الشكل فالشكول المطورة لرواية الأصوات بما يتناسب مع الخصوصية الموضوعية الخاصة لكل تجربة روائية .

ولذلك جاءت روايات الأصوات العربية في مصر بنماذج بنائية تثبت وجود فارق كبير بين التنظير والتطبيق ، لأن التنظير استقى من نموذج (ديستوفسكي) فاتسم بقدر من الثبات النسبي، بينما امتلأ التطبيق بحيوية التجارب الروائية المتجددة . وهذا أمر لا تنفرد به رواية الأصوات وإنما وجد هذا الفارق بين التنظير والتطبيق في أمور كثيرة أذكر منها مكان الراوي في الرواية ، فهو موضوع توافد عليه المنظرون من (فلوبير وهنري جيمس) في مطلع هذا القرن إلى (فريدمان وستانزل/بوث/ تودوروف/ أوسنبسكي/ جيرار جينيت. . .) إلاّ أن المراوغة التطبيقية قد تأبّت على المحاولات التنظيرية كلها .

وفي رواية الأصوات من المفترض أن يختفي الراوي والروائي ... وقد وجدنا نماذج نصية استجابت ونماذج أخر حرصت على وجود الراوي بشكل مباشر بل ومؤثر ، ولذلك وقعنا على نموذجين أساسيين للهيكل البنائي لرواية الأصوات .

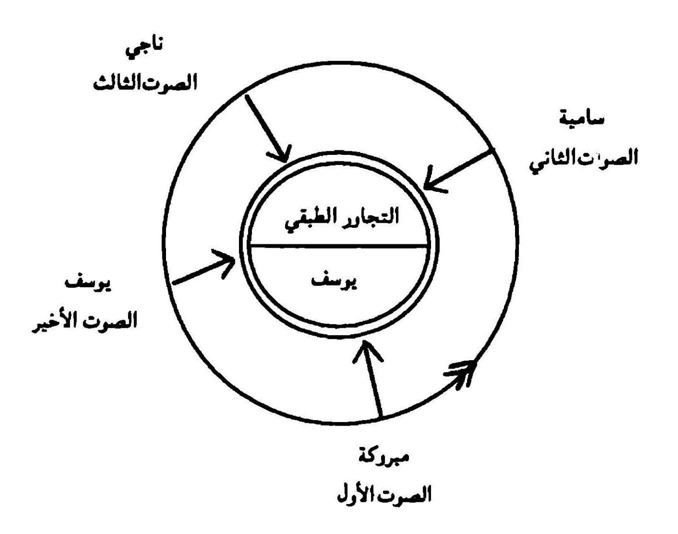
النموذج الأول :

وهو النموذج الذي غاب فيه الراوي ، واقتنصت الأصوات المهمة لتبرز مستويات مختلفة لتبئير * داخلي متعدد - على حد تعبير جيرار جينيت - لأن الأصوات قامت بتوزيع النبرات الداخلية إزاء القضية الأساسية التي تتحلق حولها الأصوات . ونلاحظ أن الأصوات تبدأ من زمن ومكان واحد وتنهي حديثها عن حدث واحد، وتنفرد الأصوات بقدر كبير من الحرية والاستقلالية في غيبة الراوي ، ويمكن أن نتمثل هذا على النحو الآتي :

في رواية (الرجل الذي فقد ظله) (لفتحي غانم) نلتقي بأبسط هذه البناءات إذ تتحلق الأصوات جميعها في زمن واحد (قبيل الثورة وبعدها) وفي مكان واحد (القاهرة) لتحاول - بالوصولية - تجاوز البيئة التي أنشأتها ...ولما نجح (يوسف) في هذه المهمة أصبح محوراً لأحقاد الأصوات الأخرى .. فإذا بالأصوات تتحلق حوله مؤثرة ومتأثرة إلاّ أن هذا لم يمنع أن ينفرد (يوسف) بصوت مستقل يعبر فيه عن عدم فرحته لما وصل إليه لأن القيم والمبادىء التي شربها من مكان نشأته مازالت تنغص عليه حياته وتنتقد محاولاته الوصولية التي دفعته إلى سلسلة من التنازلات ... لكن (يوسف الصغير = البعد المكان) مازال حياً داخل (يوسف الكبير = المتحول بفعل الزمان) . ويمكن أن نتمثل الهيكل البنائي على هذا النحو :

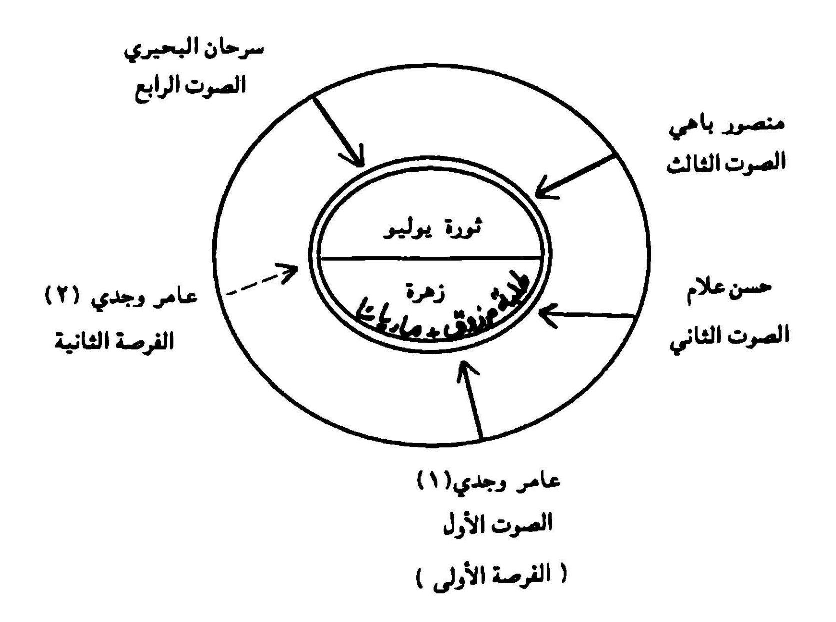
---

* التبئير : مصطلح قال به (جيرار جينيت) كبديل عن (وجهة النظر) ويرى أن التبئير والتركيز Facalistion أفضل لأنه أكثر تجريداً وأبعد عن الجانب البصري ثم قسم التبئير إلى: (تبئير صفري - لا تبئير - / التبئير الداخلي / التبئير الخارجي) واستطاع بالمصطلح وتقسيماته أن يميز في السرد الروائي بين الصيغة والصوت .



(نموذج ١)

وتأتي رواية (ميرامار) (لنجيب محفوظ) صورة مماثلة لهذا الهيكل البنائي، لأن الأصوات تنفرد بالتبئير الداخلي في غيبة الراوي ، ولأن الأصوات تبدأ من زمن واحد (بداية دخول بنسيون ميرامار) وتنهي حديثها عند حدث محدد (مقتل سرحان البحيري) ولم يشذ عن ذلك إلا (عامر وجدي) الذي انفرد بفرصتين للظهور ، وكأنه قام مقام الراوي - كما ذكرت من قبل - ويمكن تمثل الهيكل البنائي على هذا النحو المماثل للرواية السابقة :

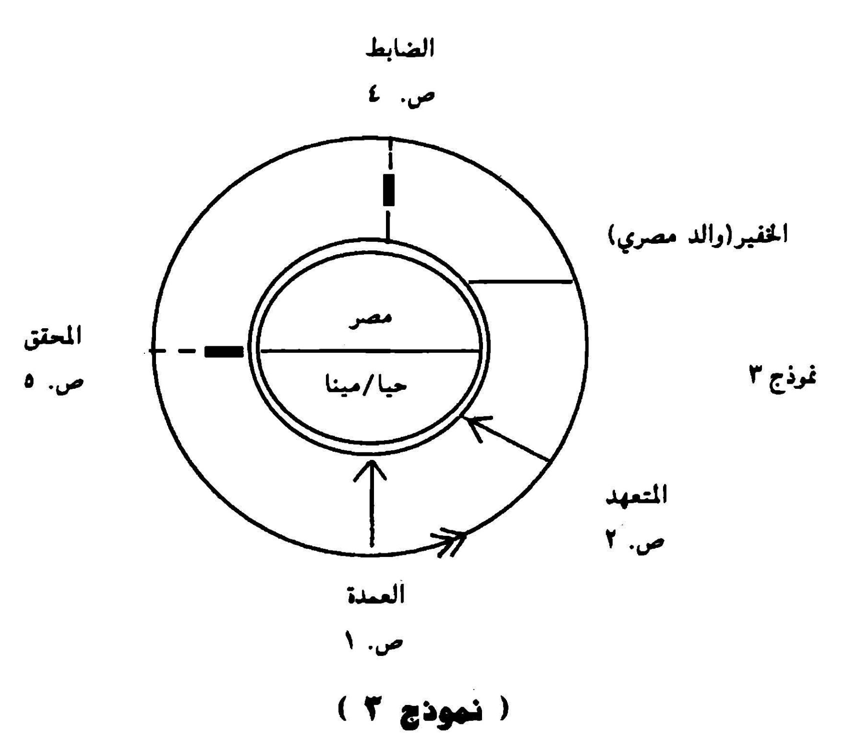


(نموذج ٢)

بينما ظلت شخوص (طلبة مرزوق / مريانا ...) تصادف حركية الأصوات على محيط الأحداث ولو أنصف الرواي لأفسح مجالاً لصوتي (طلبة مرزوق / مريانا) لأن كلاً منهما يعد نموذجاًوجد في مصر إبان ثورة يوليو ولاسيما (طلبة مرزوق) المتميز بأفكاره .. ولم يغن عنه (حسنى علام) الإقطاعي الصغير المستهتر . ويبقى الفارق عن النموذج الأول هو ظهور أحد الأصوات مرتين وهوصوت (عامر وجدي).

أما النموذج الروائي الثالث الذي استأثرت فيه الأصوات بالحكى والسرد في غيبة قصدية للراوي فهي رواية (الحرب في بر مصر) للقعيد، وهي تتشابه مع النموذجين السابقين في أساسيات رواية الأصوات إذ ينفرد الصوت بحديثه مستخدماً الـ(أنا) ، ويتمتع الصوت بحرية واستقلالية تسمح له بإبداء وجهة نظره الخاصة مدعومة بالقناعة الذاتية . ثم إن الأصوات تحلقت حول قضية واحدة هي قضية (مصري) الذي أجبر

على أداء الخدمة العسكرية بدلاً من (ابن العمدة المدلل) . وهذا النموذج الثالث ينفرد بأن الأصوات لم تبدأ من نقطة واحدة ولم تنته إلى نقطة واحدة اللهم إلا ثلاثة أصوات (العمدة/ الخفير/المتعهد) ، أما الأصوات الأخر فكان ظهورها مرحليا تبعاً لحاجة الأحداث الروائية وتطورها وهي أصوات (صديق مصري/ الضابط/ المحقق) ويمكن تمثل الهيكل البنائي على هذا النحو :



(نموذج ٣)

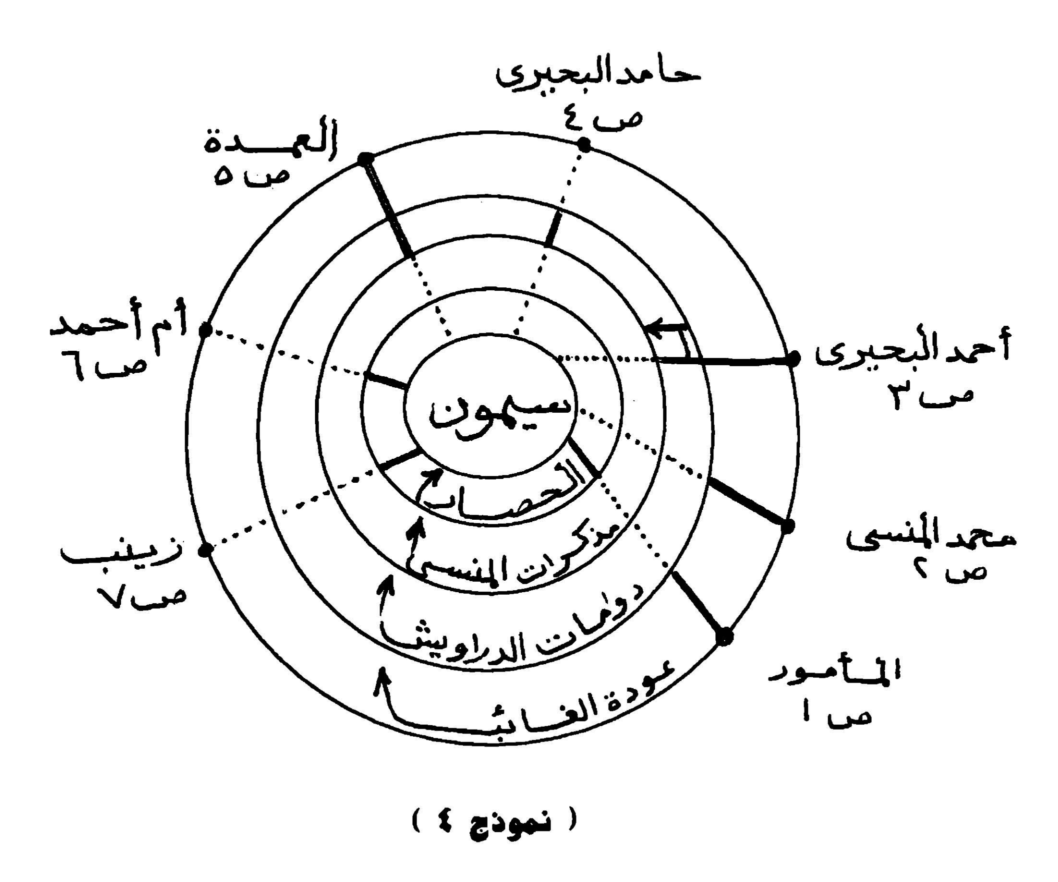
ومصري هنا أصبح (مفعولاً) تحركه الأفعال (الأصوات) بطريقتها الخاصة دفاعاً عن وجهة نظرها . أما الملاحظة الأخيرة فهي الإخبار التقريري للأصوات التي تعلن عن غيبة المؤلف والراوي كقول (صديق مصري) "... لم أجد من يقدمني لكم فليس لنا في هذه الرواية مؤلف يتولى كل هذه الأمور نيابة عنا"[١٨] ومثل هذا الخطاب قد عزّز وجود (المروي له) فبرز بشكل مؤثر في هذه الرواية .

في النموذج الروائي الرابع للأصوات التي استقلت بذاتها في غيبة الراوي نجد رواية (أصوات) لسليمان فياض. وهي تشترك في أساسيات الأصوات أولاً لأن الراوي والروائي في حالة اختفاء تام، وثانياً تمتعت الأصوات بالحرية والاستقلال من خلال تمكنها من الـ(أنا) وثالثاً تحلقت الأصوات حول قضية التعامل مع الغرب من خلال شخصية (سيمون) التي استقرت في مركز الأحداث لتتحلق حولها الأصوات ... وكل صوت بوجهة نظره الخاصة التي تمليها عليه النشأة والثقافة والوظيفة.

لكن الجديد في الهيكل البنائي هنا أمران: أولهما أن الأصوات لم تبدأ معاً ولم تنته معاً كما لاحظنا ذلك في النموذج الثالث ... إلا أن هذه الرواية لم تسمح للصوت بالامتداد الرأسي المتصل من البداية إلى النهاية وإن سمحت بالظهور الرأسي المتقطع للصوت. والأمر الآخر أن الروائي قدم روايته من خلال أربع دفقات معنونة كالآتي:

* عودة الغائب. (حامد البحيري مع زوجته سيمون).
* دوامات الدراويش. (رصد لرد فعل برقية حامد البحيري للمأمور).
* مذكرات محمود بن المنسي. (تسجيل لحركية سيمون ونشاطها منذ وصولها).
* الحصار. (تسجيل لغيرة النساء ووصف لمقتل سيمون).

وإزاء هذه الدفقات كان من الطبيعي أن نجد الخطوط الرأسية للأصوات متقطعة فهناك أصوات تكرر ظهورها عبر الدفقات الروائية مثل (أحمد البحيري ثلاث مرات/ المأمور مرتان / العمدة مرتان) بينما ظهرت الأصوات الأخرى مرة واحدة فقط خلال واحدة من الدفقات الروائية الأربع بينما استقرت (سيمون) في مركز الأحداث لتمثل بوجودها ومقتلها المؤثر الأساسي لردود الأفعال والأفعال المحملة بوجهة النظر المتباينة من صوت لآخر. ويمكننا تمثل الهيكل البنائي على هذا النحو:



(نموذج ٤)

والنموذج الخامس والأخير في هذه المجموعة التي اختفى منها الراوي هي رواية (السنيورة) لخيري شلبي ، وقد جاءت ممثلة للصورة الأساسية لهيكلة البناء الخاص برواية الأصوات حيث استقرت (السنيورة) بدلالاتها في مركز الأحداث ثم تحلقت الأصوات (الولد مختار/الولد طلبه/حفناوي/ وسيلة/ سيدنا) ليتحدوا جميعاً في رسم صورة أحادية لجهل وفقر القرية ، فكان تفسيرهم لغموض (السنيورة) تفسيراً مادياً شبقاً يتوازى وطريقة التفكير ، والهيكل البنائي هنا عبارة عن أصوات ذات خطوط رأسية تبدأ من منطقة واحدة وتنتهي عند حدث بعينه وهو هيكل يحاكي نموذج فتحي غانم ونجيب محفوظ في روايتهما (الرجل الذي فقد ظله/ميرامار) إلاَّ أن الأصوات في هذا النموذج ضعيفة جداً ولا تتميز بوجهات نظر متباينة أو قوية كتلك التي تقوم عليها رواية الأصوات غالباً .

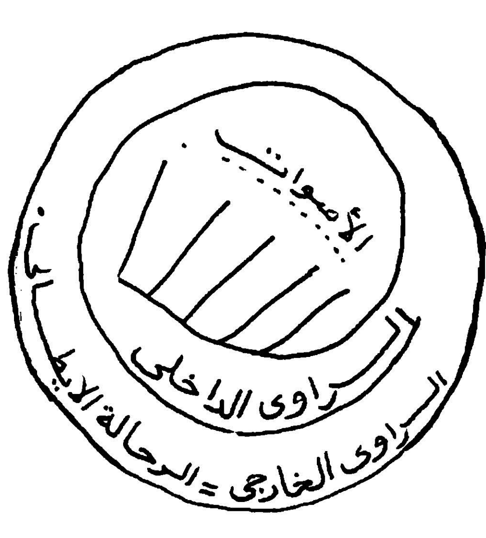
أما المجموعة الأخرى من روايات الأصوات فيظهر فيها الراوي وهو أمر إبداعي يتجاوز التنظيرات الخاصة برواية الأصوات والتي تفترض اختفاء الراوي لتعزيز حجم الأصوات ومنحها الاستقلال والحرية الملائمة لإبراز الرؤى المتباينة ووجهات النظر المتباينة التي تميز رواية الأصوات عن الرواية التقليدية التي تكتفي برؤية واحدة ·

وظهور الراوي غيّر في هيكل البناء الروائي وإذ بنا نلتقي بشكول فنية أخرى · إلاّ أن الراوي في رواية الأصوات يختلف عن الراوي في الرواية التقليدية ، لأن الأصوات تزاحمه الظهور كما نجد ذلك في النموذج الأول لهذه المجموعة الروائية التي يظهر فيها الراوي ·

في رواية (تحريك القلب) لعبده جبير يقوم الراوي بدفع الأحداث ويحتجز لنفسه قطاعاً عرضياً ثم يختفي ليترك للأصوات مهمة الظهور لتعبر عن مخاوفها من السقوط ، وعن آمالها المنتظرة، ونلاحظ هندسة البناء المحكم في هذه الرواية على النحو الآتي :

والأصوات تمتد بترتيبها بشكل رأسي يقطعه ظهور الراوي الذي يعتمد وصف تطور إرهاصات للسقوط للبيت ليعطي بذلك دفعة للأحداث ، ثم يختفي لتظهر الأصوات ردود فعلها · فالراوي واصف لفعل السقوط ، والأصوات مجسدة برؤى مختلفة ردود أفعالها ، إزاء السقوط المرتقب ·

وفي النموذج الثاني لظهور الراوي نلتقي بهيكل بنائى آخر لراوية (الزيني بركات) حيث نجد تعدد الرواة فتظهر الرواية في شكل دوائر متداخلة على النحو الآتي :



* الراوي الأول هو الرحـــالة الإيطالي (فـياسكونتي جانـتي) وموقعـه علي المحيط الخارجي لأحداث الرواية وقد مكنّه مـوقـعـه من إظهـار حـرفـيـة المرجعية التاريخية .
* الراوي الثـــاني هو الراوي الداخلي المتـحكم في المسـيـرة التـفـيـذية للأحـداث الروائيـة . وتولى تقـديم الأصـوات وسـيطر عليـهـا سـيطرة نسبـيـة عندمـا حدثنا بـ هو .. ولم يعط (الأنا) للصوت .
* الأصـوات : يمثلـون الدرجـة الثالثـة والأخيـرة والبعد الثـالث لمستوى الرواة . وعلى الرغم من مساحة الحرية المحدودة . إلاّ أن الأصوات تمكنت بتميزها وقوتها من إبراز وجهات نظر متعددة أثرت الصراع وأثرت الرواية بوجه عام ، إلاّ أن تحكم الراوي الداخلي جعل الظهور متقطعاً للأصوات .

وفي النمـوذج الثـالث لظهـور الراوي نلتـقي بـالراوي الأقـرب إلى الراوي في الرواية التـقليـدية وهو يتناوب الظهـور مع الأصـوات ... ثم يسـدد الفـراغـات التي لم تملأها الأصـوات وذلك في راوية (الـكهف السـحـري) . فـمـثـلا الراوي يحـدثنا عن عـلاقـة (إبراهيم) بزملائه في الجامعـة ، لأن (إبراهيم) لم يعرف بعض الخلفيات التي أودت به داخل السجـون، أما صوت (إبراهيم) فاستـأثر بجل الأحداث وكأنه خط طولي اخترق الرواية من بدايتـها إلى نهـايتـها حتى أن الأصوات تتفرغ منه في ضعف وتنتمي إليه بقوة (الأب/الأم/الأخت/كريمة/عبير..) . لكن ظهور الراوي هنا كان ظهوراً متقطعاً لم يعطه فرصة السيطرة على الأصوات التي تمكنت بحرية من (الأنا) السردية .

ويأتي النمـوذج الرابع لرواية (المسـافات) ليعلن عـن سيطرة كاملة للراوي - على

طريقة الرواية التقليدية، وتصبح الأصوات مجرد لعبة شكلية ليست لها فاعلية مؤثرة لا على مستوى الشكل ولا على مستوى المضمون ، لأن الراوي يسعى لرؤية كلية أذاب معها قدرة الأصوات على التميز بأكثر من وسيلة منها أن الأصوات ضعيفة وجاهلة ومتشابهة ... ومنها أن الراوي لم يعط استقلالية وحرية لأي صوت وإنما قدم الأصوات بـ(هو) من خلاله . ثالثاً أن الرواية جاءت في مسار تقليدي معنون يصعد بالأحداث إلى نهايتها بداية من (الاحتفال/ التحولات / خروج / الصحراء/ المدنية / القيامة ...) .

ومن الملاحظ أن ظهور الراوي قد أضعف بناء رواية الأصوات - بصفة عامة - لأنه لم يمنح الأصوات الحرية والاستقلال لإبداء وجهات النظر ، فسعت بعض الروايات لإعلان وجهة نظر أحادية على طريقة الروايات التقليدية . أو أن الأصوات تظهر بفعل الراوي ظهوراً متقطعاً مما يشعرنا بأن الأصوات تابعة للحدث الروائي وهو أمر قلّل من فاعلية الأصوات وقلل من وجهات النظر وحجم تعدد الرؤي ، فضلاً عن تحلي بعض الروايات بنهاية محددة كالروايات التقليدية (الكهف السحري - المسافات) ، والراوي الذي يظهر في رواية الأصوات ليس هو الراوي الشعبي ... وإنما هو الراوي المثقف أو المؤرخ (الزيني بركات) .

إذن فظهور الراوي قد حرك رواية الأصوات لتفيد من آليات روائية عديدة كإفادتها من مسرحة الأحداث والتوثيق والتهميش ، وقد تسبب ظهور الراوي في تعدد أشكال رواية الأصوات التي لم تستقر على شكل أحادي وإنما تنوعت الشكول تبعاً لخصوصية كل تجربة . إلاّ أن روايات الأصوات قد حافظت بصفة عامة على بعض الأساسيات المشتركة لرواية الأصوات مثل حرصها على وجود اللاتجانس بين الأصوات وعلى انتماء الحوار للواقع الخارجي وعلى عدم وجود بطولة فردية مطلقة أونهاية روائية محددة. وهي ميزات تعزز أهمية رواية الأصوات العربية كشكل روائي حداثي بعث من جديد على طريقة الرواية العربية . وإذ نقدمها في هذه الدراسة بهدف إغراء المبدعين لمزيد من الإسهام في هذا النوع الروائي المتميز وليقدر النقاد الخواص البنائية الفنية لرواية الأصوات في تناولهم النقدي، ولأن (رواية الأصوات) هي الأنسب للتعبير

عن واقع متعدد الرؤى ومتعدد الأيديولوجيات وهو واقع فرض نفسه على المجتمعات المعاصرة الآن التي تأبى الرؤية الأحادية ، أو اليقين الثابت مع هذه التحولات الحضارية والتقنية الإعلامية المعاصرة

أولاً : الهوامش

١ - راجع مصادر الدراسة .
٢ - فضلا عن دوره في تحجيم دور الكورس في المسرحية .
٣ - قضايا الفن الإبداعي عند ديستوفسكي /١٦.
٤ - الرواية لكاتب فرنسي وقام المنفلوطي بإعادة صياغتها بأسلوبه الرومانسي .
٥ - الرواية عنوانها (إبريسم) أو (غرام حائر) وقد صدرت في طبعه متأخرة ١٩٧٧، عن دار مصر للطباعة .
٦ - راجع : قضايا الفن الإبداعي عند يستوفسكي / لباختين .
٧ - راجع : معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة - كنموذج / لسعيد علوش / ١٣٥-١٣٦.
- وهناك رأي يربط بين انتشار الحرية والديمقراطية وبين ظهور رواية الأصوات لاسيما مع سقوط حكم الفرد الدكتاتوري .
٨ - قضايا الفن الإبداعي عند ديستوفسكي /١٥.
٩ - مثل روايات (الأرض للشرقاوي / وما وراء النهر لطه حسين / ورد قلبي).
١٠- قال به (لوكاش).
١١- قضايا الفن الإبداعي /٨٣.
١٢- السابق /١١٥.
١٣- الأسلبة Stylisation : أعنى بها التهجين القصدي للصياغة الروائية من خلال وعيين : وعي الروائي المؤسلب . والوعي بإمكانات الصوت الروائي الذي هو موضوع الأسلبة والتشخيص . وبذلك تنكسر أحادية الصياغة ونضمن ثنائية الصوت ثم التعددية اللغوية المعبرة عن التباين القائم بين الأصوات اللغوية .
١٤- رواية كانت تعتمد على الأسلوب المنولوجي الخالص (تجريد مؤمثل) وتأثرت بها الرواية الأوربية حتى بداية القرن ١٩.
١٥- السنيورة / خيري شلبي/٢٦.
١٦- السابق/٢٨.
١٧- السابق /٦٦.
١٨- الحرب في بر مصر /القعيد/ ٨٠ .

ثانياً : المصادر والمراجع

أ - مصادر الدراسة مرتبة هجائياً :

١ - أصوات/ سليمان فياض/المجموعة القصصية الكاملة/القسم الثاني/الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤.

٢ - تحريك القلب/ عبده جبير/ دار التنوير ببيروت /ط١/١٩٨٢.

٣ - الحرب في بر مصر/ يوسف القعيد/ مطبوعات دار القاهرة للتوزيع والنشر/ط٣/١٩٨٥.

٤ - الرجل الذي فقد ظله/ فتحي غانم / الأعمال الكاملة جـ١ ، جـ٢/ روز اليوسف/يناير١٩٨٨ القاهرة .

٥ - الزيني بركات / جمال الغيطاني/ دار المستقبل العربي/ ط٣ / ١٩٨٥.

٦ - السنيورة / خيري شلبي/ الأعمال الكاملة /جـ١/ الهيئة المصرية العامة للكتاب /١٩٩٣.

٧ - الكهف السحري /طه وادي /مكتبة مصر ١٩٩٤.

٨ - المسافات / إبراهيم عبد المجيد / دار المستقبل العربي /ط١/١٩٨٣.

٩ - ميرامار / نجيب محفوظ / مكتبة مصر / ط٥/ ١٩٧٩.

١٠- يحدث في مصر الآن / يوسف القعيد / الهيئة المصرية العامة للكتاب/١٩٩٥.

ب - المراجـــع :

١ - إبريسم / (غرام حائر) / محمد عبد الحليم عبد الله/ دار مصر للطباعة /١٩٧٧.

٢ - صنعة الرواية (بيرس لوبوك/ترجمة عبد الستار جواد/دار الرشيد ببغداد /١٩٨١.

٣ - قضايا الفن الإبداعي عند ديستوفسكي /م.ب.باختين / ترجمة د. جميل نصيف ومراجعة د.حياة شرارة/سلسلة المئة كتاب/ دار الشئون الثقافية ببغداد/ط١/١٩٨٦.

٤ - معجم المصطلحات الأدبية المعاصر/ سعيد علوش / دار الكتاب اللبناني/ بيروت .

جـ - الدوريات العلمية :

١ - مفهوم الرؤية السردية في الخطاب الروائي / د. بوطيب عبد العالي/عالم الفكر/مجلد ٢٢/عدد٤/ ابريل ١٩٩٣.

هل يمكن قيام حقيقة ميتافيزيقية عند ابن خلدون ؟

د . زاهد روسان

أستاذ الفلسفة المشارك

جامعة اليرموك - الاردن

إن كلمة ميتافيزيقا أو ما بعد الطبيعة Metphysics تعود إلى أحد مرتبي كتب أرسطو اسمه (اندرونيقوس) Andronicus الرودسي ، حيث أطلق اسم « ما بعد الطبيعة » أو ميتافيزيقا على الموضوعات التي جاءت بعد كتاب أرسطو « في الطبيعة » . وقد تناولت هذه الموضوعات القضايا المتعلقة « بالفلسفة الأولى » كقضية العلل الفاعلة أو العلل الأولى ، وقضية الإله بوصفه محركاً أول للكون . (صليبا ، ١٩٨٢ ، ج ٢ : ٣٠٠ - ٣٠٤) . إذن فموضوع الميتافيزيقا أو ما بعد الطبيعة هو المعرفة التي تتعدى الحواس أو الطبيعة الفيزيائية ، أي المعرفة التي تتم « بالعقل وحده دون اللجوء إلى العاطفة ولو كانت العاطفة الدينية » . (كرم ، ١٩٥٩ : ١٣٦) .

والسؤال الذي يطرح علينا الآن هو : هل باستطاعة العقل البشري أن يصل إلى معرفة ما بعد الطبيعة ؟ أو هل يمكن قيام حقيقة ميتافيزيقية عند الفلاسفة وبالذات ابن خلدون ؟

لقد انقسم الفلاسفة في الإجابة على هذا السؤال إلى فريقين :

الفريق الأول يقول بإمكانية إدراك العقل البشري لموضوعات الميتافيزيقا ، ومن

هذا الفريق يمكن أن نذكر كلا من أفلاطون Plato وأرسطو Aristotle من العصر اليوناني ، والفارابي وابن سينا من العصر الإسلامي .

أما الفريق الثاني فقد نفى هذه الإمكانية واتخذ موقفاً معارضاً للفريق الأول ، ومن هذا الفريق ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦م) موضوع بحثنا .

بالنسبة للفريق الأول ، فقد ذهب بعض فلاسفته إلى أن العقل قادر على إدراك الحقيقة المطلقة ، أما الواقع أو التجربة الحسية فكذب وخداع ، وعلى العقل أن يتجاوز الواقع أو « الأعراض » ليدرك ما هو مطلق أو « الجوهر » . وقد أخذ بهذا الرأي قديماً الفيلسوف اليوناني أفلاطون Plato (٤٢٨ - ٣٤٨ ق.م) . فقد رأى هذا الفيلسوف أن النفس البشرية كانت تعيش قبل حياتها الأرضية في عالم إلهي تتأمل فيه الحقائق السرمدية الدائمة الثابتة ، كالمعاني والمثل ، وكانت تنعم هناك بحياة سعيدة كاملة في صحبة الآلهة ، ثم فقدت هذا الامتياز فهبطت إلى الأرض ، حتى إذا أدركت أشباح المثل بالحواس تذكرت المثل . فالعلم (أي المعرفة) تذكر والجهل نسيان . (Plato, 1961 : 40 and after) وهكذا فكل إنسان يولد في هذه الدنيا تهبط نفسه إليه حاصلة على المعاني . فإلى المثل يتجه تعقلنا وإليها ترجع التعريفات، وعليها تدور العلوم .

ويشير أفلاطون في موضع آخر إلى أن هذا العالم الإلهي أو العالم المعقول يمكن إدراكه بـ « العقل وحده وقوته الديالكتيكية » ، (Plato, 1969 : 226) ، أي بذلك المجهود الفكري الذي ننتقل به من الأدنى إلى الأعلى ، ومن الجزئي إلى الكلي ، من المحسوس إلى المعقول ، من المتغير الناقص إلى الثابت الكامل . حقاً إن الأمر في غاية الصعوبة ، ولكنها صعوبة يمكن تذليلها بالمثابرة على النظر والتأمل . إنها صعوبة آتية من كوننا قد اعتدنا العيش في هذا العالم المحسوس فأصبحنا منشغلين به وفيه طول الوقت .

ويشبه أفلاطون هذه الفكرة بـ « أسطورة الكهف » ، (Plato, 1969, 227-231) وتقول هذه الأسطورة بأنه لو افترضنا أن جماعة من الناس يعيشون داخل كهف

مظلم وهم مقيدون بالسلاسل ويتجهون بأبصارهم إلى داخل الكهف ولا يرون ما يجري خارجه ، وكل ما يرونه هو أشباح متحركة على جوانب الكهف ، ويظن هؤلاء أن الحقيقة هي تلك الأشباح المتحركة التي لا يرون غيرها . وإذا ما استطاع أحد أن يفك قيده ويخرج إلى باب الكهف ، فإنه ولا شك سينبهر بادئ الأمر من الضوء الموجود خارج الكهف . وشيئاً فشيئاً يتعود الضوء الذي يمثل عند أفلاطون الحقائق المطلقة ، ويدرك أن الحقيقة ليست في الأشباح التي كان يراها داخل الكهف ، وإنما في ما يراه خارجه .

وأما أرسطو Aristotle (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) فيعارض تصور النفس الإنسانية كأنها ملك كريم هبط من السماء إلى الأرض حاملاً المعاني الكلية ، ويقرر أن الحس متصل بالأشياء اتصالاً مباشراً ، وأن العقل لا يكتسب معرفة إلا إذا تلقى مادتها من الحس بحيث تكون الحياة العقلية مرتبطة بالحياة الحسية ، بل البدنية ، مع تمايزها منهما بالطبيعة والفعل . غير أن العقل - في نظره - يتخطى نطاق المحسوسات ليدرك المعاني الكلية كالجوهر والعرض ، والعلة والمعلول ، والغاية والوسيلة ، والخير والشر ... إلخ) .

ويبدو اهتمام أرسطو بالعقل منذ مؤلفاته المبكرة حيث يعتبره الملكة التي يتميز بها الإنسان عن الحيوان . يقول في كتابه « دعوة للفلسفة » : « وإن آخر ما ينشأ من (ملكات) النفس هو ملكة العقل ... إذا سلمنا بهذا كله تبين لنا أن ملكة العقل بحسب طبيعتها هي هدفنا ، وأن استعمالها هو الغاية الأخيرة التي من أجلها نشأنا ، وإذا صح القول بأننا قد وجدنا وفقاً للطبيعة ، فقد اتضح أننا نعيش أيضاً لكي نفكر في شيء ولكي نتعلم » . (أرسطو ، ١٩٨٧ : ٣٦ - ٣٧) . يشير أرسطو بذلك إلى أن استعمال العقل في التفكير والاحكام والبراهين هو ما يشكل ماهية الإنسان وبالتالي الغاية من وجوده .

كما يعتبره (أي العقل) في موضع آخر جزءاً « من النفس الإنسانية الذي به تعرف وتعقل ، سواء أكان هذا الجزء مفارقاً أم غير مفارق من حيث الكم ، أو حسب

العقل فقط » . (Aristotle, 1975, Vol. 8.163-165) . وفي هذه النفس - كما يشير أرسطو - عقلان أحدهما المتعقل أو العقل المنفعل (Mind Passive) وهو خلو من المعقولات في الأصل ومضطر لقبولها بعد التجربة ، والآخر هو العقل الفعال (Mind active) بالقياس إلى المنفعل وهو فاعل التجريد ، لأنه يجرد ماهيات المحسوسات ويعرضها على العقل المنفعل فيخرجه من القوة إلى الفعل . وقد شبهه أرسطو بالضوء الذي يحيل الألوان بالقوة إلى ألوان بالفعل (Aristotle, 1975, Vol. 8:171) .

وبهذا العقل وقواه يحاول أرسطو أن يثبت وجود الله أو المحرك الأول للوجود ، وذلك واضح من المقالة الثانية عشرة لكتابه « ما بعد الطبيعة » ، وخلاصة هذا البرهان أو الإثبات : إن من طبيعة الحركة أنها تفترض فاعلاً أو علة للحركة ، يستمد حركته من محرك آخر . وهكذا فإن كل شيء يتحرك لابد أن يكون متحركاً بغيره ، ثم إن هذا المحرك قد يكون متحركاً بغيره أيضاً . ومهما تعددت المحركات ، فإن العقل يقضي ضرورة بأن تنتهي المحركات آخر الأمر إلى محرك أول لا يتحرك وإلا لتسلسل الأمر إلى ما لا نهاية ، فتبطل الحركة أصلاً . وهذا المحرك الأول التي يحرك الكل دون أن يتحرك هو الله الثابت . (Aristotle, 1983, pp.256-267) .

* * *

وفي العصر الإسلامي أخذ بعض الفلاسفة بالرأي القائل إن عقل الإنسان قادر على إدراك الحقيقة المطلقة . وفي طليعة هؤلاء ، الفيلسوفان الفارابي وابن سينا .

أما أن الفارابي (٢٥٩/ ٨٧٠ - ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م) يأخذ بالعقل ، فيبدو ذلك واضحاً في قوله : « العقل الإنساني ... هيئة ما في مادة معدة لأن تقبل رسوم المعقولات ، فهي بالقوة عقل .. وسائر الأشياء التي في مادة ... معقولات بالقوة ... والفاعل الذي ينقلها من القوة إلى الفعل هو ذات ماء جوهره عقل ما بالفعل ومفارق للمادة .. وإذا حصل في القوة الناطقة عن العقل الفعال ذلك الشيء

الذي منزلته منها منزلة الضوء من البصر ، حصلت المحسوسات ... المحفوظة في القوة المتخيلة معقولات في القوة الناطقة » . (الفارابي ، ١٩٥٩ : ٨٢ - ٨٤) . وهذا الجوهر « مرتبته في الأشياء المفارقة (أي عقول الأفلاك في عرف القدماء) التي ذكرت من دون السبب الأول (أي الله) المرتبة العاشرة ، (الفارابي ، ١٩٥٩:٨٤) ، يعني أنه عقل فلك القمر .

واستناداً إلى هذا العقل البشري ، يستنتج الفارابي ، من وجود الكائنات الحادثة، الممكنة ، وجود كائن واجب الوجود ، موجود بذاته ، وجوده علة وجود باقي الكائنات ، ذلك أنه يستحيل التسلسل في مجموعة الكائنات الحادثة ، وإلا لما وجد شيء . وفيما يلي صورة لبرهانه يثبت بها وجود الله على أساس التفرقة بين الممكن والواجب ، وقد وردت بإيجاز في كتابه « عيون المسائل » . يقول الفارابي : « إن الموجودات على ضربين : أحدهما إذا اعتبر ذاته لم يجب وجوده ، ويسمى ممكن الوجود . والثاني إذا اعتبر ذاته وجب وجوده ، ويسمى واجب الوجود . وإن كان ممكن الوجود إذا فرضناه غير موجود لم يلزم منه محال ، ولا غنى بوجوده عن علة . وإذا وجد صار واجب الوجود بغيره . فيلزم من هذا أنه كان مما لم يزل ممكن الوجود بذاته واجب الوجود بغيره . وهذا الإمكان إما أن يكون شيئاً فيما لم يزل ، وإما أن يكون في وقت دون وقت . والأشياء الممكنة لا يجوز أن تمر بلا نهاية في كونها علة ومعلولاً ، ولا يجوز كونها على سبيل الدور ، بل لابد من انتهائها إلى شيء واجب الوجود ، هو الموجود الأول » . ويتابع الفارابي حديثه في البرهان قائلاً : فالواجب الوجود متى فرض غير موجود لزم منه محال . ولا علة لوجوده ، ولا يجوز كون وجوده بغيره . وهو السبب الأول لوجود الأشياء » . (الفارابي ، ١٩١٠ : ٤) .

ومعنى هذا النص أنه لو تأملنا الموجودات الطبيعية وأحوالها ، لرأيناها جميعها ممكنة الوجود بذاتها ، وليست واجبة الوجود . والبرهان على أنها ممكنة الوجود هو أننا لو فرضناها غير موجودة لم يحصل عن ذلك محال . فكل موجود طبيعي بعينه يمكن للعقل أن يفترض وجوده أو عدم وجوده من غير تناقض . ولما كان من غير الممكن أن نجعل الأشياء الممكنة الوجود سبباً في الوجود لأشياء أخرى إلى غير نهاية ، وجب أن

نتوقف عند كائن واجب الوجود بذاته هو مصدر الوجود لسائر الأشياء الممكنة الوجود بذاتها .

ولم يخرج ابن سينا (٣٧٠/ ٩٨٠ - ٤٢٨ هـ / ١٠٣٧م) عن تعاليم الأستاذ ، بل يكاد يكون كلامه ترديداً لألفاظ الفارابي ، فهو يقول مثلاً في كتاب النجاة حول العقل ما يلي : « إن القوة النظرية في الإنسان ... تخرج من القوة إلى الفعل (أي من إدراكها بالقوة للمعقولات إلى ادراكها المعقولات بالفعل) بإنارة جوهر هذا شأنه عليه ، وذلك لأن الشيء لا يخرج من القوة إلى الفعل إلا بشيء يفيده الفعل لا بذاته. وهذا الفعل الذي يفيده إياه هو صورة معقولاته . إذن ههنا شيء يفيد النفس ويطبع فيها من جوهر صور المعقولات ، فذات هذا الشيء لا محالة عنده صور المعقولات ، وهذا الشيء إذن بذاته عقل ... وهذا الشيء يسمى بالقياس إلى العقول التي بالقوة وتخرج منها إلى الفعل عقلاً فعالاً . (ابن سينا ، ١٩٣٨ : ١٩٢) ويعين فعله بقوله : « هذا العقل الفعال يفيض منه قوة تسيح إلى الأشياء المتخيلة التي هي بالقوة معقولة لتجعلها معقولة بالفعل ، وتجعل العقل بالقوة عقلاً بالفعل » . (ابن سينا ، ١٩٣٨ : ١٩٣) .

ولاثبات وجود الله بطريق العقل[1] ، يقدم ابن سينا البرهان الآتي ، وهو يشبه إلى حد ما برهان الفارابي الذي يقوم على أساس التفرقة بين الممكن والواجب . يقول ابن سينا : « إن الواجب الوجود هو الموجود الذي متى فرض غير موجود عرض منه محال . وإن الممكن الوجود هو الذي متى فرض غير موجود ، أو موجوداً ، لم يعرض منه محال . والواجب الوجود هو الضروري الوجود . والممكن الوجود هو الذي لا ضرورة فيه بوجه أي لا في وجوده ولا في عدمه ... ثم إن واجب الوجود قد يكون واجباً بذاته وقد لا يكون بذاته . أما الذي هو واجب الوجود بذاته فهو الذي لذاته ، لا لشيء آخر ، أي شيء كان ، يلزم محال من فرض عدمه . وأما الواجب لا بذاته ، فهو الذي لو وضع شيء مما ليس هو صار واجب الوجود . مثلاً إن الأربعة واجبة الوجود لا بذاتها ، ولكن عند فرض اثنين واثنين ، والاحتراق واجب الوجود بذاته ، ولكن عند فرض التقاء القوة الفاعلة بالطبع والقوة المنفعلة بالطبع ، أعني المحروقة والمحترقة » .

(ابن سينا ، ١٩٣٨ : ٢٢٤ - ٢٢٥) .

وهكذا يرى ابن سينا أن الموجودات على ثلاثة أنواع :

- الممكن بذاته ، ويشتمل على جميع الأشياء التي لا يترجح فيها العدم على الوجود ، أي أن في طبيعتها أن توجد وألا توجد .
- الممكن بذاته ، الواجب بغيره ، ويشتمل على كل ما نراه من الأشياء والحركات .
- الواجب الوجود بذاته وهو المبدأ الأول ، أي الله الذي هو مبدع المبدعات ، وهو ضروري الوجود ، والضرورة عقلية ، فضروري الوجود هو الذي يستحيل عقلياً عدم وجوده أو « هو الموجود الذي متى فرض غير موجود عرض منه محال » .

كذلك يورد ابن سينا البرهان على وجود محرك أول لا يتحرك ، وهو البرهان الأرسطي الشهير ، ولا داعي لذكره حتى لا يطول الكلام .

* * *

أما الفريق الثاني فقد اتخذ موقفاً معارضاً للفريق الأول وقال باستحالة إدراك العقل للحقيقة الميتافيزيقية من هذا الفريق نذكر ابن خلدون (٧٣٢هـ / ١٣٣٢م - ١٤٠٦/٨٠٨) - موضوع بحثنا - الذي تعرض بالنقد للموقف الميتافيزيقي عند الفلاسفة في اليونان والإسلام الذين زعموا أن « العقل النظري » يملك القدرة المطلقة على استجلاء غوامض العالم الميتافيزيقي (الإلهي) والبرهنة عليها برهنة عقلية موضحاً أنهم بذلك يقعون بنتائجهم العقلية في ذلك الميدان ، في تناقضات ومحالات واضحة ، والسبب - في رأيه - يرجع إلى أن هؤلاء الفلاسفة استعملوا العقل خارج ميدانه الأساسي : وهو البحث في الأمور الطبيعية المحسوسة . فأساس المعرفة البرهانية إذن عند ابن خلدون لا يجب أن يخرج عن مصدرين هما : العقل والتجربة معاً . وكل خروج بالعقل عن هذا الإطار المزدوج والموحد يوقع صاحبه في تناقض واضح .

ولعل في هذا الموقف الخلدوني نوعاً من التشابه مع ما أكده « كانط » Kant

(١٧٢٤ - ١٨٠٤م) أيضاً بنزعته النقدية من فشل الميتافيزيقا وصعوبة البرهنة على مباحثها الثلاثة بما فيها وجود الله عن طريق العقل ، ولو حاول ذلك لوقع في أغاليط Paralogisms ونقائض Antinomism عقلية لا سبيل إلى حلها إلا بالتخلي نهائياً عن هذا الاستعمال المفارق غير المشروع لملكة العقل . (Kant, 1966 : 243-246) .

يقول ابن خلدون منتقداً المواقف الميتافيزيقية (العلم الإلهي) للفلاسفة :

« واعلم أن هذا الرأي الذي ذهبوا إليه باطل بجميع وجوهه :

فأما اسنادهم الموجودات كلها إلى العقل الأول واكتفاؤهم به في الترقي إلى الواجب فهو قصور عما وراء ذلك من رتب خلق الله . فالوجود أوسع نطاقاً من ذلك { ويخلق ما لا تعلمون } . وكأنهم في اقتصارهم على إثبات العقل فقط والغفلة عما وراءه بمثابة الطبيعيين المقتصرين على إثبات الأجسام خاصة المعرضين عن النقل والعقل ، المعتقدين أنه ليس وراء الجسم في حكمة الله شيء . وأما البراهين التي يزعمونها على مدعياتهم في الموجودات ويعرضونها على معيار المنطق وقانونه فهي قاصرة وغير وافية بالغرض ... وأما ما كان منها في الموجودات التي وراء الحس وهي الروحانيات ويسمونه العلم الإلهي وعلم ما بعد الطبيعة ، فإن ذواتها مجهولة رأساً ، ولا يمكن التوصل إليها ولا البرهان عليها ... » . (ابن خلدون : ١٢١٢ - ١٢١٣) . وسنعود إلى هذا النص فيما بعد .

ولإلقاء مزيد من الضوء على موقف ابن خلدون المعرفي يحسن بنا في البدء أن نبين المجال الذي يتحرك فيه فكره والمجال الذي لا يتحرك فيه ، بمعنى آخر نريد أن نوضح مراتب الوجود عنده وتقسيماته للعالم .

مراتب الموجودات :

يضع ابن خلدون تصوراً معيناً للكون وذلك تمهيداً لصياغة نظريته في المعرفة ، وهكذا يقسم العالم إلى قسمين رئيسين : العالم المادي المحسوس والعالم الروحاني الذي لا يدرك بالحس . والعالم بشقيه عبارة عن سلسلة من الحلقات متصلة بعضها ببعض

من المعادن إلى النبات إلى الحيوان فالإنسان فعالم الروح والملائكة . ويعتبر الإنسان حلقة الوصل بين هذين العالمين : فهو من جهة متصل بالعالم المادي المحسوس ببدنه وحواسه ، وهو من جهة أخرى متصل بالعالم العلوي بروحه ونفسه . والذوات الكائنة في كل حلقة من هذه الحلقات « مستعدة لأن تنقلب إلى الذات التي تجاورها من الأسفل والأعلى استعداداً طبيعياً كما في العناصر الجسمانية البسيطة ، وكما هو في النخل والكرم .. وكما في القردة ... وهذا الاستعداد الذي في جانبي كل أفق من العوالم هو معنى الاتصال فيها » . (ابن خلدون : ١٠١٦) . وعليه فآخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات ، وآخر أفق النبات متصل بأول أفق الحيوان ، وكل واحد من هذه مستعد إلى أن يستحيل إلى ما يليه . كما أن آخر أفق الحيوان متصل بالإنسان - صاحب الفكر والروية - والإنسان بدوره متصل بعالم الملائكة وفيه استعداد طبيعي « للإنسلاخ من البشرية إلى الملكية لتصير (نفسه) بالفعل من جنس الملائكة وقتاً من الأوقات وفي لمحة من اللمحات » . (ابن خلدون : ٤٠٦ ، ١٠١٦) .

الموجودات إذن في هذا الكون على مراتب ، وكلها سلسلة متصلة ، وكل مرتبة مستعدة لأن تستحيل إلى غيرها من جهة العلو ، كما أن لكل منها تأثيرها على غيرها من جهة السفل : « ففي عالم الحس آثار من حركات الأفلاك والعناصر ، وفي عالم التكوين آثار من حركات النمو والإدراك ، تشهد كلها بأن لها مؤثراً مبايناً للأجسام » . (ابن خلدون : ٤٠٦) . ولما كان الإنسان يحتل المركز الوسط بين العالمين ، فهو إذن يمارس تأثيره في الكائنات التي دونه ، في الوقت الذي يخضع فيه لتأثير الموجودات التي هي أعلى منه مرتبة .

والسؤال هنا هو : كيف عرفنا هذين العالمين ، وما الدليل على أن النفس البشرية هي حلقة الاتصال بين هذين العالمين ؟

إن ابن خلدون في الحقيقة لا يضع الوجود كله بما فيه وجوده نفسه موضع شك . إنه ينطلق من ذاته ومن مدركاته الحسية والعقلية لإثبات عالم الحس ووجود النفس

الإنسانية . أما عالم الأرواح والملائكة الذي هو فوق عالمنا فيستدل عليه بآثاره فينا أو بالرؤيا الصحيحة . يقول بهذا الصدد : « إنا نشهد في أنفسنا بالوجدان الصحيح وجود ثلاثة عوالم . أولها عالم الحس ونعتبره بمدارك الحس الذي شاركنا فيه الحيوانات بالإدراك . ثم نعتبر الفكر الذي اختص به البشر فنعلم عنه وجود النفس الإنسانية علماً ضرورياً بما بين جنبينا من مداركها العلمية التي هي فوق مدارك الحس ، فنراه عالماً آخر فوق عالم الحس . ثم نستدل على عالم ثالث فوقنا بما نجد فينا من آثاره التي تلقى في أفئدتنا كالإرادات والوجهات نحو الحركات الفعلية ، فنعلم أن هناك فاعلاً يبعثنا عليها من عالم فوق عالمنا ، وهو عالم الأرواح والملائكة ، وفيه ذوات مدركة ، لوجود آثارها فينا ، مع ما بيننا وبينها من المغايرة . وربما يستدل على هذا العالم الأعلى الروحاني وذواته بالرؤيا وما نجده في النوم ويلقى إلينا فيه من الأمور التي نحن في غفلة عنها في اليقظة ، وتطابق الواقع في الصحيحة منها ، فنعلم أنها حق ، ومن عالم الحق . وأما أضغاث الأحلام فصور خيالية يخزنها الإدراك في الباطن ، ويجول فيها الفكر بعد الغيبة عن الحس . ولا نجد على هذا العالم الروحاني برهاناً أوضح من هذا ، فنعلمه كذلك على الجملة ولا ندرك له تفصيلاً . (ابن خلدون : ١٠١٣-١٠١٤) .

نستنتج من هذا النص أن ابن خلدون يضعنا أمام ثلاثة عوالم ولكل عالم مصدره: فالإدراك الحسي يدلنا على وجود العالم المادي المحسوس ، والإدراك العقلي المجرد دليل على وجود قوة فوق الحس هي النفس الإنسانية وهي روحانية ، أما « الإرادات والوجهات » التي تحصل للإنسان فدليل على أن هناك قدرة عليا فاعلة تسيرنا هي القدرة الإلهية وهي في عالم فوق عالمنا .

ولكن لماذا يقرر ابن خلدون في نصه السابق أنا لا ندرك تفصيلاً لهذا العالم الروحاني ؟ بل لا سبيل إلى معرفته بواسطة أية صناعة بشرية أو كما يقول : « إن الغيوب لا تدرك بصناعة البتة ولا سبيل إلى تعرفها إلا للخواص من البشر المفطورين على الرجوع عن عالم الحس إلى عالم الروح » . (ابن خلدون : ٤٢٨) .

الإجابة على هذا السؤال تتطلب منا الدخول مباشرة في نظرية المعرفة عند صاحبنا

وبيان حدودها وميدانها ، والتي على أساسها يعلن استحالة الميتافيزيقا ، بل واستحالة علوم أخرى كالكيمياء والتنجيم .

المعرفة عند ابن خلدون :

يتميز الإنسان عن سائر الحيوان - كما يشير إلى ذلك صاحب المقدمة - بالفكر والعقل . فبينما الحيوانات تشعر بما هو خارج عن ذاتها عن طريق الحواس الظاهرة كالسمع والبصر والشم والذوق واللمس ، تجد الإنسان يزيد على ذلك ، فيدرك « الخارج عن ذاته بالفكر الذي وراء حسه ، وذلك بقوة جعلت له في بطون دماغه ، ينتزع بها صور المحسوسات ويجول بذهنه فيها ، فيجرد منها صوراً أخرى . والفكر هو التصرف في تلك الصور وراء الحس وجولان الذهن فيها بالانتزاع والتركيب » . (ابن خلدون : ١٠٠٨ - ١٠٠٩) . ومعنى هذا أن المعرفة عند الحيوان هي إحساس صرف ، بينما هي عند الإنسان إحساس وتعقل . ولكن ما حدود هذه المعرفة البشرية التي تتخذ من العقل مصدراً لها ؟

يميز ابن خلدون بين ثلاث مراتب في العقل الإنساني ولكل مرتبة وظيفتها المعرفية الخاصة بها :

أولاها العقل التمييزي ، وهو تعقل الأمور المرتبة في الخارج ترتيباً طبيعياً أو وضعياً ، (ابن خلدون : ١٠٠٩) ، ووظيفة العقل هنا أنه قادر على التمييز بين الأشياء وتصورها كلا على حدة . إن المعرفة التي تحصل بهذا العقل معرفة حسية تعتمد أساساً على ما تأتي به الحواس فقط . ولذلك كانت أكثرها تصورات[٢] .

وثانيها العقل التجريبي ، وهو أعلى رتبة من العقل التمييزي ، ذلك لأن الإنسان في هذه الحالة يكون قد اكتسب خبرة من محيطه الذي يعيش فيه ، وذلك كانت المعرفة في هذه المرتبة تجريبية يكتسبها الإنسان عن طريق التجربة . والمقصود بالتجربة هنا بشكل خاص التجربة الاجتماعية . فالإنسان - كما هو معروف لدى الحكماء - كائن اجتماعي أو « مدني بالطبع » « لا يتم وجوده إلا مع أبناء جنسه ، وذلك لما هو عليه من العجز عن استكمال وجوده وحياته ، فهو محتاج إلى المعاونة في جميع حاجاته أبداً

بطبعه » . (ابن خلدون : ١٠١٢) . وهكذا يكتسب الإنسان من خلال علاقاته مع غيره ، تجارب وعوائد ومعارف جديدة يستفيد منها في حياته العملية ، وتزداد هذه المعارف أو تقصر حسب اختلاف تجاربه طولاً وقصراً ، أو بلغة ابن خلدون « بما تسعه التجربة من الزمن » . (ابن خلدون : ١٠١٣) . والمعرفة التي تتم عن طريق العقل التجريبي أكثرها تصديقات[٣] .

وبعد هذين تأتي مرتبة « العقل النظري » وهو تصورات وتصديقات تنتظم انتظاماً خاصاً على شروط خاصة ... وغاية إفادته تصور الوجود على ما هو عليه بأجناسه وفصوله[٤] وأسبابه وعلله ، فيكمل الفكر بذلك في حقيقته ويصير عقلاً محضاً ونفساً مدركة ، وهو معنى الحقيقة الإنسانية » . (ابن خلدون : ١٠٠٩ - ١٠١٠) .

هذا كل ما لدى ابن خلدون من حديث عن العقل النظري « الذي تكفل بتفسيره أهل العلوم ، فلا يحتاج إلى تفسيره في هذا الكتاب » . (ابن خلدون : ١٠١٣) . وربما يرجع السبب في ذلك إلى أن صاحبنا مهتم أكثر ما هو مهتم بدراسة الوقائع الاجتماعية والتاريخية التي هي من مجال العقل التجريبي ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن هذا العقل (أي النظري) قاصر - في نظره - عن إدراك الوجود كله على ما هو عليه ؛ لأن ذلك من مجال ما وراء الحس الذي يتجاوز نطاق المعرفة البشرية العقلية . ويمكن توضيح ذلك بما يلي :

يرى ابن خلدون أن الإنسان جاهل بالطبع ، فهو قبل العقل التمييزي خلو من العلم بالجملة معدود من الحيوانات . والفكر في هذه الحالة عبارة عن « هيولي فقط لجهله بجميع المعارف ، ثم تستكمل صورته بالعلم الذي يكتسبه بآلاته (أي بحواسه) ، فتكمل ذاته الإنسانية في وجودها » . (ابن خلدون : ١٠١٧ - ١٠١٨) . ثم يأتي بعد ذلك دور التجربة ، حيث يدخل الإنسان من جراء ذلك في علاقات مع بني جنسه ، فيوقع أفعاله على انتظام وترتيب ويتوجه بفكره ونظره » إلى واحد واحد من الحقائق وينظر ما يعرض له لذاته واحداً بعد آخر ، ويتمرن على ذلك حتى يصير إلحاق

العوارض (= الخصائص) بتلك الحقيقة ملكة له ، فيكون حينئذ علمه بما يعرض لتلك الحقيقة علماً مخصوصاً . (ابن خلدون : ١٠١٩) .

وهنا - في هذا النص - تبرز فاعلية العقل التجريبي من حيث : أولاً قدرته على استخلاص الخصائص الملازمة للأشياء سواء كانت هذه الأشياء مواد جامدة أو حية أو هيئات اجتماعية . وثانياً إدراك الترتيب بين الحوادث الذي يجيء نتيجة التفطن إلى أسبابها وعللها وشروطها ، وهي على الجملة مبادئها . (ابن خلدون : ١٠١٠) . وبعبارة أخرى ، فإن ميزة هذا العقل تتجلى في قدرته على ربط الأسباب بالمسببات على أرضية الواقع ، « وعلى قدر حصول الأسباب والمسببات في الفكر مرتبة تكون إنسانيته » . (ابن خلدون : ١٠١١) . وهذا يقود بالطبع إلى معرفة القوانين التي تحكم هذا الواقع بما فيه الظواهر الاجتماعية . وهكذا يصبح الإنسان بفعل هذا العقل قادراً على تسخير العالم من حوله لأجل خدمته ومصلحته ، وبذلك تستولي « أفعال البشر على عالم الحوادث بما فيه ، فكان كله في طاعته وتسخيره » . (ابن خلدون : ١٠١١) .

بهذه الطريقة إذن تزداد معارف الناس وتنمو مداركهم وقواهم العقلية ، ومن ثم تزداد قدرتهم في السيطرة على العالم وتسخيره لصالحهم ، وذلك كلما ازدادت تجاربهم واحتكاكهم بالآخرين . ولكن تجارب الإنسان كما هو معروف لها حدود تقف عندها ، ذلك لأن عمره محدود وتجاربه بالتالي محدودة ، ولأن قواه المدركة هي كذلك محدودة. إن التجربة هي « ما يحصل من مجموع العقل والحس » . (الغزالي ، ١٩٦٠ : ١٢٢) ، ولما كان العقل يعتمد أساساً في المعرفة على الحواس ، فإن فاعليته تقتصر فقط على المجال الحسي ، وبالتالي فهو « إنما يحيط علماً في الغالب بالأسباب التي هي من طبيعة ظاهرة » . (ابن خلدون : ١٠٦٩) . وهذا يعني أن العقل لا يستطيع الإحاطة أو العلم بكل شيء ولا بالأسباب جميعها . ومن هنا جاء رد ابن خلدون على أولئك الذين يزعمون أن العقل البشري قادر على الإحاطة بالموجودات كلها ، قائلاً : « ولا تثقن بما يزعم لك الفكر من أنه مقتدر على الإحاطة بالكائنات وأسبابها ، والوقوف على تفصيل الوجود كله ، وسفه رأيه في ذلك . واعلم أن الوجود

عند كل مدرك في بادئ رأيه منحصر في مداركه لا يعدوها » . (ابن خلدون : ١٠٧١) . ويقول أيضاً : « فلعل الأسباب إذا تجاوزت في الارتقاء نطاق إدراكنا ووجودنا خرجت عن أن تكون مدركة ، فيضل العقل في بيداء الأوهام ويحار وينقطع » . (ابن خلدون : ١٠١٣) . أما سبب وقوع العقل في الضلال والأوهام فلأنه يتجاوز الأسباب الواقعية والمشاهد الحسية ، مع أنها (أي الأسباب) في الحقيقة إنما يجب أن تكتشف عن طريق والمشاهدة ، و « يوقف عليها بالعادة لاقتران الشاهد بالاستناد إلى الظاهر» . (ابن خلدون : ١٠٧٠) .

نستنتج من كل ما سبق أن الافتراض القائل بأن العقل قادر على معرفة كلية لكل الكائنات أو ما يسميه ابن خلدون « العلم المحيط » ، (ابن خلدون : ١٢٣١) ، هو أمر مستحيل ، ويترتب على ذلك استحالة قيام العلم الإلهي عن طريق العقل ، ذلك لأن ذوات ما بعد الطبيعة مجهولة رأساً ، فلا يمكن التوصل إليها بالحس ولا البرهان عليها بالعقل، وإذا كان الفلاسفة يزعمون أن الوجود كله بما فيه وراء الحس « تدرك ذواته وأحواله بأسبابها وعللها بالأنظار الفكرية والأقيسة العقلية " (ابن خلدون : ١٢٠٩) فهم واهمون، ومن ثمّ فالرأي الذي ذهبوا اليه باطل من جميع وجوهه . ويكمن وجه البطلان هنا في اعتمادهم (الفلاسفة) على التجريد . " وتجريد المعقولات من الموجودات الخارجية الشخصية إنما هو ممكن فيما هو مدرك لنا ، ونحن لا ندرك الذوات الروحانية حتى نجرد منها ماهيات أخرى ، بحجاب الحس بيننا وبينها ، فلا يتأتى لنا برهان عليها ولا مدرك لنا في إثبات وجودها على الجملة إلا ما نجده بين جنبينا من أمر النفس الإنسانية وأحوال مداركها ، وخصوصاً في الرؤيا التي هي وجدانية لكل أحد ، وما وراء ذلك من حقيقتها وصفاتها فأمر غامض لا سبيل إلى الوقوف عليه » . (ابن خلدون : ١٢١٣) .

بهذه الحجة وغيرها ، اعتقد ابن خلدون أنه نسف كل التبريرات المطروحة للبحث عن المعقولية الميتافيزيقية ، ومن ثمة فلا ثمرة مفيدة من البحث في العلم الإلهي والاشتغال به مادام لا يوصل إلى يقين . أما المنطق ، وهو الأداة التي يقيم عليها هذا العلم بنيانه ، فثمرته في أنه يعمل على « شحذ الذهن في ترتيب الأدلة والحجاج

لتحصيل ملكة الجودة والصواب في البراهين » . (ابن خلدون : ١٣٢١٦) . وهذه في الحقيقة هي ثمرة الفلسفة كذلك ، إضافة إلى ثمرتها في « الإطلاع على مذاهب أهل العلم وآرائهم . أما أن ينظر إلى هذه الأداة (أي المنطق) على أنها قادرة بالبراهين والأدلة أن تصل إلى إدراك العالم العلوي وإثبات وجود الله ، فهذا أمر غير ممكن ومعيار المنطق وقانونه قاصران عن ذلك غير وافيين بالغرض . (ابن خلدون : ١٢١٢) .

إذن فابن خلدون عندما أعلن في فصل من فصول مقدمته عن « إبطال الفلسفة وفساد منتحلها » وأنها تقيم بناءها على العقل وأقيسته ، لم يكن يقصد من وراء ذلك تفنيد الفلسفة لذاتها ومن ثم منهجها العقلاني كما يذهب إلى ذلك بعض الباحثين العرب المعاصرين ، (محمود ، ١٩٦٢ : ١٤٧) ، ولم يكن يقصد كذلك تكفير أصحابها كما ذهب إلى ذلك الغزالي من قبل في كتابه « تهافت الفلاسفة » ، وإنما أراد أن يبين أن البحث فيما وراء الطبيعة عن طريق الفلسفة وأقيستها العقلية ، أمر صعب المنال ، طريقه غير سالك بل محفوف بالمخاطر ، ولذلك رأى صاحبنا أن من يريد الغوص في مسائل الفلسفة أن يكون متسلحاً بالشرعيات والفقه حتى يتجنب المزالق أو الوقوع في مهاوي الزلل والخطأ ، فهو يقول : « فليكن الناظر فيها متحرزاً جهده من معاطبها ، وليكن نظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه ، ولا يكبن أحد عليها وهو خلو من علوم الملة ، فقل أن يسلم لذلك من معاطبها » . (ابن خلدون : ١٢١٧) .

وابن خلدون لا يكتفي فقط باستحالة قيام علم الميتافيزيقا ، بل يعلن كذلك صعوبة قيام علوم أخرى كالكيمياء والتنجيم . هذان العلمان في - نظره - مستحيلان لقصور العقل البشري عن الإحاطة بما يلزم من المعارف لقيامهما . (ابن خلدون : ١٢١٧ ، ١٢٢٥) . وقصور العقل عن الاحاطة بالظواهر التي يبحث فيها هذان العلمان راجع إلى أن البحث في عهد ابن خلدون كان يستند فقط على الملاحظة المباشرة غير المجهزة علمياً أي أن أدوات البحث والتجربة غير متوافرة بشكل كاف حتى عهده . أضف إلى ذلك أن حرية البحث والعمل في هذه الميادين العلمية كانت مفقودة

أو هي « تحت رقبة من علماء السنة » . (ابن خلدون : ١١٢٥) .

بقي أخيراً أن نتساءل فيما إذا كان ابن خلدون قد وقع في تناقض مع نفسه ، إذ يقرر في مواضع كثيرة - وكما أسلفنا - أصول مذهب تجريبي في طبيعة المعرفة ومن ثم إنكار قيام علم ما بعد الطبيعة ، ويعترف في الوقت نفسه بقدرة الإنسان عن طريق النفس - لا العقل - على اجتياز عالم الحس والتجربة ليكتسب معارف عن عالم الغيب كما يفعل ذلك أهل الكشف من الصوفية والأنبياء وغيرهم . بمعنى آخر كيف يمكن التوفيق بين ابن خلدون التجريبي وابن خلدون المثالي ؟ .

ينبغي القول بادئ ذي بدء أن ابن خلدون يؤمن بالله وبالوحي وبالنبوة لأنه كان مسلماً يعيش في مجتمع إسلامي ، وهو يعتقد أيضاً بالكهانة والسحر ، لأنه كان يعيش في عصر غير عصرنا ، في عصرٍ ازدهرت فيه « العلوم » الغيبية ازدهاراً كبيراً. لكن هذا الإيمان والاعتقاد - كما يرى بعض الباحثين العرب المعاصرين - لم « يقلل من اعتنائه بالعلم واكتشاف قوانين الطبيعة ، بل هو الحافز الأكبر الذي يدفع إلى الاطلاع على سنن الكون والوجود في تعدده وتنوع مشاهده » . (مزيان ، ١٩٨٠ : ١٠٧) .

أما بالنسبة للنفس وقدرتها على اكتساب المعارف الغيبية ، فإن آراء ابن خلدون في هذا الصدد تنبني على نظرية اتصال الموجودات بعضها مع بعض ، كما ذكرنا ذلك سابقاً . والنفس في هذا الاتصال لها « جهتا العلو والسفل : فهي متصلة بالبدن من أسفل منها ومكتسبة به المدارك الحسية التي تستعد بها للحصول على التعقل بالفعل، ومتصلة من جهة الأعلى منها بأفق الملائكة ومكتسبة به المدارك العلمية والغيبية ، فإن عالم الحوادث موجود في تعقلاتهم من غير زمان » . (ابن خلدون : ٤٠٧) .

لكن النفوس البشرية واستعدادها للصعود إلى الملأ الأعلى وكل ما هو علوي وروحاني ، ليست سواء في ذلك ، بل هي على ثلاثة أصناف :

- صنف عاجز بالطبع عن الوصول إلى الإدراك الروحاني ، فهو يتجه بقواه المدركة إلى الجهة السفلى ، نحو المدارك الحسية والخيالية وتركيب المعاني المجردة منها

وينتهي إدراكه إلى الأوليات ولا يتجاوزها ، والمعرفة العقلية التي يحصل عليها هذا الصنف من الناس محدودة بحدود الحس والتجربة . (ابن خلدون : ٤٠٨) .

- وصنف متوجه بحركته الفكرية نحو العالم الروحاني ، والإدراك هنا لا يحتاج إلى الآلات البدنية (الحواس) ، بل يتحرر منها بعدم الانشغال بها ، ذلك « لأن الحواس أبداً جاذبة لها (أي النفس) إلى الظاهر بما فطرت عليه أولاً من الإدراك الجسماني . وربما تنغمس من الظاهر إلى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظة ، إما بالخاصية التي هي للإنسان على الإطلاق مثل النوم ، أو بالخاصية الموجودة لبعض البشر مثل الكهانة ... أو بالرياضة مثل أهل الكشف من الصوفية ، فتلتفت حينئذ إلى الذوات التي فوقها من الملأ الأعلى لما بين أفقها وأفقهم من الاتصال في الوجود كما قررناه من قبل » . (ابن خلدون : ٤١٩) .
- وصنف - وهو عكس الأول تماماً - « مفطور على الانسلاخ من البشرية جملة ، جسمانيتها وروحانيتها ، إلى الملائكة من الأفق الأعلى ، ليصير في لمحة من اللمحات ملكاً بالفعل ، ويحصل له شهود الملإ الأعلى في أفقهم وسماع الكلام النفساني والخطاب الإلهي في تلك اللمحة ، وهؤلاء الأنبياء . (ابن خلدون : ٤٠٨ - ٤٠٩) الذين فضلهم (الله) بخطابه ، وفطرهم على معرفته ، وجعلهم وسائل بينه وبين عباده ... » . (ابن خلدون : ٣٩٨) .

ينتج عن هذا التقسيم أن المعرفة الغيبية في نظر ابن خلدون : تنحصر في الكهانة والمتصوفة والأنبياء . فبالنسبة للكهان ومن في معناهم ، يعتقد ابن خلدون أن نفوسهم مفطورة على النقص والقصور عن الكمال ، ومن ثم فالإدراك الذي يحصل لهم يشوبه الكذب والخطأ لأنه من وحي الشيطان ، « فربما صادف (الكاهن) ووافق الحق وربما كذب ، لأنه يتمم نقصه بأمر أجنبي عن ذاته المدركة ... فيعرض له الصدق والكذب جميعاً ولا يكون موثوقاً به » . (ابن خلدون : ٤١٢) .

أما المتصوفة ، وإن كان ابن خلدون يسلم لهم مجاهداتهم ومقاماتهم وما يحصل لهم فيها من الأذواق والمواجد (ابن خلدون : ١١١٢) ، إلا أنه يعتبر أن « حصول ما يحصل (لهم) من معرفة الغيب والتصرف ... إنما هو بالعرض » . (ابن خلدون :

٤٢٣) ، ومن ثم فإن إدراكهم ذاتي محض لا يعبّر عنه بألفاظ ، لأن الألفاظ وضعت للتعبير من محسوساتها في حين أن ما يشاهده صاحب الكشف هو من عالم ما وراء الحس .

وهكذا لا يبقى من الأصناف المدركة للغيب من البشر إلا الأنبياء المكلفون بتبليغ الرسالة إلى الناس ، ومعرفتهم - في نظر ابن خلدون - هي وحدها الصحيحة . وهكذا تنحل المعرفة البشرية في النهاية إلى صنفين اثنين : معرفة بالعقل وميدانها العالم المادي المحسوس ، ومعرفة بالنقل والوحي تؤدي بالبشر إلى ما ينبغي فعله واعتقاده، وما يجب تركه والابتعاد عنه . وهكذا أيضاً يمكن القول رداً على التساؤل المطروح سابقاً ، أن ابن خلدون لم يكن متناقضاً مع نفسه إذا ما أخذنا بعين الاعتبار ثنائية الإدراك وثنائية المدركات ، إذ في الإنسان - في نظره - قوتان : قوة على إدراك العالم المادي وهذه القوة هي العقل المستند إلى التجربة والمشاهدة الحسية ، وقوة أخرى هي النفس أو الروح التي تكشف عن عالم الغيب مباشرة وهذه لا تتم إلا للأنبياء. فهناك إذن ميدانان مختلفان ، وأداتان للإدراك مختلفتان ، والتناقض لا يقع إلا في ميدان واحد .

وبناء على تلك الثنائية ، قسم ابن خلدون الحقائق إلى قسمين : حقائق يؤكدها العقل وهي الحقائق التي تتعلق بالعالم المادي المحسوس بما فيها شؤون الاجتماع وأمور المعاش والحكم والسياسة . وحقائق يقررها الدين ، وهذه تتعلق بشؤون ما وراء الحس، على أن ابن خلدون يقدم المصدر الثاني على الأول إذا ماحاول العقل أن يتناول مسائل لا تخصه أو هي في ميدان غير ميدانه ، ذلك لأن الحكم الذي سيتوصل إليه هو مجرد تخمين لا يقين ، ولذلك يقول : « فإذا هدانا الشارع إلى مدرك فينبغي أن نقدمه على مداركنا ونثق به دونها ، ولا ننظر في تصحيحه بمدارك العقل ولو عارضه ، بل نعتمد ما أمرنا به اعتقاداً وعلماً ، ونسكت عما لم نفهم من ذلك ونفوضه إلى الشارع ونعزل العقل عنه » . (ابن خلدون : ١١٤٦ = ١١٤٧) ، وذلك لأن « مدارك صاحب الشرع أوسع لاتساع نطاقها عن مدارك الأنظار العقلية ، فهي فوقها ومحيطة بها لاستمدادها من الأنوار الإلهية ، فلا تدخل تحت قانون النظر الضعيف والمدارك المحاط

بها » . (ابن خلدون : ١١٤٦) . لكن ذلك لا يعني أن ابن خلدون يحط من قيمة العقل ليعلي من شأن الدين . فعلى الرغم من أنه يؤكد أن الشارع أعلم بما ينفع الناس ، لأنه من طور فوق إدراكهم ومن نطاق أوسع من نطاق عقولهم ، فهو يؤكد من ناحية أخرى أن ذلك ليس « بقادح في العقل ومداركه ، بل العقل ميزان صحيح ، فأحكامه يقينية لا كذب فيها . غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية وكل ما وراء طوره . ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال . وهذا لا يدل على أن الميزان في أحكامه غير صادق ، لكن للعقل حداً يقف عنده ولا يتعدى طوره » . (ابن خلدون: ١٠٧١ - ١٠٧٢) .

وخلاصة الحديث أن ابن خلدون يرفض الفلسفة الميتافيزيقية على أساس عقلي ، ويعترف بالمنهج التجريبي في ميدان العلوم الطبيعية والاجتماعية ، كما يعترف بالمنهج الديني في ميدان الأمور الروحانية والغيبية وذلك عن طريق النفس أو الروح أو الوحي . وهكذا يكون العقل عنده له مجاله ، وللوحي ميدانه ، وهما لا يتعارضان إلا حين يتعدى أحدهما نطاقه ويدخل في نطاق اختصاص الآخر ، وقد أجاد حين قال : «العقل معزول عن الشرع وأنظاره » . (ابن خلدون : ١١٤٦) .

وابن خلدون من هذه الناحية - أي من حيث حدود مشروعية العقل - يتشابه مع الفيلسوف الألماني كانط Kant (١٧٢٤ - ١٨٠٤) الذي حدد مصادر المعرفة بالحس والعقل معاً ، وبالتالي فإن ما يمكن معرفته هو فقط ظواهر الأشياء Phenomena أما الأشياء في ذاتها Noumena فذلك ما لا سبيل إلى معرفته ، ولكن كانط مع ذلك يقر بالمسائل الميتافيزيقية ، فيعترف بوجود الله ، والنفس وخلودها ... إلخ على أساس الأخلاق والإيمان ، لا على أساس البرهان العقلي .

الهوامش

١- من المفيد الرجوع إلى : خليف ، فتح الله ، فلاسفة الإسلام ، الإسكندرية : دار الجامعات المصرية ، بلا تاريخ ص ٤٧ - ٥٠ .

٢- التصورات Conceptions هي إدراك مدلولات المفردات وماهيات الأشياء ، ويقابلها التصديقات Assent وهي إدراك النسبة بين تصورين أي الحكم .

انظر : كرم ، يوسف . العقل والوجود ، ص ١١ . وصليبا ، جميل . المعجم الفلسفي ، ج١، ص ٢٧٧ ، ٢٨١ .

٣- نفس المرجع السابق .

٤- الجنس Genus في اصطلاح المناطقة هو الحد الكلي الدال على الصفات التي يتميز بها نوع واحد عن الأنواع الأخرى الداخلة في الجنس القريب ذاته .

راجع : صليبا ، جميل . المعجم الفلسفي ، ج ١ ، ص ٤١٦ - ٤١٧ ، وج ٢ ، ص١٤٧-١٤٨ .

المراجع العربية

- ابن خلدون ، عبد الرحمن ، مقدمة ابن خلدون ، تحقيق علي عبد الواحد وافي ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، دار مصر للطبع والنشر ، ١٩٧٧ .
- ابن سينا ، أبو علي الحسين ، الشفاء (الإلهيات) ، راجعه وقدم له إبراهيم مدكور ، تحقيق الأب قنواتي وسعيد زايد . القاهرة ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م .
- ابن سينا ، أبو علي الحسين ، النجاة في الحكمة المنطقية والطبيعية والإلهية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م .
- أرسطو ، دعوة للفلسفة ، قدمه للعربية مع تعليقات وشروح عبد الغفار مكاوي ، القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧م .
- صليبا ، جميل ، المعجم الفلسفي ، بيروت : دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة ، ١٩٨٢ .
- الغزالي ، أبو حامد ، مقاصد الفلاسفة ، تحقيق سليمان دنيا ، الطبعة الثانية ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٠م .
- الفارابي ، أبو نصر محمد ، عيون المسائل في المنطق ومبادئ الفلسفة ، القاهرة ، المكتبة السلفية ، ١٣٢٨ هـ/ ١٩١٠م .
- الفارابي ، أبو نصر محمد ، كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة ، تحقيق البير نصري نادر ، بيروت، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٥٩م .
- كرم ، يوسف ، الطبيعة وما بعد الطبيعة ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٩م .
- محمود ، زكي نجيب ، موقف ابن خلدون من الفلسفة ، مهرجان ابن خلدون المنعقد بالقاهرة ١٩٦٢ ، ص ١٤٤ - ١٥١ .
- مزيان ، عبد المجيد ، التوازن بين الفكر العلمي والفكر الديني عند ابن خلدون ، مجلة الحياة الثقافية ، العدد ٩ ، السنة الخامسة ، ١٩٨٠م ، ص ١٠٣ - ١١٠ .

المراجع الأجنبية

- Aristotle. Metaphysics, trans. by Richard Hope, The University of Michigan Press, 1983.
- Aristotle. On the soul, trans. by W.S. Hett, Harvard University Press, London, Vol. 8., 1975.
- Kant, Immanuel. Critique of Pure Reason, trans. by f. max muller, Anchor Books edition, New York, 1966.
- Plato, The Republic of Palto, trans. with introduction and notes by Francis Macdonald cornford, Oxford University Press, Oxford, 1969.
- Plato, The collected dialogues of plato trans. by lane cooper and others, Princeton University press, New Jersey, 1961.

العوامل الاجتماعية المرتبطة بتعدد حالات الإعاقة لدى الأسرة السعودية

دراسة حالة لأسر الأطفال المعوقين المترددة على مركز التأهيل الطبي بمدينة الرياض

د. عبد الله محمد الفوزان

كلية الآداب - جامعة الملك سعود

مقدمة :

كانت الإعاقة ولا تزال هاجساً ملازما للمجتمعات الإنسانية منذ أقدم العصور حتى الآن . وقد تباينت تلك المجتمعات في نظرتها للمعوقين وفي معاملتها لهم حسب القيم والأعراف والتقاليد والأفكار الدينية والاجتماعية السائدة في كل منها فبعضها نظرت إليهم نظرة ازدراء وحقرت من شأنهم ورمتهم للوحوش كي تفتك بهم كما في الحضارة اليونانية والرومانية وبعضها الآخر نظرت إليهم نظرة شفقة ورحمة كما في الحضارة الإسلامية (بو حيمد ، ١٩٨٣ : ٤١) و (فهمي ، ١٩٨٣ : ١٩) . أما في المجتمعات المعاصرة فقد شهد المعوقون اهتماما متزايدا تمثل في اعتبارهم مواطنين لهم الحق في العيش الكريم مثلهم في ذلك مثل أقرانهم الأسوياء لا تفضلا وإحسانا وإنما هو حق من حقوقهم . ونتج عن هذا الاهتمام قيام العديد من المنظمات المحلية والإقليمية والدولية التي تهتم بقضايا المعوقين وتسعى إلى ضمان حصولهم على

حقوقهم في المجتمعات التي يعيشون فيها .

ولعل المتأمل في الجهود القائمة حالياً في مجال الإعاقة على مختلف الأصعدة يجد أنها لم تتوقف عند حدود التعامل مع الأمر الواقع فيما يخص الإعاقة والمعوقين بل تعدت ذلك إلى محاولة التعرف العلمي على مسببات الإعاقة ونتائجها ومن ثم العمل على تلافيها وذلك بإجراء البحوث المخبرية والميدانية من قبل الباحثين والدارسين في مختلف العلوم الإنسانية والطبيعية . وقد ركزت أبحاث الإعاقة في مجملها على دراسة أسباب الإعاقة وأنواعها ومدى تأثيرها على الأسرة والمجتمع ولكنها تجاهلت بسبب حداثة تجربتها في هذا الميدان وانشغالها بعموميات ظاهرة الإعاقة قضايا فرعية أخرى في مجال الإعاقة تستحق الاهتمام والدراسة ومن بينها ظاهرة تعدد حالات الإعاقة لدى الأسرة الواحدة والعوامل التي ربما تقف وراء مثل هذا التعدد والنتائج التي تترتب عليه .

لقد لاحظ الباحث أثناء عمله مستشاراً للتأهيل الاجتماعي بمركز التأهيل الطبي للمعوقين بمدينة الرياض أن هناك (٣٢) أسرة من بين أسر المعوقين التي تتردد على المركز المذكور تعاني من تعدد حالات الإعاقة بين أطفالها فأثار ذلك في ذهن الباحث العديد من التساؤلات حول العوامل التي يمكن أن تقف خلف مثل هذه الظاهرة . لذلك قرر الباحث القيام بدراسة اجتماعية مقارنة بين تلك الأسر ومجموعة أخرى من الأسر المترددة على نفس المركز والتي لا يوجد لديها سوى طفل معوق واحد لمعرفة ما إذا كان هناك اختلاف بين هاتين المجموعتين في بعض الخصائص الاجتماعية والتي ربما تساعدنا في تفسير ظاهرة تعدد الإعاقة لدى المجموعة الأولى . فمشكلة تعدد حالات الإعاقة لدى الأسرة - من وجهة نظر الباحث - لا تحدث بمعزل عن تأثير بعض العوامل الاجتماعية .. وهذه هي الانطلاقة الأساسية التي بني عليها هذا البحث .

مشكلة الدراسة :

إذا علمنا أن إعاقة أحد أطفال الأسرة يمثل بحد ذاته حدثا مؤلما لأسرته فإن الأمر يبدو أكثر إيلاما حينما تجد الأسرة نفسها أمام واقع يفرض عليها التعامل مع أكثر من

طفل معوق في آن واحد . وبغض النظر عما يسببه تعدد حالات الإعاقة لدى الأسرة من آلام نفسيه وأعباء اقتصادية لأعضائها ، فإن الأسئلة الملحة هنا وتحتاج إلى إجابة هي : لماذا تتعدد حالات الإعاقة لدى بعض الأسر بينما لا تتعدد لدى البعض الآخر ؟ ، وهل تلعب العوامل الاجتماعية دوراً في حدوث ظاهرة التعدد هذه ؟ . إذن ، محور المشكلة التي تركز عليها هذه الدراسة هو تقصي نوعية وطبيعة العوامل الاجتماعية المرتبطة بتعدد حالات الإعاقة لدى الأسرة من خلال التركيز على الفروق بين الأسر التي تعاني من تعدد حالات الإعاقة والأخرى التي لا يوجد لديها سوى طفل معوق واحد .

أهمية الدراسة :

تكمن أهمية هذه الدراسة في كونها محاولة لكشف الدور الذي يمكن أن تلعبه بعض العوامل الاجتماعية في تعدد حالات الإعاقة لدى الأسرة السعودية ، حيث لم تنل قضية تعدد حالات الإعاقة اهتماماً كافياً ، بل يمكن القول أنها لم تنل أي إهتمام ، من قبل الباحثين الاجتماعيين في مجال الإعاقة . كذلك تنطوي هذه الدراسة على أهمية نظرية وتطبيقية ، فمن الناحية النظرية تعد هذه الدراسة محاولة لتدعيم التراث النظري عن الإعاقة والذي لازال يشكو من قصور في كثير من جوانبه ، ويأمل الباحث أن تسهم هذه الدراسة ولو بشكل جزئي في سد شيء من هذا القصور . أما من الناحية العملية فيأمل الباحث أن تساهم نتائج هذه الدراسة في توجيه الأسر والمخططين وصناع القرار في مجال الإعاقة إلى الظروف الاجتماعية التي يمكن أن تسهم في تعدد حالات الإعاقة لدى الأسرة والعمل على تلافي تلك الظروف أو تحسينها على أقل تقدير .

أهداف الدراسة :

تهدف هذه الدراسة إلى الإجابة عن التساؤلات التالية :

١- هل هناك اختلاف بين الأسر التي تعاني من تعدد حالات الإعاقة بين أطفالها والأسر التي لا يوجد لديها سوى طفل معوق واحد حسب الوضع الاقتصادي (الدخل الشهري وملكية المنزل) ؟

٢- هل هناك اختلاف بين الأسر التي تعاني من تعدد حالات الإعاقة بين أطفالها

والأسر التي لا يوجد لديها سوى طفل معوق واحد حسب الحالة التعليمية للوالدين ؟

٣- هل هناك اختلاف بين الأسر التي تعاني من تعدد حالات الإعاقة بين أطفالها والأسر التي لا يوجد لديها سوى طفل معوق واحد حسب العمر الزمني للوالدين ؟

٤- هل هناك اختلاف بين الأسر التي تعاني من تعدد حالات الإعاقة بين أطفالها والأسر التي لا يوجد لديها سوى طفل معوق واحد حسب العلاقة القرابية بين الوالدين ؟

٥- هل هناك اختلاف بين الأسر التي تعاني من تعدد حالات الإعاقة بين أطفالها والأسر التي لا يوجد لديها سوى طفل معوق واحد حسب حجم الأسرة ؟

مدخل نظري :

إن محاولة صياغة إطار نظري لظاهرة تعدد حالات الإعاقة لدى الأسرة تبدو عسيرة جدا في ظل غياب الدراسات السابقة حول هذا الموضوع . فالباحث لم يأل جهدا في سبيل الحصول على دراسات سابقة حول موضوع بحثه ولكنه لم يهتد إلى مثل تلك الدراسات .

وعلى الرغم من هذا فإنه من الأهمية بمكان عرض بعض التصورات عن التأثيرات التي يمكن أن تحدثها بعض العوامل الاجتماعية في الظاهرة موضع الدراسة . وحتى إذا كانت مسألة تعدد حالات الإعاقة مسألة بيولوجية صرفة فإنها بلا شك تتأثر ببعض العوامل الاجتماعية . فقد أثبتت الكثير من الدراسات التي تناولت قضايا بيولوجية شبيهة بقضيتنا هذه أنها تتأثر بالعوامل الاجتماعية والثقافية إلى جانب العوامل الوراثية بطبيعة الحال . فمثلاً ، توصل كل من شاندراسيكار (Chandrasekhar,1972: 189) وفرنزن وهوقان (Frenzen & Hogan, 1982) وكالدويل (Caldwell, 1979 : 396) ونور (Nur, 1983) ومور (Moore, 1980 : 122) وجراهام (Graham, 1983 : 8) والعبيدي (Al-Obeidy, 1985: 14-22) إلى أن معدلات وفيات الأطفال الرضع تتأثر بالعوامل الاجتماعية

والاقتصادية والثقافية للأسرة كالدخل الشهري للأسرة والمستوى التعليمي للوالدين ومهنة كل منهما وطبيعة العادات والتقاليد والاعتقادات التي يؤمنان بها .

وفي دراسة قام بها (الوليعي ، ١٩٩١) عن التوزيع الجغرافي للأمراض في المملكة العربية السعودية والعوامل المؤثرة في هذا التوزيع توصلت هذه الدراسة إلى أن العوامل الاجتماعية والاقتصادية مثل التعليم والمهنة والدخل الشهري ونوع المسكن والعمر والجنس والجنسية والحالة الزواجية وحجم الأسرة تلعب دوراً مؤثراً في نوع ومدى انتشار الأمراض التي يصاب بها الأفراد في المجتمع السعودي . وهذا بطبيعة الحال يؤكد أهمية العوامل الاجتماعية في الإصابة بالمرض ونوع هذا المرض ومدى انتشاره بالرغم من كون المرض ظاهرة بيولوجية في الأساس .

أيضاً توصل (الخطيب وآخرون ، ١٩٩٢ : ٥٥) ورابكين وسترونينج (Rabkin & Streuning, 1976:1013) و روسينبيرج (Rosenberg,1977) و تافورمينا وزملائه (Tavormina et al, 1975) و لي (Lee, 1979) إلى أن غالبية المعوقين ينتمون إلى أسر ذات مستويات اقتصادية منخفضة جدا ، وإلى آباء وأمهات ذوي مستويات تعليمية ومهنية منخفضة ، وإلى أسر ممتدة . كذلك توصل (الفوزان ، ١٤١٥ : ١٧ - ٢٥) إلى أن السلوك الاستقلالي لدى الأطفال المعوقين جسديا يتأثر ببعض العوامل الاجتماعية كحجم الأسرة ودخلها الشهري ومكان اقامتها والحالة التعليمية للوالدين وحالتهما الوظيفية وأعمارهما الزمنية .

عموماً ، نخلص مما سبق إلى أن بعض الظواهر البيولوجية تتأثر إلى حد كبير بالعوامل الاجتماعية المختلفة ، وظاهرة تعدد حالات الإعاقة لدى الأسرة ، موضع الدراسة في هذا البحث ، ليست حالة استثنائية . إذ يرى الباحث أنها لا تتم بمعزل عن تأثير بعض العوامل الاجتماعية كالمستوى الاقتصادي للأسرة والمستوى التعليمي للوالدين وحجم الأسرة والعلاقة القرابية بين الوالدين والعمر الزمني لهما والتي تمثل العوامل الاجتماعية المعنية في هذا البحث .

فبالنظر إلى علاقة الوضع الاقتصادي للأسرة (الدخل الشهري للأسرة وملكية

المنزل) بتعدد حالات الإعاقة لديها يمكن القول أن الإعاقة تتعدد بين الأسر ذات الأوضاع الاقتصادية المتردية ، حيث يرى (Al-Obeidy, 1985:15-16) أن الوضع الاقتصادي للأسرة يعد عاملا أساسيا في تحديد حالة المسكن الذي تقيم فيه الأسرة ونوع الخدمات الطبية التي تحصل عليها وكمية ونوع الغذاء الذي تتناوله . وتبعا لذلك فإن الأمهات الحوامل اللاتي ينتمين إلى أسر فقيرة لا يقدرن على توفير الكمية والنوعية الغذائية المطلوب تناولها أثناء الحمل الأمر الذي ربما يجعلهن عرضة لإنجاب أطفال إما ضعيفي البنية وناقصي الوزن أو ربما معوقين . أيضاً يلعب الوضع الاقتصادي للأسرة دوراً مهما في توفير الخدمات الطبية لأفراد الأسرة ، فالأسر الفقيرة ربما تنجب أطفالا معوقين لأنها لا تستطيع أن تتحمل دفع مصاريف الحماية الطبية الضرورية للأم أثناء فترة الحمل والتي لو توفرت لأمكن للأسرة أن تتفادى ولادة أطفال معوقين .

وبالنسبة لعلاقة الحالة التعليمية للوالدين بتعدد حالات الإعاقة لدى الأسرة يمكن القول أن التعليم يرتبط بالمعرفة الرئيسية لكيفية تجنب تعدد الإعاقات من قبل الوالدين . فالوالدان المتعلمان أكثر قبولا من غير المتعلمين للأفكار الجديدة التي تمكنهما من تفادي ولادة طفل معوق أو على الأقل تجنب تكرار حدوث مثل هذه الولادة في المستقبل . ومما لاشك فيه أن قدرة الوالدين المتعلمين على الإطلاع وقراءة الجرائد والمجلات المتخصصة وغير المتخصصة في مجال الإعاقة تساعدهما على تجنب الأسباب التي يمكن أن تؤدي إلى إنجاب أكثر من معوق . كذلك ينعكس المستوى التعليمي للوالدين على تقبل الوالدين لأنماط سلوكية جديدة يمكن أن تحد من تعدد حالات الإعاقة لديهما كتنظيم عملية الإنجاب وإدراك أهمية تطعيم الأطفال في مراحلهم العمرية المبكرة . أما الوالدان غير المتعلمين فيرى (Alsoghair, 1992:22) أنهما « عادة أكثر التزاما بالقيم والمعايير التقليدية السائدة في المجتمع » والتي يمكن أن تسهم في تعدد حالات الإعاقة لديهما كرفض تنظيم النسل والزواج من الأقارب والتذرع بدعاوي القضاء والقدر في عدم اتخاذ الإجراءات الكفيلة بمنع وقوع الإعاقة وربما تعددها .

وبخصوص علاقة حجم الأسرة بتعدد حالات الإعاقة لديها يمكن النظر إليها من زاوية أن زيادة عدد الأطفال في الأسرة يزيد من خطورة إصابتهم بالإعاقات المختلفة لأن رعاية واهتمام الوالدين في مثل هذه الحالة سوف تمتد إلى عدد كبير من الأطفال . وفي الجانب الآخر قد تؤدي الفترات القصيرة بين حالات الحمل عند الأم إلى انعكاسات سلبية على صحة الجنين مما يزيد من احتمال ولادة أكثر من طفل معوق لدى الأسرة . ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن صغر حجم الأسرة ربما يمثل بحد ذاته مؤشرا يعكس وعي الوالدين بأهمية تنظيم الحمل والولادة وتجنب احتمالات إصابة مزيد من أطفالهما بالإعاقة .

وبالنسبة للعلاقة القرابية بين الوالدين وعلاقتها بتعدد حالات الإعاقة لدى الأسرة فقد تبين من نتائج دراسة قام بها (الطريقي وآخرون ، ١٩٩٣) أن جميع الأطفال المعوقين شديدي الإعاقة ينتمون الى آباء وأمهات تربطهم علاقات قرابية . فالعوامل الوراثية تلعب دورا مهما في حدوث الإعاقة وتعددها لدى الأسر التي يرتبط فيها الزوجان بعلاقة قرابية .

أما علاقة أعمار الوالدين بتعدد حالات الأعاقة لدى الأسرة فيمكن تصورها من جهتين . فمن جهة ترتفع درجة الخصوبة لدى الوالدين في مراحلها العمرية المبكرة الأمر الذي قد يتنج عنه ازدياد في حالات الحمل والولادة لدى الأم فينعكس ذلك على صحة الجنين وتتكرر ولادة أطفال معوقين أو مشوهين . ومن جهة أخرى ربما يؤدي الضعف في صحة الوالدين والوهن في قدراتهما الجسمانية في مراحلهما العمرية المتأخرة إلى انجابهما أطفالاً إما ناقصي النمو أو معوقين ، وربما أدى ذلك إلى تعدد حالات الإعاقة لدى الأسرة . ونظراً لعدم توفر دراسات سابقة يمكن الاستناد إلى نتائجها لتحديد طبيعة العلاقة بين أعمار الوالدين وتعدد حالات الإعاقة لدى الأسرة فإن البحث يعول على نتائج هذه الدراسة في تحديد طبيعة واتجاه هذه العلاقة .

الإجراءات المنهجية :

قامت هذه الدراسة أساساً للتعرف على دور بعض العوامل الاجتماعية في تعدد

حالات الإعاقة لدى الأسرة السعودية . لذا فإن أسر الأطفال المعوقين تمثل وحدة التحليل في هذه الدراسة . وقد جاء اختيار أسر الأطفال المعوقين للتحليل متمشيا مع إنطلاقة هذا البحث الأساسية من أن ظاهرة تعدد حالات الإعاقة ترتبط إلى حد كبير بالظروف الاجتماعية لتلك الأسر .

مجتمع وعينة البحث :

تمثل أسر الأطفال المعوقين التي تتردد على مركز التأهيل الطبي بمدينة الرياض التابع لوزارة الصحة المجتمع الأصلي لهذه الدراسة . أما عينة البحث فقد بلغت (١١٢) أسرة تم اختيارها على النحو التالي :

١- الأسر التي تعاني من تعدد حالات الإعاقة : تم اختيار جميع الأسر التي كانت تعاني من تعدد حالات الإعاقة بين أطفالها وتتردد على مركز التأهيل الطبي ، وقد بلغ عددها (٣٢) أسرة ، وتمثل هذه الأسر العينة المتاحة لأغراض الدراسة .
٢- الأسر التي لا يوجد لديها سوى طفل معوق واحد : اعتمد الباحث على أرقام ملفات الأطفال المعوقين المتوفرة لدى المركز واختار عينة عشوائية من بين الأسر التي لديها طفل معوق واحد فقط ، وبلغ مجموع هذه العينة (٨٠) أسرة ، وتمثل هذه الأسر العينة محور المقارنة مع العينة الأولى .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الباحث صمم إستبياناً لهذا الغرض احتوى على مجموعة من الأسئلة ذات العلاقة بموضوع البحث واستقى البيانات اللازمة للإجابة على تساؤلات البحث إما عن طريق الأطفال المعوقين القادرين على الإدلاء بالبيانات اللازمة لهذا البحث أو عن طريق أحد أفراد أسرهم المصاحبين لهم (الأب - الأم - الأخ - الأخت) في حالة عجزهم عن ذلك إما لصغر سنهم أو شدة إعاقتهم .

التعريف الإجرائي للمتغيرات :

تنقسم متغيرات هذه الدراسة إلى قسمين :

أ - المتغير التابع : وهو ما ترمي هذه الدراسة إلى تفسيره ، ويتمثل في كون الأسرة

تعاني من تعدد حالات الإعاقة بين أطفالها أم لا . وقد اعتبر الباحث الأسر التي لا يوجد لديها سوى طفل معوق واحد أنها لا تعاني من تعدد حالات الإعاقة . أما الأسر التي يوجد لديها أكثر من طفل معوق فتمثل الأسر التي تعاني من تعدد حالات الإعاقة وتلك التي لا تعاني من ذلك وهي على النحو التالي :

١- الدخل الشهري للأسرة : ويتمثل في المجموع الكلي لقيمة دخل الأسرة الشهري بالريال السعودي .
٢- ملكية السكن من حيث كونه ملكا للأسرة أو مستأجراً .
٣- الحالة التعليمية للأم من حيث كونها أمية أو متعلمة .
٤- الحالة التعليمية للأب من حيث كونه أمياً أو متعلماً .
٥- حجم الأسرة ، ويتمثل في عدد أفراد الأسرة المقيمين في نفس المسكن .
٦- العلاقة القرابية بين الوالدين من حيث كونهما يرتبطان بعلاقة قرابية أم لا .
٧- عمر الأب ، ويتمثل في العمر الزمني للأب (أي عدد السنوات التي عاشها الأب حتى لحظة تطبيق استمارة البحث) .
٨- عمر الأم ، ويتمثل في العمر الزمني للأم (أي عدد السنوات التي عاشتها الأم حتى لحظة تطبيق الاستمارة) .

التحليل والنتائج :

تسعى هذه الدراسة كما ذكرنا آنفا إلى الإجابة على التساؤلات الواردة في أهداف الدراسة أعلاه . ومن أجل تحقيق ذلك استخدم الباحث التحليل ثنائي الارتباط الذي أسهم في التعرف على ما إذا كانت هناك إختلافات جوهرية بين الأسر التي تعاني من تعدد حالات الإعاقة ونظيراتها ممن لا تعاني من مثل هذا التعدد حسب المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية كل على حدة . وللحكم على دلالة العلاقة بين المتغيرات المستقلة والمتغير التابع من الناحية الإحصائية استخدم الباحث مستوى الدلالة (٠٥ر) . وقد تم إعداد الجدول رقم (١) الذي يوضح توزيع أسر المعوقين حسب حالتها من حيث كونها تعاني من تعدد حالات الإعاقة بين أطفالها أو أنها لا تعاني من التعدد

(أي لا يوجد لديها سوى طفل معوق واحد) ، وحسب فئات المتغيرات المستقلة في هذه الدراسة .

جدول رقم (١)

توزيع أسر المعوقين حسب تعدد حالات الإعاقة وحسب المتغيرات المستقلة

المتغيرات المستقلة	فئات المتغيرات المستقلة	تعاني من تعدد حالات الإعاقة %	لا تعاني %	المجموع	كاي تربيع	مستوى الدلالة
دخل الأسرة الشهري	أقل من ٥٠٠٠	٦٠ر٦	٣٩ر٤	٣٣	٢٠ر٤	
	٥٠٠٠-٩٩٩٠	٣٤ر٨	٦٥ر٢	٢٣		
	١٠٠٠٠ فأكثر	-	١٠٠	٢١		
ملكية السكن	ملك	١٤ر٥	٨٥ر٥	٥٥	١٣ر٨	ر٠٠٠٥
	مستأجر	٤٨	٥٢	٥٠		
حالة الأب التعليمية	أمي	٤٧ر١	٥٢ر٩	٣٤	٦ر٢	٠ر٠٢
	متعلم	٢١ر٨	٨٧ر٢	٥٥		
حالة الأم التعليمية	أمية	٤٥ر٥	٥٤ر٥	٤٤	٦ر٨	ر٠١
	متعلمة	١٩	٨١	٤٢		
حجم الأسرة	أقل من ٥ أفراد	٢٦ر٧	٧٣ر٣	٣٠	ر٥١٩	ر٧٤
	من ٥ إلى ١٠ أفراد	٣٤ر٨	٦٥ر٢	٤٦		
	أكثر من ١٠ أفراد	٢٩ر٦	٧٠ر٤	٢٧		
علاقة الوالدين القرابية	أقرباء	٤٥ر٩	٥٤ر١	٦١	١٦ر٨	ر٠٠٠١
	غير أقرباء	٨ر٩	٩١ر١	٤٥		
عمر الأب	أقل من ٣٠ سنة	٦٩	٣١	٣٣	٢٠ر٤	ر٠٠٠٠
	من ٣٠ إلى ٤٠ سنة	-	١٠٠	٢٣		
	أكثر من ٤٠ سنة	٢٥	٧٥	٢١		
عمر الأم	أقل من ٣٠ سنة	٦٢ر٥	٣٧ر٥	٣٢	٢١ر٤	ر٠٠٠٠
	من ٣٠ إلى ٤٠ سنة	-	١٠٠	١٦		
	أكثرمن ٤٠ سنة	٢٣ر٥	٧٦ر٥	٣٤		

بالتمعن في الجدول رقم (١) نلاحظ أن الأسر التي تعاني من تعدد حالات الإعاقة تقف على طرفي نقيض مع الأسر التي لا يوجد لديها سوى معوق واحد في جميع المتغيرات المستقلة ، حيث يختلف النوعان من الأسر في جميع تلك المتغيرات المستقلة ، إلا أن كمية التباين أو الاختلاف بين هذين النوعين من الأسر تختلف بطبيعة الحال من متغير مستقل إلى آخر وفقا لأهمية المتغير المستقل نفسه .

ففيما يتعلق بالوضع الاقتصادي والمتمثل في الدخل الشهري للأسرة وملكيتها للمنزل نلاحظ من البيانات الواردة في الجدول انخفاض المستوى الاقتصادي للأسر التي تعاني من تعدد حالات الإعاقة مقارنة بالأسر التي لا يوجد لديها سوى معوق واحد . إذ نلاحظ أن تعدد حالات الإعاقة لدى الأسرة يرتبط بانخفاض مستويات الدخل الشهري للأسرة ، حيث أن نسبة الأسر التي يوجد لديها أكثر من طفل معوق ترتفع تدريجيا مع انخفاض مستوى الدخل الشهري للأسرة . فقد اتضح من الجدول أعلاه أن نسبة كبيرة من الأسر التي يقل دخلها عن ٥٠٠٠ ريال هي من الأسر التي تعاني من تعدد حالات الإعاقة ، حيث بلغت نسبتها (٦٠,٦٪) ، ثم تتناقص هذه النسبة تدريجيا كلما ارتفع مستوى الدخل الشهري لتصل إلى (٣٤,٨٪) في فئة الدخل (٥٠٠٠ - ٩٩٩٠) ، وإلى (صفر) في فئة الدخل (١٠٠٠٠ فأكثر) . وعلى النقيض من ذلك نلاحظ أن الأسر التي لا يوجد لديها سوى معوق واحد تتميز بوضع اقتصادي أفضل من الأسر التي تتعدد لديها حالات الإعاقة ، حيث ترتفع نسبة تلك الأسر بارتفاع مستوى الدخل الشهري إذ بلغت نسبتها (١٠٠٪) في فئة الدخل (١٠٠٠٠ فأكثر) وتتناقص هذه النسبة لتصل إلى (٦٥,٢٪) في فئة الدخل (٥٠٠٠-٩٩٩٠) ، وإلى (٣٩,٤٪) في فئة الدخل (أقل من ٥٠٠٠) . وبناءا على ما سبق ذكره واستنادا إلى قيمة مربع كاي (٢٠,٤) ومستوى الدلالة الإحصائية (٠٠٠,) يمكن القول أن هناك فروقا ذات دلالة إحصائية بين الأسر التي تتعدد لديها حالات الإعاقة والأسر التي لا يوجد لديها سوى طفل معوق واحد في مستوى الدخل الشهري .

وبالنظر إلى المؤشر الاقتصادي الآخر في هذه الدراسة (ملكية المنزل) يتبين من نتائج هذه الدراسة أن نسبة قليلة جدا من الأسر التي تمتلك المنزل الذي تقيم فيه هي من الأسر التي تعاني من تعدد حالات الإعاقة ، إذ بلغت هذه النسبة (٥ر١٤٪) فقط مقارنة بـ (٤٨٪) للأسر المستأجرة للمساكن التي تعيش فيها . وعلى النقيض من ذلك نجد أن غالبية الأسر التي تعيش فيها . وعلى النقيض من ذلك نجد أن غالبية الأسر التي لا يوجد لديها سوى معوق واحد تملك المساكن التي تقيم فيها إذ بلغت نسبتها (٥ر٨٥٪) مقارنة بـ (٥٢٪) للأسر المستأجرة . وبما أن ملكية السكن تمثل واحدة من مؤشرات الوضع الاقتصادي للأسرة فإن نتائج هذه الدراسة تشير إلى أن الأسر التي لا تعاني من تعدد حالات الإعاقة تتميز بوضع اقتصادي أفضل من الأسر التي تعاني من تعدد حالات الإعاقة ، حيث تمتلك نسبة كبيرة جدا من النوع الأول من الأسر المساكن التي تعيش فيها بينما نسبة ضئيلة جدا من النوع الثاني من الأسر تمتلك المساكن التي تقيم فيها . واعتمادا على قيمة مربع كاي (٨ر١٣) ومستوى الدلالة الإحصائية (٠٠٥ر) يمكن القول إن هناك فروقا جوهرية ذات دلالة إحصائية في ملكية المنزل بين الأسر التي تعاني من تعدد حالات الإعاقة والأسر التي لا تعاني من تعدد حالات الإعاقة لصالح الأخيرة . فالأسر ذات الأوضاع الاقتصادية المرتفعة تجد نفسها في ظروف بيئية وصحية وغذائية أفضل من ظروف الأسر الفقيرة ، حيث تستطيع الأسر الغنية توفير المسكن الملائم والخدمات الصحية والظروف البيئية والغذائية الكفيلة بعدم تكرار حدوث الإعاقة بين أطفالها بينما تظل الأسر الفقيرة عاجزة عن تحقيق ذلك .

وبالنسبة لعلاقة الحالة التعليمية للوالدين بتعدد حالات الإعاقة لدى الأسرة يتبين من البيانات الواردة في الجدول أن نسبة الأسر التي تعاني من تعدد حالات الإعاقة ترتفع عندما يكون الأب أميا حيث بلغت هذه النسبة (١ر٤٧٪) وتقل هذه النسبة كلما كان الأب متعلما لتصل إلى (٨ر٢١٪) . والشيء نفسه ينطبق على الحالة التعليمية للأم إذ ترتفع نسبة الأسر التي تعاني من تعدد حالات الإعاقة حين تكون الأم أمية (٥ر٤٥٪) ، بينما تقل هذه النسبة عندما تكون الأم متعلمة ، حيث بلغت

(١٩٪) فقط . وعلى النقيض من ذلك نجد أن نسبة الأسر التي لا تعاني من تعدد حالات الإعاقة ترتفع حين يكون الأب والأم متعلمين (٨٧٫٢٪) و (٨١٪) ، بينما تقل هاتان النسبتان حين يكونا غير متعلمين إذ بلغتا (٣٤٪) للأب و (٥٤٫٥٪) للأم . وبالاستناد إلى قيمة مربع كاي ومستوى الدلالة الإحصائية لكل من حالة الأب التعليمية (٢٠٫٦) و (٠٫٠٢) وحالة الأم التعليمية (٨٢٫٦) و (٠٫٠١) يمكن القول أن هناك فروقا ذات دلالة إحصائية بين الأسر التي تعاني من تعدد حالات الإعاقة وتلك الأسر التي لا تعاني من تعدد حالات الإعاقة حسب الحالة التعليمية للوالدين . فبينما نجد أن غالبية الأسر التي تعاني من تعدد حالات الإعاقة هي من الأسر التي يكون فيها الوالدان أميين ، نجد أن غالبية الأسر التي لا تعاني من تعدد حالات الإعاقة هي من الأسر التي يكون فيها الوالدان متعلمين . وبناء على ما سبق ذكره يمكن القول إن الأسر التي تعاني من تعدد حالات الإعاقة تتميز بانخفاض المستوى التعليمي للوالدين مقارنة بالأسر التي لا يوجد لديها سوى طفل معوق واحد . فالآباء والأمهات المتعلمون يكونون عادة أكثر قدرة على الإطلاع وقراءة الجرائد والمجلات المتخصصة في مجال الإعاقة لمعرفة الطرق والإجراءات الكفيلة بمنع تكرار حدوث الإعاقة بين أطفالهم . كما يمكنهم الإستفادة من معارف الآخرين وتجاربهم وخبراتهم التي تساعدهم على مجابهة العوامل والظروف التي يمكن أن تؤدي إلى تكرار وقوع الإعاقة بين أطفالهم بعكس الآباء والأمهات غير المتعلمين الذين قد يجدون أنفسهم عاجزين عن ذلك .

أما بالنسبة لعلاقة حجم الأسرة بتعدد حالات الإعاقة لدى الأسرة نلاحظ من البيانات الواردة في الجدول أن نسبة الأسر التي تعاني من تعدد حالات الإعاقة ترتفع بين الأسر التي يتراوح عدد أفرادها ما بين ٥ إلى ١٠ أشخاص ، حيث بلغت هذه النسبة (٣٤٫٨٪) ، ثم بدأت هذه النسبة تتناقص على التوالي في الفئتين (أكثر من ١٠ أفراد) و (أقل من ٥ أفراد) لتصل إلى (٢٩٫٦٪) في الفئة الأولى و (٢٦٫٧٪) في الفئة الأخيرة . وفي الجانب الآخر نلاحظ أن الأسر التي لا تعاني من تعدد حالات الإعاقة ترتفع نسبتها في الفئة (أقل من ٥ أفراد) ثم تتناقص هذه النسبة في الفئتين (من ٥ - ١٠ أفراد) و (أكثر من ١٠ أفراد) لتصل في الأولى

إلى (٢ر٦٥٪) و (٤ر٧٠٪) في الفئة الأخيرة . وعلى الرغم من هذا التفاوت بين هذين النوعين من الأسر تبعاً لحجم الأسرة إلا أن قيمة مربع كاي (٥١٩ر) ومستوى الدلالة الإحصائية (٧٤ر) تشيران إلى عدم دلالة هذا التفاوت إحصائيا . وتبعا لذلك يمكن القول إن حجم الأسرة لا يمثل عاملا مهما في تعدد حالات الإعاقة لدى الأسرة السعودية .

وبالنظر إلى العلاقة بين العلاقة القرابية للوالدين وتعدد حالات الإعاقة يتضح من البيانات الواردة في الجدول أعلاه أن هناك إرتباطا وثيقا بين هذين المتغيرين ، إذ ترتفع نسبة الأسر التي تعاني من تعدد حالات الإعاقة بين الأسر التي يرتبط فيها الوالدان بعلاقة قرابية ، حيث بلغت هذه النسبة (٩ر٤٥٪) مقارنة بـ (٩ر٨٪) للأسر التي لا يرتبط فيها الوالدان بعلاقة قرابية . وعلى النقيض من ذلك نجد أن نسبة الأسر التي لا يوجد لديها سوى طفل معوق واحد ترتفع بين الأسر التي لا يرتبط فيها الوالدان بعلاقة قرابية ، حيث بلغت هذه النسبة (١ر٩١٪) مقارنة بـ (١ر٥٤٪) للأسر التي يرتبط فيها الوالدان بعلاقة قرابية . واستنادا إلى قيمة مربع كاي (٨ر١٦) ومستوى الدلالة الإحصائية (٠٠١ر) يتضح أن هناك فروقا ذات دلالة إحصائية بين الأسر التي تتعدد لديها حالات الإعاقة والأسر التي لا تعاني من تعدد حالات الإعاقة تبعا للعلاقة القرابية بين الوالدين . ووفقا لهذه النتيجة يمكن القول إن العلاقة القرابية بين الوالدين تلعب دوراً هاما ومؤثرا في انتقال الصفات الوراثية إلى الأطفال مما قد ينتج عنه حدوث الإعاقة وتكرارها لدى الأسرة .

وفيما يتعلق بعلاقة عمر الأب بتعدد حالات الإعاقة فإن الملاحظ من بيانات الجدول أعلاه ارتفاع نسبة الأسر التي تعاني من تعدد حالات الإعاقة في الفئة العمرية للأب (أقل من ٣٠ سنة) حيث بلغت هذه النسبة (٦٩٪) ، ثم وصلت هذه النسبة إلى مستوى الصفر في الفئة العمرية للأب (من ٣٠ إلى ٤٠ سنة) لتبدأ في الارتفاع من جديد في الفئة العمرية للأب (أكثر من ٤٠ سنة) . وعلى النقيض من ذلك نجد أن الأسر التي لا يوجد لديها سوى معوق واحد ترتفع نسبتها (١٠٠٪) في الفئة العمرية للأب (من ٣٠ إلى ٤٠ سنة) ثم تنخفض هذه النسبة إلى (٧٥٪) فى

الفئة العمرية للأب (أكثر من ٤٠ سنة) لتصل إلى أدنى مستوياتها (٣١٪) في الفئة العمرية للأب (أقل من ٣٠ سنة) وبالرجوع إلى قيمة مربع كاي (٤ر٢٠) ومستوى الدلالة الإحصائية (٠٠٠ر) نجد أن الفروق في أعمار الآباء بين الأسر التي تتعدد لديها حالات الإعاقة والأسر التي لا تتعدد لديها حالات الإعاقة دالة إحصائياً . فالأسر التي تعاني من تعدد حالات الإعاقة تتميز بصغر سن الآباء مقارنة بالأسر التي تعاني من تعدد حالات الإعاقة . وقد يرجع ذلك إلى ارتفاع معدلات الخصوبة لدى الآباء في مراحلهم العمرية المبكرة وما ينتج عن ذلك من ارتفاع في معدلات الحمل والولادة لدى الأمهات الأمر الذي يزيد من احتمال تعدد حالات الإعاقة بين أطفالهم .

وما ينطبق على علاقة عمر الأب بتعدد حالات الإعاقة ينطبق على علاقة عمر الأم بتعدد حالات الإعاقة أيضا ، إذ تبين من البيانات الواردة في الجدول ارتفاع نسبة الأسر التي تعاني من تعدد حالات الإعاقة (٥ر٦٢٪) في الفئة العمرية للأم (أقل من ٣٠ سنة) ، ثم وصلت هذه النسبة إلى الصفر في الفئة العمرية للأم (من ٣٠ - ٤٠ سنة) ، لتبدأ في الارتفاع في الفئة العمرية للأم (أكثر من ٤٠ سنة) نحيث بلغت النسبة (٥ر٢٣٪) . وعلى النقيض من ذلك نجد أن نسبة الأسر التي لا يوجد لديها سوى معوق واحد ترتفع في الفئة العمرية للأم (من ٣٠ - ٤٠ سنة) إذ بلغت هذه النسبة (١٠٠٪) ، ثم تقلصت هذه النسبة لتصل إلى (٥ر٧٦٪) في الفئة العمرية للأم (أكثر من ٤٠ سنة) وإلى (٥ر٣٧٪) في الفئة العمرية للأم (أقل من ٣٠ سنة) . وتبعا لقيمة مربع كاي (٤ر٢١٪) ومستوى الدلالة الإحصائية (٠٠٠ر) فإن الفروق في أعمار الأمهات بين الأسر التي تعاني من تعدد حالات الإعاقة والأسر التي لا يوجد لديها سوى معوق واحد دالة إحصائيا . فالأسر التي تتعدد لديها حالات الإعاقة تتميز بصغر سن الأمهات مقارنة بالأسر التي لا يوجد لديها سوى معوق واحد.

إن ارتباط تعدد حالات الإعاقة لدى الأسرة بصغر سن الوالدين أمر يصعب تفسيره ، ولكن ربما أدى إرتباط هذه المرحلة العمرية (أقل من ٣٠ سنة) لكلا الوالدين بإرتفاع درجة الخصوبة وتعدد حالات الحمل والولادة من قبل الأم إضافة إلى ضعف المستوى الاقتصادي للزوجين في مثل هذه المرحلة العمرية المبكرة من عمريهما

إلى تعدد حالات الإعاقة بشكل يفوق بقية الفئات العمرية الأخرى التي تشهد عادة انخفاضا في مستوى الخصوبة لدى الوالدين وتحسنا في الأوضاع الاقتصادية للأسرة مما ينعكس إيجابا على أوضاع الأسرة سكنيا ، وغذائيا ، وصحيا ، ومن ثم تنحسر إمكانية تعدد حالات الإعاقة بين أطفالها . وقد يكون للزواج المبكر أثره في تعدد حالات الإعاقة لدى الأسرة نتيجة عدم وعي الزوجين بالشروط الضرورية لسلامة الجنين وصحة الطفل أثناء وبعد الولادة .

الخلاصة :

سبقت الإشارة إلى أن هذه الدراسة هدفت إلى التعرف على العوامل الاجتماعية المرتبطة بتعدد حالات الإعاقة لدى الأسرة السعودية وذلك من خلال مقارنة مجموعة من الأسر التي تعاني من تعدد حالات الإعاقة بين أطفالها بمجموعة أخرى من الأسر التي لا يوجد لديها سوى طفل معوق واحد . وقد أظهرت نتائج الدراسة أن من أهم المتغيرات الاجتماعية ارتباطا بتعدد حالات الإعاقة ما يلي :

١- الوضع الاقتصادي للأسرة (الدخل الشهري وملكية المنزل) : حيث تبين من نتائج هذه الدراسة أن الأسر التي تعاني من تعدد حالات الإعاقة تتميز بانخفاض أوضاعها الاقتصادية مقارنة بالأسر التي لا تعاني من تعدد حالات الإعاقة (أي يوجد لديها طفل معوق واحد) . فبينما نجد أن غالبية الأسر التي لا تعاني من تعدد حالات الإعاقة بين أطفالها تتسم بدخول شهرية مرتفعة وتمتلك المساكن التي تقيم فيها ، نجد أن غالبية الأسر التي تعاني من تعدد حالات الإعاقة بين أطفالها تتسم بدخول شهرية ضعيفة وتستأجر المساكن التي تقيم فيها .

٢- الحالة التعليمية للوالدين : حيث تبين من نتائج الدراسة أن الأسر التي تعاني من تعدد حالات الإعاقة بين أطفالها تتميز بانخفاض المستويات التعليمية للوالدين مقارنة بالأسر التي لا يوجد لديها سوى طفل معوق واحد . فبينما نجد أن غالبية الأسر التي تتعدد لديها حالات الإعاقة يكون فيها الوالدان أميين ، نجد أن

غالبية الأسر التي لا تعاني من تعدد حالات الإعاقة يكون فيها الوالدان متعلمين.

٣- العلاقة القرابية بين الوالدين : حيث تبين من نتائج هذه الدراسة أن الأسر التي تتعدد لديها حالات الإعاقة تتميز بوجود علاقة قرابية بين الوالدين بشكل يفوق الأسر التي لا تعاني من تعدد حالات الإعاقة . فبينما نجد أن غالبية الأسر التي تتعدد لديها حالات الإعاقة يرتبط فيها الوالدان بعلاقة قرابية ، نجد أن غالبية الأسر التي لا تعاني من تعدد حالات الإعاقة لا يرتبط فيها الوالدان بأية علاقة قرابية .

٤- العمر الزمني للوالدين : حيث تبين من نتاذج الدراسة أن الأسر التي تعاني من تعدد حالات الإعاقة بين أطفالها تتميز بصغر سن الوالدين (أقل من ٣٠ سنة) مقارنة بالأسر التي لا يوجد لديها سوى طفل معوق واحد . فبينما نجد أن غالبية الأسر التي تتعدد لديها حالات الإعاقة تقل فيها أعمار الوالدين عن ٣٠ سنة ، نجد أن غالبية الأسر التي لا تتعدد لديها حالات الإعاقة تزيد فيها أعمار الوالدين عن ٣٠ سنة ، وخاصة في الفئة العمرية (من ٣٠ - ٤٠ سنة) .

أما بالنسبة لعلاقة حجم الأسرة بتعدد حالات الإعاقة لديها فإنه على الرغم من أهميته في تفسير ظاهرة تعدد حالات الإعاقة إلا أنه لم يحرز المستوى المطلوب للدلالة الإحصائية في علاقته بها . فتعدد حالات الإعاقة يمكن أن يقع لدى الأسرة بغض النظر عن حجمها .

ومن كل ما سبق يمكن القول إن الأوضاع الاقتصادية والحالة التعليمية للوالدين وأعمارهما الزمنية والعلاقة القرابية بينهما تلعب دوراً مؤثرا في تعدد حالات الإعاقة لدى الأسرة السعودية .

المراجع

المصادر العربية :

١- الخطيب ، جمال ؛ الحديدي ، منى ؛ السرطاوي ، عبد العزيز : ١٩٩٢ ، إرشاد أسر الأطفال ذوي الحاجات الخاصة : قراءات حديثة ، دار حنين ، عمان - الأردن.

٢- بو حيمد ، منال : ١٩٨٣ ، المعوقون ، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ، الكويت .

٣- الطريقي ، محمد ؛ الفوزان ، عبد الله ؛ الفلاحي ، ليث : ١٤١٣هـ ، الخصائص الشخصية والأسرية والطبية للمعوقين شديدي الإعاقة ، المؤتمر العالمي الأول للجمعية الخيرية السعودية لرعاية الأطفال المعاقين ، الرياض - المملكة العربية السعودية .

٤- الفوزان ، عبد الله : ١٩٩٥ ، السلوك الاستقلالي للمعوقين جسديا وعلاقته ببعض المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والديموغرافية للمعوق وأسرته : دراسة ميدانية على عينة من الأطفال المعوقين جسديا بمدينة الرياض ، مؤتمر الخدمة الاجتماعية ، الفيوم - جمهورية مصر العربية .

٥- الوليعي ، عبد الله بن ناصر : ١٩٩١ ، التوزيع الجغرافي للأمراض في المملكة العربية السعودية والعوامل المؤثرة في هذا التوزيع مع إشارة خاصة لمنطقة إمارة الرياض ومدينة الرياض : دراسة تحليلية وميدانية في الجغرافيا الطبية ، مركز أبحاث مكافحة الجريمة ، وزارة الداخلية ، الرياض - المملكة العربية السعودية .

٦- فهمي ، محمد : ١٩٨٣ ، السلوك الاجتماعي للمعوقين : دراسة في الخدمة الاجتماعية ، المكتب الجامعي الحديث ، جامعة الاسكندرية .

المصادر الإنجليزية :

- AL-Obeidy, Ibrahim. 1985, The Incidence of Infant Mortality in A Sample of Households in Riyadh, Saudi Arabia. Ph. d Dissertation, Michigan State University.
- Alsoghair, Saleh. 1992, Family Factors Affecting Perceptions of

Saudi High School Students About Individual Modernity. A Master thesis, Colorado State University

- Caldwell, J.C.1979. Education as a Factor in Mortality Decline : An Examination of Nigerian Data. Population Studies 33(3): 395-413.
- Chandrasekhar, S. 1972. Infant Mortality, Population Growth and Family Planing in India. London : George Allen and Unwin, Ltd.
- Frenzen, P.D., & Hogan, D.P.1982. The Impact of Class, Education, and Health Care on Infant Mortality in a Developing Society : The Case of Rural Thailand. Demography 19 (3) : 391-40.
- Graham, V. 1983. Murders of Girl Babies on Rise in China. The State News, East Lansing, Michigan, Feb.22.
- Lee, G. 1979, Effects of Social networks on the family. In W.R.Burr, R, Hill, R,I,Nye & I.L. Reiss (eds) contemporary theories about the family : research based theories, (vol.1), New York : free press.
- Moore, L.G., et al. 1980. The Cultural Basis of Health. St. Louis : The C.V. Mosby Company.
- Nur, O.E.M. 1983. Infant and child Mortality and Its Effect on Reproductive Behaviour in the Nothern Provinces of Sudan: Summary and Policy Implications. Population Studies Center Faulty of Economic and Rural Development, University of Gezira.
- Rabkin, J.G.& Streuning, E.L. 1976, Live events, stress, and

illness. 194 Science, (3). pp.1013-1020.

- Rosenberge, S.A. 1977, Family and parents variables affecting outcomes of parents - mediated intervention. Unpublished doctoral dissertation, goerge peabody college for teachers.
- Tavormina, J.B., Boll, T. J, Dunn, N. J, Luncomb, R., & Taylor, J. 1975. Psychological effects of raising a physically handicapped child on parents. Paper presented at the meeting of American Psycological Association : Chicago.

المرأة العربية ودورها في الإنتاج

دراسات ريفية - حضرية مقارنة

د. عفاف عبد العليم إبراهيم ناصر

معهد البحر المتوسط - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

مقدمة :

إن توزيع العمل بين الرجل والمرأة على أساس البيت وخارج البيت من الأمور القديمة والحديثة في المجتمع الإنساني . ويخضع هذا التوزيع إلى نوع من التوازن المجتمعي ومجموعة القيم الاجتماعية والثقافية . والملاحظ أن التوازن المجتمعي الجديد مرتبط باقتصاديات السوق وهذا يقتضي اتاحة الفرصة لكافة الموارد البشرية - ذكوراً وإناثاً - لمواجهة تحديات التنمية وتأهيل القوى البشرية للمشاركة المنتجة والفعالة .

لقد أصبح من الضروريات القومية لتحقيق تنمية حقيقية هو أن يعمل المخططون على ربط المرأة بالاقتصاد والانتاج ، وكذلك العمل على تقليل الهوة بين عطاء العمل (بما في ذلك العمل المنزلي للمرأة) والمردود الاقتصادي (الدخل) والاجتماعي (المكانة) من جهة أخرى . فالنساء يمثلن نصف القوى البشرية ، ويؤدين الثلثين من اجمالي ساعات العمل التي يؤديها الرجال . ولكن الملاحظ أن دخلهن يساوي ١٠٪ من دخل العالم الكلي ولا يمتلكن سوى ١٪ من العقارات في العالم . اذن ، هناك مشكلة عالمية وهي التحيز المهني على أساس النوع ، وهذا يقتضي اعادة النظر في نظام تقسيم العمل القائم على النوع .

وأصبحت من الأمور المسلم بها الآن لصناع التنمية أن هناك وضعية اجتماعية معينة مازالت أقوى من الجانب الاقتصادي البحت وهي ممثلة في دور المرأة - كأم - أي الدور البيولوجي والتربوي للمرأة في رعاية أطفالها . وهذا يقلل من دور المرأة في العملية الانتاجية . كما أن الاقتصاد الربحي لا يعتبر العمل المنزلي وتربية الأطفال مساهمة اقتصادية ، بل ينظر إلى المرأة على أنها غير منتجة ومن ثم « عالة » على الرجل . هذا الافتراض في الاقتصاد الغربي يعطي أولوية للانتاج من أجل الربح . ولاشك أن رأس المال ضروري ويجب توفيره للمشاريع الاقتصادية ، ولكن لابد من النظر إلى العنصر الأساسي في التنمية - وهو الإنسان (رجالاً ونساءً) . فهناك العديد من المشاريع التنموية يمكن تنفيذها بالقدرات الذاتية لو رفعنا من قيمة العمل والإنسان . وكذلك لا يمكن أن نهون من تأثير القيم الثقافية السائدة التي تحجم دور ومساهمة المرأة بالرغم من الحاجة الاقتصادية - لأن عملها يزيد من حريتها الاجتماعية والاقتصادية ، كما يعرضها للظهور أمام الآخرين .

على أية حال ، يمكن تحديد أهداف البحث من الأهداف التالية :

١- استعراض المداخل السوسيولوجية المتاحة والتي تتعرض لمشاركة المرأة في سوق العمل وتطوير نموذج تصوري لدراسة مشاركة المرأة العربية في سوق العمل والانتاج .
٢- بيان اشكالية غموض المفاهيم الخاصة بالعمل والمشاركة ، وعمل المرأة ... إلخ والتي تستخدم في مجال عمالة المرأة وكيف أن هذه المفاهيم تختلف حسب الاتجاه النظري المستخدم .
٣- الوقوف على العوامل المؤثرة ايجاباً أو سلباً على عمالة المرأة في سوق العمل .
٤- تحديد التحديدات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والتنظيمية التي تعوق المرأة العربية من أداء دورها في العملية الانتاجية سواء في الريف أو الحضر .
٥- بيان كيفية اختلاف مشاركة المرأة في سوق العمل حسب اختلاف البنية الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع العربي .

أما عن التساؤلات التي يثيرها هذا البحث ، فيمكن تحديدها في التساؤلات التالية والتي يحاول البحث الإجابة عليها من خلال المحاور الرئيسية له :

١- إلى أي مدى تلعب العوامل الثقافية (كمتغيرات مستقلة) دوراً بارزاً في مشاركة المرأة عامة ، والمرأة العربية خاصة في سوق العمل (كمتغير تابع) ؟
٢- إلى مدى تلعب العوامل الاجتماعية والاقتصادية والتنظيمية (كمتغيرات وسيطة) دورا في مشاركة المرأة عامة ، والمرأة العربية خاصة في سوق العمل (كمتفير تابع) ؟
٣- هل تختلف مشاركة المرأة العربية في سوق الانتاج والعمل باختلاف طبيعة البناء الاجتماعي الذي تعيش فيه (مجتمعات نفطية ومجتمعات غير نفطية) ؟
٤- هل تؤثر أساليب المعيشة (البيئة البدوية - الريفية - الحضرية) على مشاركة المرأة في سوق العمل والانتاج ؟
٥- وأخيراً ، هل وعي المرأة العربية بدورها الانتاجي وعي حقيقي وفعال أم وعي زائف ومرهون بالحاجة الاقتصادية ؟

وبالنسبة للإجراءات المنهجية التي سوف نتبعها في هذا البحث ، فلقد اعتمدت الباحثة على أسلوب المقارنة والاعتماد على الدراسات والبيانات الإحصائية المتاحة حول عمالة المرأة عامة ، والمرأة العربية خاصة . وسوف نستخدم أسلوب المقارنة بين نموذجين : أحدهما يمثل الدول النفطية مثل مجتمعات الخليج العربية واخترنا المجتمع القطري لتمثل هذه المجتمعات . أما النموذج الآخر فهو يمثل المجتمعات غير نفطية واخترنا المجتمع المصري كممثل لهذا النوع من المجتمعات . ولم تتوقف المقارنة عند هذا الحد ، بل شرعنا في عقد مقارنة داخل كل نموذج لبيان ارتباط مساهمة المرأة بنمط المعيشة سواء الريفية أو الحضرية حتى تكون المقارنة أكثر عمقاً ومحددة للعوامل المؤثرة على مشاركة المرأة في سوق العمل والانتاج .

أما عن مستويات التحليل ، فان الدراسة الراهنة تهدف إلى تحليل لنوعية العلاقة بين المتغيرات المجتمعية سواء على المستوى التاريخي أو الثقافي أو الاقتصادي ،

والاجتماعي أو التنظيمي وبيان دورها في مشاركة المرأة في سوق العمل والانتاج .
ولهذا جاءت مستويات التحليل على النحو التالي :

١- مستوى تاريخي نحاول فيه تتبع جذور مشاركة المرأة في سوق العمل والانتاج .
٢- مستوى ثقافي متمثلا في بيان سيطرة القيم الثقافية المتعلقة بالعشيرة والتسلطية داخل الأسرة وغيرها من القيم الثقافية التي تحدد علاقة الفرد بسوق العمل وتنعكس على مشاركة الافراد في اتخاذ القرار . فالقيم الثقافية - كما ترى الباحثة - هي العامل الرئيسي في تكوين الشخصية . فشخصية المرأة هي نتاج لأساليب التنشئة الثقافية والحضارية والتي يتحدد فيها الفروق بين الجنسين والأدوار وتقسيم العمل وصورة الذات وهامش الحرية المسموح به .
٣- ولا يعني تأكيدنا عن دور العوامل الثقافية اهمال المتغيرات الأخرى ، فالتحليل السوسيولوجي المتكامل يعطي للمتغيرات الوسيطة مثل العوامل الاجتماعية والاقتصادية والتنظيمية أيضاً دوراً هاماً في تحديد درجة ونوعية مشاركة المرأة في سوق العمل .

ولقد قسمت الباحثة هذا البحث إلى عدد من المحاور الرئيسية :

١- المحور التاريخي لمساهمة المرأة في سوق العمل الرسمي .
٢- المحور السوسيولوجي الخاص بالمداخل النظرية لدراسة وضعية المرأة في سوق العمل الرسمي .
٣- مشاركة المرأة العربية في سوق العمل في النموذج النفطي والنموذج غير نفطي .

١- اعتبارات نظرية :

أ - خلفية تاريخية لمساهمة المرأة في سوق العمل الرسمي :

تشير كل الدراسات التاريخية والاجتماعية والاقتصادية إلى قضية « التميز » بين الرجل والمرأة في الأجور ومن ثم سوق العمل ، كذلك في فرص الترقي ونوعية الوظائف . فالفحص الواعي للتاريخ الاجتماعي للعمالة النسائية يشير بوضوح إلى « أن العمالة النسائية تعتريها تغيرات في الحجم ونوعية الأعمال التي تمارسها في

السوق الصناعي ، كذلك قد يرجع إلى التباينات الطبقية والحالة الزواجية واتجاهات الوالدين والأزواج ، فضلاً عن وجود أبعاد اقتصادية منها اتجاهات أصحاب العمل لتشغيل عمالة رخيصة أو لمقاومة تحدي العمالة الذكرية لصاحب العمل ، ومحاولته استخدام النساء كعمالة بديلة ، فضلاً عن تأثر العمالة النسائية بالكساد الاقتصادي العالمي وقيام الحربين العالمتين الأولى والثانية ، زد على ذلك المؤثرات الثقافية والاجتماعية التي كانت سائدة وأدوار الاتحادات العمالية خاصة بعد أن تضع الحرب أوزارها ويعود الرجال إلى ممارسة حياتهم المدنية »[1] . ولعله بسبب الثورة التكنولوجية وما أفضت به إلى ضرورة اعادة تشكيل وتطوير الهياكل التقليدية للعمالة ، وما نجم عن ذلك من انكماش لحجم القوى العاملة ، وما ترتب على ذلك أيضاً من توفير الأدوات الحديثة للمنزل كل هذا قد ساعد على وجود وقت فراغ أطول بالنسبة للمرأة الحضرية . بمعنى آخر ، فان هذه الثورة التكنولوجية طرحت قضية وجود منافسة حقيقية في سوق العمل بين الرجال والنساء مع وجود وقت فراغ طويل تحاول المرأة استثماره في مجالات العمل الرسمي . ومن ناحية أخرى ، نجد أن الثورة التكنولوجية قد أدت إلى تغير في نوعية العمالة المطلوبة ، فبدلاً من العمالة اليدوية زاد الاقبال على العمالة ذات المهارات التخصصية المتوسطة والعالية ، وقد أدى هذا بالتالي إلى انخفاض ملحوظ في سوق عمالة الأفراد ذوي المهارات المنخفضة ممن يتقاضون أجور منخفضة . وهذا يعني ، أن « التعليم » أصبح مطلباً أساسياً للمنافسة في سوق العمل خاصة للاناث . ولقد أضفى هذا الانقسام في سوق العمل أبعاداً جديدة على متطلبات السوق من العمالة النسائية . فلقد أصبح التعليم عاملا أساسياً في مجال المنافسة على فرص العمل المتاحة في سوق العمل . ولقد كان ذلك دافعا للاقبال المتزايد نحو التعليم من جانب النساء[2] .

وتشير الاحصاءات إلى تزايد أعداد النساء على معاهد التعليم المختلفة مما أدى بالتالي إلى « زيادة أعدادهن في سوق العمل خاصة بين النساء المتزوجات . كذلك يمكن القول ، أن المرأة قد نافست الرجل في مختلف مجالات النشاط الاقتصادي إلا أن معدل مساهمتها في تلك المجالات لايزال يتأرجح بين الزيادة والنقصان من مجتمع إلى

آخر بفعل عوامل ثقافية واقتصادية واجتماعية متباينة »[٣] .

ويقسم الباحثون تأثير مساهمة المرأة في سوق العمل الرسمي Formal Sector من الناحية التاريخية - إلى ثلاثة مراحل متعاقبة :

١- المرحلة الأولى :

وتبدأ من بداية الثورة الصناعية وحتى ظهور الشركات الصناعية في شكل مؤسسات ضخمة (خلال الفترة من بين نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين) . والملاحظ ، أن العمالة النسائية في تلك الفترة كانت في فئة العمال ، كما كان الفصل بين العمالة النسائية والذكرية في واقع العمل قائما ، وفي بعض الأحيان ، كان يسمح بتواجد الرجال - كمشرفين - في أماكن عمالة النساء . وقد ترجع هذه التفرقة في مكان العمل إلى أساليب النشأة الاجتماعية، وإلى قلق الرجال إزاء عمالة النساء ومشاركتهم مواقع العمل ، وإلى تقسيم العمل القائم على أساس النوع . وبالتدريج ، بدأ اشتراك نساء الطبقتين المتوسطة والعليا في سوق العمل ، خاصة من بين الفتيات ممن لن يسبق لهن الزواج وغير المتزوجات ، نظراً لمعارضة الرجال عمل المرأة المتزوجة والأم . ومع ظهور التنظيمات الصناعية الكبرى ، فلقد كان للذكورة النصيب الغالب في هذه التنظيمات ، مما أدى إلى زيادة الاضطهاد والتحيز ضد اشتغال المرأة في المجال الصناعي بصفة عامة ، وفي مجال الإدارة الصناعية بصفة خاصة . ومع نشوب الحرب العالمية الأولى ، وانشغال الرجال بالحرب ، فلقد أعطى هذا مجالا لمشاركة المرأة في المجال الصناعي ، ولكن هذه الفرصة كانت مقصورة على الاناث والنساء غير المتزوجات . وكما تشير الدراسات ، فان العمالة النسائية في تلك الفترة كانت تتقاضى أجوراً منخفضة ، وتقوم بأعمال متدنية ، ومهن صارت فيما بعد مرتبطة بالمهن النسائية . على أية حال ، فان هذه الفترة قد شهدت - رغم التحيز ضد عمالة المرأة - زيادة ملحوظة في أعداد النساء العاملات في المجال الصناعي[٤] .

٢- المرحلة الثانية :

وتبدأ من ثلاثينيات القرن العشرين حتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين.

ولقد شهدت هذه المرحلة ازديادا في حجم العمالة النسائية ، هذا بالإضافة إلى اشتغال المرأة في وظائف جديدة كالوظائف المكتبية وأعمال السكرتارية والتمريض والتدريس والعمل الاجتماعي . ولقد واكب ذلك زيادة ملحوظة في أجور النساء - خاصة في المجال الصناعي - إلا أن ذلك لم يحقق المساواة مع الرجال في أجور المهنة والأعمال ذاتها . ومن الملاحظ ، أن العمالة النسائية في تلك الفترة لم تقتصر على طبقة معينة بل ضمت عمالة نسائية من مختلف الطبقات الاجتماعية من المتزوجات . ويرى البعض، أن هذا يمثل « انعطافة هامة ذات مغزى في تاريخ العمالة النسائية، خاصة في ظل شيوع ثقافة الذكور في الإدارة الصناعية »[٥] .

٣- المرحلة الثالثة :

والتي تبدأ من منتصف هذا القرن وحتى الآن . ولقد شهدت هذه المرحلة تحولا واضحا في مشاركة النساء ونوعية المهن التي اشتغلن بها ، كذلك ظاهرة الاختلاط بين الذكور والاناث في مواقع العمل ، والتنافس بين الرجال والنساء لشغل الوظائف . وتشير الإحصاءات الرسمية للعمالة في الدول الصناعية المتقدمة إلى « زيادة كبيرة ومتنامية للعمالة النسائية . . . ولقد كان لهذا التحول في العمالة النسائية أبلغ الأثر في شد انتباه العلماء . . . حول التحولات في ميكانيزمات السوق القائمة على التحيز ضد المرأة ونوعية العلاقة بين الأسرة والعمل . . . وإلى أي حد تؤثر طبيعة الأدوار في الأسرة على طبيعة الأدوار في العمل وبالعكس ، وأيضاً إلى أي مدى كان لازدياد مشاركة المرأة في العمل مدفوع الأجر نتائج ايجابية أو سلبية على العمالة الذكرية »[٦] .

ب - اشكال التحيز ضد عمل المرأة :

بعد أن ناقشنا مساهمة المرأة في سوق العمل ، سوف نحاول هنا استعراض صور من أشكال التحيز ضد عمل المرأة في سوق العمل الرسمي. ويمكن بايجاز شديد تحديد صور التحيز في التالي :

١- عدم المساواة في الأجور بين الذكور والإناث بالرغم من قيامهم بنفس الاعمال .

ويرجع أصحاب العمل ذلك لأن المرأة لا تملك مهارات انتاجية ، وليس لديها المؤهلات المطلوبة لشغل وظائف ذات حراك رأسي ، ومن ثم ، فهي لا تمتلك نفس الأصول لرأس المال البشري عند الرجال .

٢- إن الكثير من القوانين والتشريعات التي صدرت نصت على اشتراك العمال في مجال الإدارة ، ولكن هذا لم يتحقق بالنسبة للمرأة . فهناك هوة بين التشريعات الممنوحة للمرأة وبين تطبيق هذه التشريعات . فالتشريع المصري - على سبيل المثال - لم يفرق بين الجنسين في تولي الوظائف ، إلا أن السلطة التقريرية متروكة للرؤساء لتحديد الشروط التي تنطبق على الرجال دون النساء ، ولهذا أصبح من الأمور المألوفة أن تكون هناك وظائف مقصورة على الرجال دون النساء . فاعلانات الصحف تتطلب « النوع » قبل « المؤهل أو الكفاءة » . ومن ناحية أخرى ، لا توجد قوانين تحمي المرأة العاملة في القطاع الخاص ، ومساواتهن بمثيلاتهن في الحكومة ، مما يضطرون إلى الخضوع إلى سلطة صاحب العمل الذي يستغل فرص العرض والطلب ، وهذا يؤدي ، بلا شك ، إلى تشغيل عمالة نسائية رخيصة وبديلة للعمالة الذكرية .

٣- بالرغم من اقبال المرأة على التعليم بمراحله المختلفة وتزايد أعداد المرأة في سوق العمل ومنافستها في مختلف مجالات النشاط الاقتصادي ، إلا أن مساهمتها في تلك المجالات لاتزال متأرجحة بين الزيادة والنقصان . فهذا مرهون بالسياسات الخاصة بالعمالة في كل مجتمع . ومن ناحية أخرى ، فإن هناك تميزاً بين نوعية التعليم المتاح بين البنين والبنات ، مما يحرم المرأة فيما بعد فرص العمل بسبب عدم التكامل بين التعليم والتشغيل . فالتعليم المهني والفني محدود للغاية بالنسبة للإناث ، بل ينعدم في بعض المجتمعات . ولقد ترتب على ذلك ، مطالبة النساء قبل الالتحاق ببعض الأعمال بتحسين السمات المهنية لهم عن طريق الالتحاق بدورات تدريبية حتى يتسنى لها القيام بالاعمال التي تسند للرجال . ولاشك ، أن هذا ينعكس على سياسات التعيين والتوظيف والترقي . فنقص تدريب المرأة يقلل من فرصها في الحصول على وظيفة في سوق العمل .

٤- تقسيم العمل قائم على أساس النوع ، وما يترتب على ذلك من أمور مجتمعية. فتعمل ميكانيزمات السوق القائمة على التحيز ضد المرأة وارتباط دورها في مجال العمل بدورها في الأسرة . لقد انعكست هذه الازدواجية في الادوار على تحديد أنواع من المهن واعمال ذات مكانة مهنية متدنية ارتبطت بالعمالة النسائية، حتى صارت تعرف بالمهن النسائية ، مثل الوظائف المكتبية وأعمال السكرتارية والأعمال الخدمية والوظائف معدومة الحراك ومحدودة المدى . فغالباً ما تختار المرأة المهن الملائمة لها في سوق العمل لتتوافق مع الأدوار الأخرى التي تقوم بها في أسرتها .

٥- إن بروز ارتفاع في معدلات البطالة أو الكساد الاقتصادي ، يتبعه بالضرورة ظهور دعوات تنادي بعودة المرأة إلى المنزل لرعاية ابنائها وافساح فرصة لعمل الرجل . وهكذا تقل الفرص المتاحة أمام عمل المرأة ولا يبقى لها - خاصة بعد ثورة التكنولوجيا ، وتكثيف رأس المال في المشروعات الصناعية الكبرى - إلا الأعمال اليدوية والخدمية .

٦- سيطرة النزعة الذكورية على الإدارة الصناعية والتجارية ، مما نجم عنه كل صور اضطهاد وتحيز ضد عمالة المرأة ، وتفضيل الرجال : حيث الاستقلالية والخشونة والمنافسة والقدرة على اتخاذ القرارات ، في مقابل النساء : حيث السلبية والاعتمادية والعاطفية والرقة . ولهذا ، أصبحت المرأة تميل إلى الأعمال التي تحفظ لها أنوثتها أو التي اعتادت القيام بها . ويعلل الرجال انطلاقا من هذه النزعة عدم تعيين النساء بسبب غياب المرأة عن عملها خاصة بعد الزواج والانجاب، ومن ثم ، فالعمالة النسائية تتسم بعدم الاستقرار ، والمرأة بعد الزواج لا تعبأ بالقيمة المادية لعملها وذلك لاعتمادها على زوجها .

٧- هناك تحد واضح ضد اسناد الوظائف الإدارية العليا للمرأة ، على أساس أن المرأة من الناحية البيولوجية والخصائص الشخصية غير متساوية مع الرجل . فالدافعية للانجاز عند المرأة أقل من الرجل ، كذلك خوفها من النجاح والفشل فيما

تقوم به من اعمال ، يفسر الانخفاض النسبي لطموحات المرأة بالنسبة للوظائف العليا .

٨- إن الاقتصاد الربحي ينظر إلى عمل المرأة في منزلها لرعاية أطفالها أو مساهمة في اقتصاد أسرتها على أنه عمل غير منتج . بل أن قيام المرأة المتزوجة ولديها أطفال بالعمل في الوحدات الانتاجية ، يعتبر طبقاً لهذه النظرة الربحية ، غير اقتصادي ، حيث أن عمل المرأة يتطلب استثمار من الخدمات الاجتماعية لرعاية أطفالها ويتطلب ظروف عمل متقدمة وساعات عمل مرنة (مثل اجازات الوضع وساعات الرضاعة .. وغيرها) وهذا بلا شك يؤثر على التكلفة الكلية للانتاج.

ج - المداخل السوسيولجية لدراسة وضع المرأة في سوق العمل والانتاج .

لقد أدت هذه الظروف التاريخية وما أفضت به إلى وجود نوع من « التحيز » الواضح ضد العمالة النسائية إلى بروز العديد من المداخل السوسيولوجية التي ناقشت مشكلات العمالة النسائية وابراز بعض جوانب هذا « التحيز » ضد المرأة في المهن والأجور . والملاحظ ، تباين هذه المداخل السوسيولوجية كما وكيفا ، كما تتصف تلك المداخل « بكثير من نقاط القوة والضعف في أساليبها المنهجية وفي تناولها للقضية المطروحة . كما يحفل تراث علم الاجتماع بالعديد من نتائج الدراسات الميدانية التي تارة تتفق وتارة أخرى تختلف مع بعض الافتراضات الأساسية التي قامت عليها تلك المداخل . »[٧] .

والمطلع على تراث علم الاجتماع ، يجد أن هناك مداخل الملاحق تركز على عدم المساواة ، وترجع ذلك إلى عامل « النوع » . كذلك ، ظهرت مداخل أخرى تحاول تفسير ذلك « التحيز » على أساس من الأدوار والمكانة المهنية للمرأة في سوق العمل. وبالإضافة ، إلى ذلك ، ظهرت مداخل أخرى تحاول التركيز على دراسة تأثير الأسرة على أدوار المرأة في سوق العمل : مثل مدخل التنشئة الاجتماعية (بكل ما يتضمنه من مداخل فرعية مثل المدخل البيولوجي ، ومدخل التحليل النفسي ، ونموذج العمل ونموذج النوع والمدخل الوظيفي) والذي اهتم بدراسة تأثير الدور المهني للمرأة على

أدوارها داخل الأسرة . ومن ناحية أخرى ، نجد مداخل أخرى اهتمت بدراسة تأثير الأوضاع المهنية والأدوار الاقتصادية للمرأة في سوق العمل على مكانتها وأدوارها داخل الأسرة ، خاصة المداخل الانمائية ، والرضا عن العمل . وأخيراً ، هناك المداخل التي اهتمت بدراسة المجتمع كوحدة تحليل في تفسير الظواهر المرتبطة بعمالة المرأة : مثل مدخل التدرج ومدخل تحقيق المكانة ومدخل دراسة المرأة والتنمية والمداخل الاقتصادية مثل المدخل الفردي ومدخل رأس المال والمداخل البنائية الوظيفية .

وكما أشرنا ، فان هناك تباينا في هذه المداخل ، ومن أجل موضوع البحث ، فسوف نركز هنا على مناقشة أهم هذه المداخل ، وأعني مدخل التنشئة الاجتماعية ، والمدخل الفردي ومدخل تحقيق المكانة وأخيراً المدخل البنائي الحديث .

١- مدخل التنشئة الاجتماعية :

يميل أنصار هذا المدخل إلى تفسير التحيز ضد المرأة في سوق العمل بالرجوع إلى أساليب التنشئة الاجتماعية وأساليب التربية والتعليم . فالقيم الثقافية والاجتماعية والمعتقدات داخل المجتمع تحدد الأدوار الاجتماعية لكل من الذكور والاناث . كذلك الحال ، فان التنظيمات الرسمية داخل المجتمع - خاصة في سياسات التعيين والتوظيف والتدريب والترقي وتقسيم العمل - يحكمها انساق المعتقدات لأعضائها ، خاصة توزيع الأدوار على أساس النوع ، وما يتبع ذلك من التميز على أساس تباين النوع وتقسيم العمل النوعي ، واستئثار الذكور بقيم متميزة عن الاناث . ففي المجتمعات الغربية ، نجد أن الشائع على توزيع الأدوار على أساس النوع « هي السمات الذكرية التي تتمثل في الاستقلالية ، الخشونة ، المنافسة ، القدرة على اتخاذ القرارات ، بينما الاعتمادية التصرف العاطفي والرقة تعتبر سمات انثوية . ووفقا لتقسيم العمل على أساس النوع ، فالمكان الطبيعي للمرأة هو المنزل ، بينما يكلف الرجل بالقيام بالأنشطة الاقتصادية داخل التنظيمات الرسمية المختلفة في المجتمع »[٨] . ولاشك ، أن هذا المدخل يعطي أولوية للقيم الثقافية للمجتمع . وقد تختلف هذه القيم الثقافية من مجتمع لآخر ، إلا أن معظم المجتمعات الإنسانية تؤكد على تفضيل الثقافة الذكرية ،

وما ينجم عن ذلك من احداث التفرقة بين الجنسين داخل تنظيمات العمل . وهناك العديد من الدراسات السوسيولوجية التي اهتمت بعمالة المرأة في سوق العمل والتي كشفت عن اتجاهات المديرين حول عدم قدرة المرأة على تولي المناصب القيادية والإدارية والتي تعكس الاتجاه إلى الاعتقاد بان العمالة النسائية عمالة غير مستقرة ، لامتناع المرأة عن العمل بعد الزواج ، أو لأن المرأة لا تضع العمل في المرتبة الأولى لاهتماماتها [٩] .

ولقد حاول انصار هذا المدخل ، تفسير التباين بين الذكور والاناث في سوق العمل إلى تباين الميول والتصرفات الطبيعية عن كل منهما . بمعنى آخر ، يؤكد أصحاب هذا المدخل ، على حتمية التباين البيولوجي بين المرأة والرجل بدءا من مراحل الطفولة المبكرة حتى مراحل النضج ، وبسبب هذه الفروق البيولوجية تتباين انماط السلوك بينهما ؛ كذلك يرى أصحاب هذا المدخل بأن البنية الاجتماعية - التي ينشأ فيها الفرد - تؤثر بشكل واضح على تنمية مداركه العقلية والنفسية ، ومن ثم ، اختياراته لنوع النشاط الاقتصادي في مجال العمل . هذا الاختيار لمجال العمل ، اذن، تحكمه تلك المحددات التي تعززها تلك العلاقة التفاعلية بين الفرد والبيئة ، والتي تحكمها مجموعة من القيم الاجتماعية والثقافية . ولهذا يمكن القول بأن السلوك المهني للمرأة يتباين عن سلوك الرجل بفعل المؤثرات البيولوجية والعوامل البيئية .

ومن ناحية أخرى ، نجد أن البعض الآخر من أصحاب هذا المدخل ، يرفضون التعيمات البيولوجية ، حيث أن نتائج العديد من الدراسات الميدانية ، تكشف على أن الوضع الاجتماعي الذي يتعامل فيه الرجال والنساء على حد سواء - هذا الوضع يؤثر بشكل واضح على التركيب الهرموني لكليهما ، والذي من شأنه أن يحدث تباينات واضحة في السلوك بينهما . فالتركيب الهرموني ، يتماثل لكلا الجنسين ، إلا أن التغيرات التي تحدث بسبب مؤثرات الوضع الاجتماعي والتفاعل بينهما ، تحدث تباينات واضحة في أنماط السلوك بين الجنسين . فالادوار النوعية - طبقا لهذا الرأي - يتم تعلمها واكتسابها ، ولا يعني هذا اغفال تأثير السمات الشخصية [١٠] .

وواضح ، اذن ، أن المداخل البيئية والاجتماعية تهتم بالأسرة والمؤسسة التعليمية في التنشئة الاجتماعية للطفل ، ومن ثم التأثير بشكل مباشر في أحداث التمايز في الأدوار من الجنسين وبالتالي اختيار المهن والأعمال والأنشطة الاقتصادية . ولقد اهتمت المدرسة الراديكالية والوظيفية ، بالتعليم كمتغير أساسي يؤثر على التوجيهات المهنية للطلبة والطالبات . ويتمثل أهمية هذا المتغير ، في توجهات هيئة التدريس على الثقافة المجتمعية السائدة ، كذلك نوعية سلوك المدرسين نحو الطلبة والطالبات ، حيث يميل المدرسون الذكور إلى التعامل مع الأولاد والاستماع إليهم ، كذلك التفرقة بين البنين والبنات خلال الفصول الدراسية وجماعات الأنشطة والجماعات الفنية والترويحية ، وما تحتويه الكتب الدراسية من قصص تركز على البطولات الذكرية ، وما يتضمنه المقررات الدراسية التي صممت لتلائم الذكور دون الإناث ، كذلك ما يتضمنه بنية القوة في نسق الإدارة للمدرسة حيث يحتل الرجل المناصب الإدارية ذات السلطة ، بينما يترك للإناث الأدوار الثانوية . كل هذا وغيره مما يؤكده أصحاب مدخل التنشئة الاجتماعية يجعل المرأة تميل للبحث عن أعمال قليلة الحراك ، ومن ثم ، نجد أن الاناث لديهن رغبة للاشتغال بمهنة التدريس ، بينما نجد أن الذكور يفضلون الاشتغال بالمشروعات التجارية والصناعية . ومن ناحية أخرى ، نجد أن أصحاب هذا المدخل يؤكدون على أن الإناث تواجه مشاكل خاصة . ويتمثل ذلك في صراع السمات المكتسبة - كالرقة والدماثة - وما يتطلبه العمل من سمات تتناقض مع تلك السمات الشخصية . وهذا يفسر ، ازدياد الخوف عند المرأة من النجاح والفشل فيما تقوم به من أعمال . فالدور النوعي للرجل ، يؤكد على أهمية الانجاز وتحقيق النجاح في العمل ، بينما نجد « النساء يقعن في صراع مفروض عليهن بسبب التعارض بين ما هو معلن بخصوص دافعية الانجاز وما يشاع من توجهات ثقافية غير معلنة »(١١) .

٢- المدخل الفردي :

ينطلق هذا المدخل من العلاقة بين الشخصية والتنظيم والخصائص النفسية للأفراد والتي يتم تشكيلها بواسطة الأوضاع والوظائف الناشئة داخل التنظيمات(١٢) . وطبقاً لأنصار هذا المدخل ، فأن التنظيمات الرسمية لا تصنع الأفراد ، بل تأخذهم للعمل

بالكيفية التي يوجدون عليها . فالسمات التي اكتسبتها المرأة بسبب عوامل التنشئة الاجتماعية ، تجعلها غير مهيأة لنفس الفرص المتاحة أمام الرجل للترقي أو الاشتغال بالوظائف القيادية . كذلك ، فان الفرص المتاحة داخل التنظيمات تكون وفقاً للسمات والقدرات الخاصة بالأفراد ، هذه السمات هي التي تحدد الدور المهني المستقبلي لصاحبها . كذلك يرى أصحاب هذا المدخل أن ما يحدث للمرأة من فروق في الأجور أو المستوى الوظيفي بالمقارنة بالرجال - مرجعاً إلى شخصية المرأة وما تحمله من سمات عامة ، فالمرأة تدخل مجال العمل بطموحات وتوقعات وأنماط من السلوك تختلف عن الرجال[١٣] . وباختصار شديد ، فان هذا المدخل ، يرجع الاختلاف بين الرجل والمرأة في مجال العمل إلى الفروق الفردية الناجمة عن الطبيعة البيولوجية والخبرة الاجتماعية .

٣- مدخل تحقيق المكانة :

ينطلق هذا المدخل في اهتمامه بدراسة التميز بالتركيز على القدرات والمكانات الذاتية للفرد ؛ ولهذا اهتم هذا المدخل أولاً بدراسة القدرات الذاتية ، وما يتعلق بالأسرة ومكانتها ، وتأثير ذلك على مكانة المرأة في سوق العمل ، وقد أعطى أصحاب هذا المدخل اهتماما خاصا بمتغيرات أخرى مثل التعليم وأهميته بالنسبة للعمالة النسائية . وفي الآونة الأخيرة أظهر أصحاب هذا المدخل اهتماما خاصا بالأبعاد البنائية مثل سوق العمل والخصائص التنظيمية والتدرج في الصناعات والمهن وفقا لمتغيرات النوع . وبالنسبة للتفرقة بين الرجل والمرأة في مجال الأجور والمهن ، فانه طبقا لهذا المدخل ، فان تلك التفرقة ترجع إلى الاختلافات في جملة الاتجاهات والسلوك بين الجنسين ، والتي تلعب التنشئة الاجتماعية دورا أساسياً في تحقيق تلك الفروق . هذا بالإضافة إلى أهمية عوامل أخرى مثل التحصيل العلمي ، وسيرة العمل غير المستمرة بسبب الظروف الاجتماعية للمرأة . كل هذا من الأمور التي تؤدي إلى احداث فروق بين الجنسين في الأجور والمكانة ونوعية المهنة . وتشير الدراسات والبحوث الميدانية إلى رغبة المرأة في الاشتغال بالأعمال النسائية أو التي تعتاد الاشتغال بها أو ممارسة الأعمال التي تحتفظ فيها بأنوثتها - كل هذا يؤدي حتما إلى حدوث التفرقة بين الجنسين في مجال العمل[١٤] .

ومن ناحية أخرى ، أظهرت بعض الدراسات الأخرى ، أهمية الامتيازات الأسرية والتعليم في تحقيق المكانة المهنية . فكما تشير الدراسات إلى أن متغير « التعليم » له أهمية قصوى في تغيير وضعية الأسرة ، ومن ثم ، له علاقة بالحراك الاجتماعي والمكانة المهنية في التنظيمات المركبة وسوق العمل ، وبالتالي اختيارات الأفراد لمهنهم[١٥] . وباختصار ، فان هذا المدخل ، يركز أساسا على المصادر الذاتية للفرد والروابط الاجتماعية والعوامل البنائية وتأثيراتها على تحقيق المكانة المهنية للفرد[١٦] .

٤ - المدخل البنائي الحديث :

تنظر التفسيرات البنائية لقضية التحيز ضد عمالة المرأة - سواء على مستوى تنظيمات العمل أو على مستوى سوق العمل الرسمي - على أساس من التعامل بالمحتوى الكلي للتنظيم الرسمي وما يتضمنه من تفاعلات وعلاقات . ولهذا ، لم يقتصر التحليل هنا على دراسة السمات الشخصية للمرأة ، بل على دراسة سلوك الأفراد - ذكورا وإناثا - وكيفية تباين هذا السلوك وفقا للأوضاع الوظيفية داخل الهرم المتدرج للسلطة . ولهذا يمكن القول بان هذا المدخل قد تخطى النظرة المحدودة في الاعتماد على البنائيات في الأدوار والسلوك الاجتماعي في تفسير وملاحظة سلوك النساء في مجال العمل ، إلى رؤية أكثر شمولا ، بالاعتماد على البيئة الاجتماعية في تفسير وتفهم الفروق في التفاعلات والضبط وقيم العمل داخل هذه التنظيمات[١٧] .

ولقد انطلق هذا المدخل ، في تفسيره لقضية التحيز ضد المرأة في مجال سوق العمل ، من اتجاهات نظرية مستمدة من علم النفس الاجتماعي والنظريات البنائية الاجتماعية والنظريات الراديكالية . فلقد استلهم المدخل البنائي الحديث من الدراسات التي تمت عن العلاقة بين الفرد والتنظيم ، وأهمية ذلك في دراسة سلوك الأفراد في التنظيمات ، والتي لا يمكن الحكم عليها بشكل واضح وكامل إذا تركزت هذه الدراسات على الأفراد فقط ، ولكن من خلال دراسة أوضاع وظيفية مختلفة ومن خلال تباين العلاقات التي تبدو في موقع العمل ، يمكن دراسة سبل تحسن وظيفة الأفراد داخل التنظيمات . فالنساء على سبيل المثال ، داخل تنظيمات العمل يقضين معظم الوقت

في مجال العمل . وهذا يؤثر بشكل واضح على شعورهن واتجاهاتهم ومن ثم يتوقعن الفشل في أدوارهن وطموحاتهم . كذلك فان شبكة العلاقات المباشرة داخل الجماعة هي التي تؤثر على السلوك التنظيمي والتطلعات المهنية والتوجهات عند الأفراد كما تؤثر على الفاعلية التنظيمية . فالسلوك التنظيمي للفرد يتشكل تبعا لتغير شكل العلاقات الإنسانية بين الأفراد وتبعا لتباين درجة عضوية الفرد في الجماعة[١٨] .

ولقد استفاد هذا المدخل من اسهامات روبرت ميرتون R. Merton في دراسته عن العلاقة بين الفرص المتاحة والتطلعات المحدودة أمام المرأة ، حيث يذهب ميرتون إلى أن المرأة تفوق الرجل في ميلها للمحلية والعلاقات السريعة والولاء للجماعة المحلية أكثر من ولائها للفئة المهنية التي تنتمي إليها أو المجتمع الكبير سواء كان تنظيما رسميا أو البيئة المحيطة . ومن ثم فان المرأة تكون محدودة الطموحات في حين أنها تعطي اهتماما زائدا بالجماعات المحلية التي تنتمي إليها في موقع العمل داخل التنظيم[١٩] .

وكما تشير الدراسات الميدانية ، فان المرأة تهتم بالجماعات المحلية بينما يولي الرجل اهتماما بالمناصب العليا ومن ثم ميله للعالمية أكثر منها[٢٠] . ومن ناحية أخرى، استخدمت مفاهيم القوة والفرص لتبين طبيعة المشاركة في صنع القرار . فهناك دراسات أبرزت العلاقة بين القوة والمشاركة في جماعة العمل ، حيث ظهر أن المرأة التي تتزعم جماعة العمل تحاول أن تنتهز الفرصة لتحسين وضعها الوظيفي . كذلك أبرزت دراسات أخرى أن نجاح المشاركة ، مرتهن بان تجعل المشارك يشعر بحاجة التنظيم إلى جهوده في المشاركة ، كما يشعر بالتقدير من جانب التنظيم الرسمي متمثلا في إدارته وصناع القرار بداخله[٢١] .

على أية حال ، فان المدخل البنائي الحديث قد أفاد في دراسته لقضية التحيز النوعي في سوق العمل من نتائج الدراسات الميدانية والتي خرجت لتؤكد أن «التنظيمات المركبة والتي تتضمن بناءات فرص وقوة ذات تأثير سلبي على بعض الأفراد ذكورا واناثا ، كذلك فان القوة بمفردها لا تؤدي إلى النتائج المرجوة . بل يجب الأخذ بعين الاعتبار الجوانب الإنسانية للتنظيم الرسمي أو الجوانب الإنسانية في حياة الأفراد »[٢٢] .

كذلك اعتمدت البنائية الحديثة في دراسة قضية التحيز النوعي في سوق العمل على التيار الليبرالي أو الماركس المحدث والذي يتناول العلاقة بين الفرد والتنظيم من خلال تحليله عملية تقسم العمل في ظل التنظيمات الرأسمالية . فلقد كان التركيز في هذا الاتجاه على الاختلافات القائمة بين الواجبات التنظيمية وانخفاض المهارة واتصاف العمالة « بالبلورتياريا » كعملية تؤثر بشكل مباشر ومتزايد على المهن والمشتغلين داخلها .

ولقد أفادت النظرية الليبرالية في تفسيراتها لروتينية وتبسيط العمل التنظيمي داخل بيروقراطية تنظيمات العمل . وبالرغم من قصور الاتجاهات الليبرالية في تناول قضية التباينات ، في بينة الفرص كمحدد للعلاقات بين الفرد والتنظيم إلا أنها قد تناولت تطور سلم الوظائف كسمة تلازم البناءات الحديثة للعمل[٢٣] . ولقد جاء اسهام بارز في المدخل البنائي في الحديث على يد روزابيث كانتر R.Kanter حيث أبرزت أن التفرقة بين الجنسين في سوق العمل لابد من أن تكون بؤرة الاهتمام مركزة على « بنية التنظيم بوصفه نسقا كليا » . فالتنظيمات المركبة بخصائصها المختلفة تشكل بوضوح مختلف جوانب حياة العمل للأفراد . ومن ثم ، كان تركيز هذا المدخل على « فحص وتفهم البيئة التنظيمية والتي تعتبر أكثر تعقيدا فيما تختص بناءات القوة والفرص المتاحة عن الأسرة والمدرسة التي اهتمت بها الاتجاهات السابقة »[٢٤] .

ويقوم المدخل البنائي الحديث عند كانتر على افتراضات أساسية نجملها في التالي:

أ - لا يعتبر العمل علاقة منعزلة بين الفاعل والنشاط ، ولهذا يفهم العمل في ضوء الانساق التنظيمية التي تتضمن عمليات تقسيم العمل بأنماطها الحديثة . فلا يمكن فهم العمل دون الأخذ في الاعتبار تفهم استراتيجية التوزيع التنظيمي للفرص والقوة عن التدرج الهرمي للسلطة التنظيمية .

ب - يعكس السلوك التنظيمي ما يحمله الأفراد من مشاعر وما يمكن أن يتصفوا به من مكانة في مواقع العمل . ففي داخل التنظيم ، يحظى بعض الأفراد بالحصول على مكانة مرموقة تخولها لهم الأعمال المسندة لهم .

ج - إن التنظيمات لا تمتلك القدرة على التحكم في سلوك الأفراد بقدر قدرتها على تحديد الاختيارات المسموح بها رسميا لمواجهة متطلبات التنظيم . وهذا يعني ، أن مدخل البنائية ينظر إلى السلوك التنظيمي كنتيجة لعملية خلق شعور متضمنا للخبرات المكتسبة والاستراتيجية المستقبلية ، وليس كسبا للظروف السيكولوجية وعوامل التنشئة الاجتماعية.

د - يتصل السلوك التنظيمي مباشرة بالواجبات الرسمية ضمن عملية تقسيم العمل التنظيمي ، فبيئة العمل التي يتعرض لها الفرد تعتبر من أفضل المؤشرات المحدودة لسلوك الفرد ، كما أن العمل الرسمي وتدرج السلطة التنظيمية يعتمد على عملية توازن القوة في العلاقة بينهما ، ومن ثم كان فرص الترقي والحراك من خلال ممارسة وظائف دينامية تعكس إلى حد ما كيفية أداء الأفراد للأعمال الرسمية .

هـ - كذلك فان هناك علاقة بين ارتباط الفرصة بالكفاءة ، وهذا يعكس عدم التساوي بين الوظائف المختلفة داخل التنظيم . فالفرصة لا تكون متاحة لكل الوظائف بالتساوي[٢٥] .

واضح ، إذن ، أن المدخل البنائي عند كانتر يركز على الخصائص البنائية التي تؤثر على سلوك وواقع الأفراد داخل البيئة التنظيمية . وقد تضمن هذا المدخل ثلاث متغيرات أساسية هي: بناء الفرصة ، القوة ، النسبة النوعية للعمالة التنظيمية . وتشكل هذه المتغيرات الثلاثة سلوك المرأة والرجل داخل التنظيم . « فلو كانت النساء العاملات يتصفن في بعض الأحيان بطموحات أقل وانخفاض الانتمائية للتنظيم وازدياد اهتمامهن بالعلاقات مع اقرانهن في جماعة العمل ، فان الرجال في الأعمال المماثلة للنساء يتصفون بنفس تلك الخصائص . وعادة ما تكون تلك الوظائف معدومة أو منخفضة في تحقيق الحراك لشاغليها »[٢٦] .

ومن الملاحظ ، أنه بالرغم من ازدياد أعداد النساء المشتغلات في التنظيمات المركبة ، إلا أن اعدادهم تقل بدرجة كبيرة في المستويات الإدارية إذا ما قورنت نسبتهن في العمالة الكلية بالنسبة للعمالة الذكرية . وقد يرجع ذلك - كما يزعمه

أصحاب المدخل البنائي الحديث - إلى « القيود التنظيمية المحددة للسلوك . فالمرأة أمام اختيارين : إما أن تقلل من العلاقات مع الأقران داخل جماعات العمل أو تبحث عن طريق تحسن أوضاعها الوظيفية داخل التنظيم . وكلا الاختيارين يتطلب بالضرورة استعدادا غير عادي من جانب المرأة لتحقيق الفاعلية التنظيمية المطلوبة . هذا بالإضافة إلى مسببات أخرى تفرضها استراتيجيات التعيين . فالرجل عند التحاقه بالعمل يجد نفسه في بيئة يغلب عليها الرجال حيث يشارك في اللقاءات والندوات الرسمية وغير الرسمية ومن ثم يكون له وضع متميز عن المرأة التي تجد نفسها ضمن اعداد قليلة من بنات جنسها داخل أعداد كبيرة نسبيا من الرجال والذين تسيطر عليهم جماعة معينة منهم على المناصب الرئاسية ذات السلطة والقوة واتخاذ القرار »[٢٧] .

سوف نناقش في الجزء التالي - كيفية تطوير اطار تصوري مستمد من القضايا والأفكار الخاصة بالمداخل السابقة ، وكيفية تطويعها لفهم وضعية المرأة العربية في سوق العمل والانتاج .

د - نحو إطار تصوري لدراسة وضعية المرأة العربية في سوق العمل والانتاج :

ناقشنا في الجزء السابق المداخل السوسيولوجية التي تصدت لتفسير وضعية المرأة في سوق العمل والانتاج . ولاشك ، أن كل مدخل من المداخل السابقة قد ركز اهتمامه على جانب من الجوانب الخاصة بمشاركة المرأة في سوق العمل . وبالرغم من أهمية الجانب الذي تبناه كل اتجاه ، إلا أننا نلاحظ أنه اغفل الجوانب الأخرى . فعلى سبيل المثال ، نجد تأكيدا من مدخل التنشئة الاجتماعية على القيم الثقافية وأهميتها في تحديد الأدوار بين الجنسين ، ولكن أهمل هذا المدخل المهارات الخاصة والكفاءات التي يجب أن تتميز بها المرأة العاملة ، وهذا ما أكده المدخل الفردي. ومن ناحية أخرى ، اهمل المدخلين السابقين طموحات المرأة والمكانة التي تسعى إليها في ظل بناء اجتماعي يحدد الأدوار والمكانات .

على أية حال ، إن المدخل السوسيولوجي الذي نتبناه في هذا البحث ، ينظر إلى

العوامل الثقافية كمتغير مستقل يحدد من خلاله أدوار المرأة ومكانتها في بيئتها الاجتماعية . فالثقافة وما يتبعها من عادات واعراف قبلية وحضارية هي المشكلة للبناء القيمي داخل التنظيمات الاجتماعية سواء الأسرية أو الوحدة الانتاجية . وهذا ينعكس ، بلا شك ، على المكانة المحددة للأفراد داخل الابنية الاجتماعية والاقتصادية. وإذا نظرنا إلى المرأة العربية فإننا نجد أن المدخل الذي نتبناه - وهو الذي يعطي أهمية مطلقة لدور العوامل الثقافية - هو المفسر للكثير من التحديدات التي تواجه المرأة في سبيل مشاركتها داخل الوحدات الانتاجية أو حتى داخل المجتمع ككل. ويمكن توضيح ذلك في النموذج التالي :

المتغير المستقل ⟵	المتغير الوسيط ⟵	المتغير التابع
القيم الثقافية	النظام الاجتماعي	مكانة المرأة
الاعراف	ظروف العمل في	تقسيم العمل
التقاليد	الوحدات الانتاجية	الادوار المهنية
	قوانين العمل	المشاركة في سوق العمل والانتاج

حسب هذا النموذج ، فإن مشاركة المرأة العربية في العمل ، هي نتيجة مباشرة للنظام السائد ونوعية البني الاجتماعية وتوزيع العمل حسب الأدوار والتي تحدد من قبل القيم الثقافية السائدة والتي لها القداسة والهيمنة على كل ما يحدث في الحياة العربية . وأي تغير في مشاركة المرأة في العمل لا يتم بشكل فعال إلا إذا تم أحداث تغيرات جذرية من إنساق الثقافة والقيم والاعراف السائدة .

٢- مشاركة المرأة العربية في سوق العمل : وقائع ومعدلات إحصائية :

هناك العديد من الدراسات والكتب والمقالات - بقلم رجال ونساء - عن أوضاع المرأة العربية العاملة . وغلب على هذه الدراسات الطابع الأدبي والتوثيقي أكثر من كونها دراسات سوسيولوجية أو حتى تاريخية[٢٨] . ويمكن الإشارة وباختصار إلى الصعوبات التي تواجه الباحث عند التصدي لهذه الدراسات :

١- تفتقر معظم هذه الدراسات إلى منهج واضح أو بيان الطريقة التي لجأ إليها الباحث للوصول إلى معلوماته ومن ثم أحكامه . ولهذا ، غلب على معظم هذه الدراسات شكل الانطباعات الشخصية وحملت باحكام قيمة عن آمال وطموحات كاتب أو كاتبة الدراسة بالنسبة لأوضاع المرأة في سوق العمل . فالدراسات من هذا النوع ، مثالية تتجاهل الواقع ، ولا تفسر لماذا هذه المكانة « المتدنية » للمرأة في سوق العمل . هذا بالإضافة إلى الدراسات والمقالات التي يكتبها الهواة والرحالة والصحفية .

٢- ومن ناحية أخرى ، نلاحظ غموض المصطلحات والمفاهيم المستخدمة مما ينشأ عنه غموض ما يقصده الكاتب وصعوبة الاستدلال على صحة ما يقول ، وبالتالي عدم الدقة في تقييم أوضاع المرأة . ومن الأمثلة الواضحة على غموض المفاهيم ، استخدام مفهوم « عمل المرأة » ، « مشاركة المرأة » ، « ادماج المرأة » ، « التحرر الاقتصادي » ... إلخ هذه المصطلحات وغيرها تستخدم بدون تحديد من قبل الكاتب أو الكاتبة ، ولهذا ، توحي بمعان غامضة إن لم تكن متناقضة[٢٩] .

٣- وحتى البحوث القليلة التي ارتكزت إلى منهجية واضحة في أساليب البحث العلمي واستخدمت البيانات الإحصائية والدراسات الميدانية حول قضايا المرأة العاملة ، فان الافتراضات التي انطلقت منها هذه الدراسات ، وبالتالي النتائج التي توصلت إليها لم تخل من تأثرها بالموجهات النظرية والايدلوجية للباحث . زد على ذلك غياب النظرة المقارنة ، فقد يكون هامشية وتابعية المرأة في نظم الانتاج راجعا إلى خصائص البنى الاجتماعية والاقتصادية التي تعيش فيها ، ولكن للاسف لانجد هذه المقارنات سواء على الجانب الإحصائي أو الدراسات الميدانية عبر ثقافات وبيئات عربية متباينة .

٤- وأخيراً ، فان هناك دراسات تعكس بشكل واضح تحيز الكتّاب - خاصة الغربيون واقرانهم من الكتّاب العرب في الحكم على موقف النساء العربيات . هذه الدراسات تنطلق من أحكام قيمية مستمدة من ثقافات غربية صرفة ولا يمكن أن تنطبق بحال من الاحوال على النساء العربيات . ولهذا جاء وصف حياة النساء

العربيات والانشطة التي يقمن بها والجهود التي يبذلنها في غير موقعها الصحيح من قبل هؤلاء الكتّاب . ولهذا فان الانطباع العام ، ان هذه الدراسات تسئ إلى وضعية المرأة العربية أكثر من مساهمتها لفهم هذه الوضعية[٣٠] .

أ - المرأة العربية وسوق العمل :

بدون الدخول في وضعية المرأة العربية في التاريخ العربي ، أو ما منحها الإسلام من حقوق ومنزلة أرفع مما يشهده الواقع الفعلي ، فان المرأة العربية قد قطعت شوطا كبيرا في مجال العمل والانتاج والتطور والوعي الحضاري . فالاحصاءات في الربع الاخير من القرن العشرين تشير بوضوح إلى أن هناك تطورات سريعة وجادة لافساح المجال أمام المرأة العربية في ميادين التعليم والعمل . فبعد أن كانت الأمية في السبعينيات تقدر بالنسبة للنساء العربيات بأكثر من ٧٠٪ ، فان هذا الوضع بدأ يتغير في معظم الدول العربية ، وفتحت المدارس والجامعات لتعليم البنات . وخرجت المرأة للعمل في معظم الدول العربية . وبالرغم من أن المرأة الغربية قد اقتحمت كل مجالات الأنشطة الاقتصادية وتقلدت مناصب قيادية ومكانات مهنية ، إلا أن المرأة العربية لم تحقق هذا . فلقد كان متوسط مساهمتها منخفضا إلى حد ما ، وقد يرجع ذلك إلى العديد من العوامل الثقافية والاجتماعية . حقيقة ، نجد أن هناك مجموعة من الدول العربية مثل : مصر - سوريا - الجزائر - لبنان - تونس - المغرب - والسودان ، وقد أعطت المرأة الفرصة في التعليم ومن ثم المشاركة في مجال العمل الرسمي ، إلا أن هناك مجموعة أخرى من الدول العربية - خاصة دول الخليج العربي - رغم اعطائها المرأة الفرصة للتعليم ، إلا أن الرجال بصفة عامة يرفضون اشتغال المرأة في سوق العمل ويرفضون ان يراها آخرون .

ولاشك ، أن أنماط المعيشة في المجتمع العربي (بادية - ريف - حضر) تؤثر بشكل واضح في توزيع العمل بين الجنسين . فالمرأة البدوية ، عدا الحرب ، تقوم بجميع الأعمال المنزلية، وتهتم بالرعي والصناعات الغذائية والحياكة وتذهب إلى الأسواق للشراء والبيع[٣١] . ففي المجتمعات البدوية التقليدية ، حيث العلاقات

الاقتصادية السائدة والتي تتميز بتخلفها، أفرزت نمطا معينا من الانساق القيمية جعلت من المرأة إنسانا ضعيفا يحتل مركزا دونيا، وخصص لها مكانا في المنزل بعيدا عن مكان الرجال. فهي لا ترى الرجال ولا تجتمع بهم على الاطلاق. واحاط المجتمع المرأة بسياج من العزلة وأصبح لها البرقع أو الفشوة أو الحجاب. أما في مجتمع الغوص، وهي حرفة سائدة في مجتمعات الخليج التقليدية قبل اكتشاف النفط، فان غياب الرجل عن المنزل لمدد قد تطول أكثر من ثلاثة شهور، فان المرأة ساهمت في إدارة شئون المنزل. وتحت ضغط العوز الاقتصادي للأسرة، « تضطر زوجة الغواص - بعد ما ينفذ ما في اليد من المال إلى الاشتغال باي حرفة تدر عليها مورداً مالياً يحفظ حياءها ويساعد أسرتها لحين عودة الزوج... كأن تقوم مثلا بخياطة الملابس النسائية، أو القيام بغزل العباءات وتطريز الملابس وصناعة السلال والحصر والسفيف... أو العمل كخادمة... كما تضطرها الظروف في بعض المناطق إلى أن تتجه للبحر تزاول مهنة الصيد أو تساهم في عملية تمويل السفن العابرة أو الغوص أحياناً»[٣٢].

وحسب الإحصاءات المتاحة فان حجم النساء العربيات يقدر بحوالي من ٨٠ - ٩٠ مليون، منهن حوالي ٤٠ - ٤٥ مليون امرأة بسن العمل، ولهذا فاننا عندما نتكلم عن المرأة العربية المؤهلة للعمل فاننا نتكلم عن قوة عمل توازي ٤٠ مليون امرأة. وبالرغم من أن معدل السكان الناشطين اقتصاديا في المجتمعات العربية لا يتعدى ٢٧ر١٪، فان النساء تشكل ٩٪ فقط من اجمالي السكان العاملين في الوطن العربي (مقارنة بنسبة ٢٦٪ في المجتمعات النامية الأخرى و ٢٢ر٣٪ من اجمالي القوى العاملة في امريكا اللاتينية). وتشير الإحصاءات المتاحة أن نسبة الاناث المشتغلات من مجموع الاناث في الوطن العربي لا تزيد عن ٣٪ في دولة قطر و ٦٪ في ليبيا والسعودية و ١٨٪ في العراق ولبنان وتونس. وتلعب النساء العربيات دوراً كبيراً في النشاطات الاقتصادية الزراعية، حيث عمل النساء في المزارع العائلية: ولكن بانتقال الأسرة إلى المدينة، تتقلص أعداد النساء المشاركة في القوى العاملة[٣٣].

وبمراجعة الإحصاءات المتاحة، نجد أن النساء العاملات في القطاع الزراعي يمثلن

١ر٦٦٪ في العراق ، ٨ر٦٩٪ في الاردن ، ٢ر٩٢٪ في الصومال ، ٥ر٧٨٪ في السودان ، ٢ر٨٧٪ في اليمن . أما عن عمالة النساء في قطاع الخدمات ، فإن النسب على النحو التالي : ٧٥٪ في البحرين ، ٤٣٪ في مصر ، ٤٥٪ في العراق ، ٥٧٪ في لبنان ، ٩٥٪ في قطر ، ٩٣٪ في الإمارات . وجاءت نسبة تمثيل المرأة العربية في قطاع التصنيع والبناء والتشييد منخفضة جداً حيث بلغت ١٠٪ من النساء العاملات في مصر ، ٣ر٦٪ في الاردن ، ٣ر١٠٪ في العراق ، ٤ر١٪ في الكويت[٣٤] .

ويمكن استخلاص بعض الحقائق من مراجعة الإحصاءات الكاملة حول عمالة المرأة العربية :

١- إن نسبة اشتراك المرأة العربية في قطاعات الاقتصاد المنتجة متدنية للغاية ، بينما يستقطب قطاع الخدمات والقطاع الزراعي الاغلبية الساحقة من النساء العاملات في المجتمع العربي. وقد يرجع ذلك بسبب أن نسبة النساء في مواقع التأثير واتخاذ القرار مازالت ضعيفة ، وهذا يحرم النساء من فرص احداث التغيرات في السياسات الخاصة بالعمل والعمالة .

٢- إن الإحصاءات لا تكشف عن الجهود الحقيقية التي تبذلها المرأة العربية خاصة في القطاع الزراعي ، حيث تعمل المرأة العربية في مزرعة العائلة بدون أجر . «فالنسبة الأكبر من النساء العربيات ، يعملن ولساعات طوال ، ولكن عملهن غير موجه ولا يحصلن على مردود يتناسب مع الجهد المبذول »[٣٥] ولهذا جاءت الارقام مضللة حيث أن الاحصاءات لا تشتمل على مجموع النساء اللاتي يعملن ويساهمن في اعالة اسرهن ، ولكن في مجالات غير منتظمة وغير مشمولة باهتمام الاجهزة الإحصائية القومية .

٣- ينحصر النشاط الاقتصادي للمرأة العربية في مهن معينة ، خاصة التعليم والتمريض . ففي الاردن نجد أن استخدام قطاع الخدمات والإدارة العامة للنساء العاملات بحوالي ٧٠٪ وفي الخدمات التعليمية ٤٨٪ ، وفي الإمارات بلغت نسبة النساء اللاتي يعملن في مهنة التعليم وصلت إلى ٦ر٤٦٪ . أما عن

التمريض فجاءت نسب النساء على النحو التالي : ٨ر٧٤٪ في البحرين ، ٩ر٦٣٪ في الاردن ، ٦٩٪ في الكويت[٣٦] .

٤- أما عن نسبة النساء الناشطات اقتصاديا واللاتي يعملن في فئة العمالة المهنية والفنية ، فجاءت على النحو التالي : ٩ر٣٪ في المغرب و ٢ر٢٠٪ في لبنان ، ١ر٤٣٪ في قطر ، ١ر٢٨٪ في ليبيا . أما فئة الإناث العربيات العاملات في الفئات المهنية الإدارية فجاءت النسبة منخفضة جداً حوالي ١٪ (في مصر بلغت هذه النسبة ٧ر١٠٪ بينما جاءت النسبة ٥ر٠٪ في ليبيا) ، وتأتي نسبة الاناث العاملات في الاعمال الكتابية بحوالي ١٣٪ في الوطن العربي ، تلي ذلك نسبة ٤٪ للنساء اللاتي يعملن كعاملات للمبيعات . وترتفع النسب المئوية للنساء العاملات إلى اجمالي الاناث العاملات من السكان في قطاع عمالة الخدمات . ففي مصر ٦ر٧٪ ، ٤ر٢١٪ في لبنان ، ٨ر٢٧٪ في البحرين ، ٣ر٤٥٪ في الكويت . ويلاحظ ميل المجتمعات النفطية إلى المحافظة على عدم تشغيل النساء في المهن الحرفية ، وتقتصر دورهن على المهن المتعلقة بالخدمات الاجتماعية والإدارة العامة والتمريض والتعليم[٣٧] .

وهناك اتجاه قوي الآن لاعطاء المرأة الحق في العمل ، حيث يرى أصحاب هذا الاتجاه أن تخلف المجتمع العربي يعود لانعدام حرية المرأة وعدم اطمئنانها على مستقبلها لكونها عضوا غير منتج في المجتمع . وجاءت الدراسات الخاصة بالاتجاهات نحو عمالة المرأة العربية مؤكدة لهذا الاتجاه ، مع بعض التحفظ على دورها الأسري . ففي دراسة أجريت في الكويت حول استخدام المرأة جاءت النتائج مؤكدة « إن موقف الناس المتصلب ازاء أستخدام النساء أخذ يلين ، لكنه مازال بشكل عام يتميز بكونه محافظا . فلقد كان ٧٠٪ من الذين اجابوا لا يعترضون على عمل المرأة . . . (في) الاستخدام لدى الحكومة وبخاصة التدريس كالحقل المفضل للعمل . . . ومن ناحية أخرى ، حين وضعت الأفضليات بين العمل والمنزل ، اعتبرت الأغلبية ان المنزل أهم من العمل . »[٣٨] . ونفس الشيء جاء في دراسة أخرى أجريت في لبنان حيث أن النظرة المحافظة لعمل المرأة اللبنانية في الريف أخذت تلين في فجاءت ٢٠٪ من الاجابات في

جانب العمل خارج المنزل ولكن في مهنة التدريس والتمريض والوظائف في المكاتب . كذلك الدراسة التي اجريت في الاردن تشير إلى « تراخ في الموقف السلبي إزاء استخدام النساء » . وذلك بسبب العوامل الثقافية والعائلية التي مازالت تشكل المحور الرئيسي المحدد لعمالة المرأة ونوعية المهنة لها . فالذين يفضلون حقل التدريس للمرأة، يرجع تفضيلهم لهذه المهنة لأنها توفر أدنى حد من الفرص للاختلاط بين الجنسين . وتمتنع بعض الدول العربية عن تعيين النساء المتزوجات بسبب التزاماتهن العائلية التي يفترض أنها تصرف انتباههن عن العمل[٣٩] .

ما نخلص إليه من كل ما سبق ، أن وجود المرأة العربية في سوق العمل مرهون بالقيم الثقافية المحددة للادوار ولتقسيم العمل بين الجنسين . « فوجود المرأة العربية داخل هذه البيئة الاجتماعية وذبذبة الظروف المحيطة بها ، والصراع القائم بين الافكار المتحررة والتطور العلمي والتكنولوجي من جهة والتقاليد والعادات المتوارثة والمقيدة لحرية المرأة وعملها من جهة أخرى ، تجعل تحليل المشاكل التي تواجه المرأة العاملة العربية أمراً ليس بالسهل »[٤٠] .

وسوف نناقش في الجزء التالي اسهام كل من المرأة الريفية والحضرية في سوق العمل والانتاج في نموذج المجتمعات النفطية ونموذج المجتمعات الغير نفطية .

ب - المرأة الريفية وسوق العمل :

إن « العمل » هو المقياس الحقيقي لدور ومكانة أي إنسان ، فبالعمل يحقق الإنسان مكانته التي يحددها المجتمع . ومن هنا ، فان لكل مجتمع نظرة معينة للعمل ونوعية واختلافه بحسب السن والنوع والوظيفة وغير ذلك من المتغيرات البيولوجية والاجتماعية والثقافية . ومع دخول النظام العالمي الدول النامية - بما في ذلك الدول العربية ، فقد حدثت تغيرات في حياة الإنسان - خاصة النساء ، حيث كان هذا سببا في هبوط فئات عديدة من موقعها الاجتماعي المميز الذي كانت تحتله سابقا . فالمرأة في كثير من مجتمعات العالم الثالث كانت ومازال تقوم بالأعمال الزراعية . ومع دخول نظام التحديث الزراعي قلت مشاركة المرأة في الانتاج وبالتالي هبط موقعها في

السلم الاجتماعي وتقلص دورها واقتصرت على المنزل . ومع زيادة الزراعة التجارية والاعتماد على المحاصيل النقدية ، تراجع دور المرأة لأن المعايير الجديدة للعمل لا تهتم إلا بنمو الانتاج لتحقيق الربح والاعتماد على الانتاج الزراعي الكبير ، بدلا من الاعتماد على اقتصاد العائلة . نفس الشيء يمكن أن يقال عن الصناعة الريفية حيث كان مشاركة المرأة في الصناعات الخفيفة ، مما حد من تقدم المرأة في شغل المناصب العليا في المصانع والتنظيمات الصناعية[٤١] .

ومع الاعتراف بان هناك جوانب فنية مثل نقص التدريب وارتفاع نسبة الأمية بين النساء الريفيات ، فإن هناك عوامل أخرى حقيقية هي التي حدت من مشاركتها في الآونة الأخيرة في سوق العمل والانتاج ومنها التميز في التعليم ، تقسيم العمل حسب الجنس ، قلة فرص العمل أمام النساء ، العمل غير مدفوع الأجر (كالأعمال المنزلية) . هذا بالإضافة إلى الاتجاهات التقليدية في النظرة إلى المرأة والقوانين والتشريعات التي تكرس الوضع الراهن[٤٢] .

وكل الدراسات والبحوث تشير إلى أن المرأة الريفية في الدول العربية بصفة عامة، وفي مصر بصفة خاصة ، لعب دوراً هاماً في عملية الانتاج حيث انها تقوم بجانب أعمالها المنزلية بمساعدة الرجل في بعض العمليات الزراعية ، بالإضافة إلى بعض الصناعات اليدوية كصناعة السجاد والحصر والألبان وتربية الماشية والدواجن ، وفي كثير من الأحيان تتولى المرأة نقل الخضار من القرية إلى المراكز والمدن . وفي الأوقات التي يغيب فيها الرجل - سواء للسفر للعمل في دول أخرى أو بسبب المرض أو الوفاة ، فانها تتولى بعض مهام الدور الاجتماعي كرب الأسرة والذي ينطوي على اتخاذ القرارات الخاصة بالمنزل ومشترياته وتربية الأطفال والتعليم وغير ذلك . وقد تضطر المرأة الريفية - تحت ضغط العوز الاقتصادي للأسرة للعمل في المصانع القريبة من القرية أو العمل لدى الغير بأجر مدفوع[٤٣] .

وبالرغم من عدم وجود إحصاءات لعمالة النساء الريفيات سواء في مصر أو الدول العربية ، إلا أن مساهمة المرأة الريفية في المشروعات الحكومية (مثل تجربة التنمية

الريفية المتكاملة بمحافظة الشرقية ، المشروع التجريبي للتنمية الريفية والبيئية بمحافظة الاسماعلية) والمشروعات غير الحكومية (مثل مشروع التنمية الريفية في محافظة قنا ، مشروع الطاقة الشمسية وتنمية القرية بمحافظة الشرقية ، مشروع قرية سنديون بمحافظة القليوبية ، وغيرها) تشير بوضوح إلى مشاركة المرأة بفاعلية في المشروعات التنموية[٤٤] . ولهذا ، فإن المرأة الريفية بحق « العمود الفقري للاقتصاد الريفي[٤٥] ، وهي قوة انتاجية واضحة « فمن جهة تقوم بمساعدة الرجل في أعمال الحقل المتنوعة حتى الشاقة منها كالعزيق لا يخلو الأمر من مشاركة المرأة فيها بصورة أو بأخرى . ومن جهة أخرى فهي مسئولة بصفة مباشرة عن المخازن العائلية الاستهلاكية والانتاجية وهي التي تعد التقاوي المستبقاة من محصول العام السابق لاستخدامها في الفترة الانتاجية الجديدة ، ومسئولة أيضاً عن تجميع السماد البلدي المتراكم في حظيرة الماشية الملحقة بالمنزل تمهيداً لنقله إلى الحقل ، وتقوم بالجهد الغالب لتصنيع مواد الوقود للفرن المنزلي من مخلفات الانتاج الزراعي في شكل أقراص تخزنها فوق أسطح المنازل بل أن الانتاج الحيواني صغير الحجم يعد من مسئولياتها الرئيسية خاصة العناية بغذاء الماشية وحلب اللبن وتصنيعه ، علاوة على أن الانتاج الداجني العائلي يكاد أن يكون حكرا عليها فهي التي تشرف على كافة مراحله بل وتتعداها في عديد من الاحيان إلى مراحل التسويق الأولى »[٤٦] .

إن مشاركة المرأة الريفية في دائرة الانتاج العائلي في الريف والبادية لا يغير من مكانتها . ولعل السبب وراء ذلك في القيم الثقافية المحددة لتقسيم العمل بين الجنسين والادوار الملحقة بالمرأة والتي من أهمها انتاج الجنس البشري . فمهما شاركت المرأة في الانتاج سواء داخل العائلة أو خارجها وسواء باجر أو بدون اجر - فان مكانتها محددة ومحكومة بمكانة زوجها ، وعائلتها أو الطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها .

ج - المرأة الحضرية وسوق العمل :

وفي المدينة حيث التحرر من القيود الثقافية ، فان المرأة العربية يختلف اتجاهاتها نحو العمل المنتج بحسب الطبقة التي تنتمي لها وحسب الحاجة الاقتصادية لاسرتها .

فنساء الطبقات الدنيا يعملن لقاء أجور منخفضة ، وهناك زيادة في عدد نساء الطبقات المتوسطة التي يعملن في التعليم والإدارات الخدمية والخاصة . أما نساء الطبقة الغنية ، فاقبالهن على العمل محدود فهن مترفات ومنصرفات إلى التسلية والرياضة والزيارات والسفر واقتناء الملابس الفاخرة والمجوهرات. وفي جميع الحالات ، فان عمالة المرأة العربية في المدينة العربية بصورة عامة ، هو عمل هامشي، وهي بعيدة عن النشاط التجاري والحرفي والاعمال التي تقوم بها هي امتداد لعملها في المنزل ويغلب عليها طابع الخدمة . وحتى ولو عملت المرأة في المدينة ، فان الذي يدفعها إلى ذلك غلاء المعيشة وتحسين أوضاع الأسرة . ولهذا ، فهي تسلم راتبها للزوج للتخفيف من أعباء العائلة أو لشراء ما تحتاج إليه الأسرة من مواد استهلاكية أو كمالية . ويخلص حليم بركات إلى أن « أنماط المعيشة في المجتمع العربي ، تعتمد توزيعا للعمل يحيل المرأة إلى كائن هامشي ، عاجز ملحق بالرجل وفي خدمته . ومن الواضح أيضاً أن تزايد أعداد النساء العاملات بدأ يغير هذا الواقع ، ولكنه تغير في الشكل والمظاهر وليس في الجوهر ، لأن عمل المرأة لا يزال عملاً مسانداً وامتداداً لنظام الخدمة في المنزل »[٤٧] .

١- نموذج المجتمعات النفطية (المجتمع القطري) :

هناك العديد من المؤتمرات والندوات التي عقدت لمناقشة موضوع المرأة العربية بصفة عامة وموقعها في سوق العمل والعملية الانتاجية بصفة خاصة ، وشملت هذه الدراسات والبحوث وضع المرأة العربية في الأقطار العربية النفطية والمحددات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي تعوق مشاركتها الحقيقية في العملية الانتاجية ومن ثم التنمية المجتمعية[٤٨] .

وبصفة عامة يمكن القول بانه يمكن التميز بسهولة في معظم الدول العربية بوجود تقسيم واضح للعمل على أساس النوع ، بغض النظر عن الكفاءات والقدرات والمهارات. ومن الملاحظ ، أن المرأة العربية في دول الخليج كانت قبل الطفرة النفطية تشارك الرجل في كسب رزقه أو مساعدته في عبء المعيشة بالإضافة إلى أعمالها

المنزلية كالمتاجرة في سلع بسيطة أو تربية الماشية . ولكن مع استقرار هذه المجتمعات تدنت مكانة المرأة وانعزلت في المنزل ، إلى أن بدأ انتشار التعليم وفتح لها مجال في سوق العمل مرة أخرى(٤٩) .

وتشير الإحصاءات المتاحة إلى أن عدد النساء العاملات في الأعمال التي تعتبر انتاجية لايزيد عن ٢٪ في دولة الإمارات ، وفي الكويت (عام ١٩٧٤) كما نجد أن نسبة المرأة الكويتية في العمالة ٣ر٥٪ (مع ملاحظة أن نسبة الطالبات في مراحل التعليم وصلت ٤٢٪) ولقد وصلت نسبة الاناث المشتغلات إلى قوة العمل في الكويت (عام ١٩٧٥) إلى ٦ر١١٪ وأن نسبة المشتغلات إلى اجمالي الإناث وصلت ٨ر٧٪ . وفي البحرين وصلت نسبة قوة العمل من الاناث إلى قوة العمل في المجتمع ٥٪ ، وتمثل هذه النسبة ٣ر٣٪ من نسبة الاناث في المجتمع البحريني عام ١٩٧١ . وفي السعودية تصل نسبة قوة العمل من الاناث إلى قوة العمل ٧ر٤٪ وتمثل هذه النسبة ٣٪ من نسبة الاناث في المجتمع السعودي عام ١٩٧٥(٥٠) .

ومن ناحية أخرى ، نجد أن الإحصاءات تشير إلى قطاع الخدمات الاجتماعية يستحوذ على معظم قوة العمل النسائية في دول الخليج ففي دولة الإمارات العربية المتحدة نجد نسبة ٨ر٧٦٪ (عام ١٩٧٥) من النساء يعملن في هذا المجال . وفي البحرين بلغت نسبة من يعملن في هذا القطاع ١ر٨٤٪ (عام ١٩٧١) وفي الكويت بلغت النسبة ١ر٩٥٪ (عام ١٩٧٥)(٥١) .

أما في المجتمع القطري ، فان قوة العمل النسائية في منتصف الثمانينيات قد بلغ في تعداد ١٩٨٦ حوالي ١٠٪ من القوى العاملة . ويشير أحد الباحثين إلى أن هذه النسبة « على ضآلتها تكشف عن تحولات جديدة فيما يتعلق بموقع المرأة داخل تركيب القوى العاملة بوجه عام . وأن بناء القوة العاملة في أقطار الخليج العربية قد ظل لفترة طويلة « بناء ذكوريا » بالدرجة الأولى ، إلا أن التحولات التي طرأت في مجال تعليم المرأة قد أتاحت الفرصة لالتحاقها ببعض المهن التي لا تتعارض مع التراث الحضاري والإسلامي لهذه الأقطار »(٥٢) .

والملاحظ من الإحصاءات المتاحة عن المجتمع القطري[٥٣] - خاصة فيما يتعلق بالعمالة النسائية - أن مساهمة النساء جاءت في القطاع الحكومي القطري ، حيث بلغت نسبة مساهمتها حوالي ٢٠٪ للأعوام ٨٥ - ١٩٨٧ . وهذه النسبة تمثل ٥٠٪ من قوة العمل النسائية الكلية في القطاع الحكومي ، إلا أن اسهامهن في داخل قوة العمل العامة (بقطاعاته الحكومية والخاصة والمختلطة) ، تصل إلى ٩ر١٪ . وقد يرجع ذلك لعوامل اجتماعية وثقافية متصلة بعمل المرأة القطرية . والملاحظ أيضاً أن معظم قوة العمل النسائية في قطاع الخدمات دون القطاعات الأخرى، كذلك فان حوالي ٥٠٪ من النساء الذين يزيد أعمارهن عن ١٥ سنة يتفرغن لإدارة الشئون المنزلية وذلك بسبب ارتفاع نسبة الأمية بهن وحداثة دخول المرأة سوق العمل[٥٤] .

وكما تشير الدراسات ، فإن نسبة كبيرة من النساء القطريات يحجمن عن المشاركة في الاشتغال بالأعمال الاقتصادية خارج المنزل مما ينجم عنه مزيد من تخفيض نسبة المشتغلين منهن باعمال اقتصادية إلى مجموع السكان وبالتالي إلى زيادة عبء اعالة المرأة على الرجل . أما عن اسهام المرأة القطرية في البنية الداخلية للقوى العاملة في الحكومة ، فمن الملاحظ ارتفاع نسبة العاملات القطريات اللاتي يمارسن المهن الفنية العليا حيث يمثل توزيع الذكور والاناث داخل هذه الفئة قسمة عادلة من السكان (٥٠٪ و ٤٩٪ على التوالي) وقد يرجع ذلك لحصول القطريات على مؤهلات جامعية منذ السبعينيات حتى الآن . وكما أشرنا قبل ذلك فان متغيري العمر والتعليم يحددان بشكل واضح مشاركة المرأة القطرية (اقصى مشاركة في الفترة من ٢٥ و ٢٩ عاما ، ٥ر١٨٪ والعاملات الحاصلات على مؤهل متوسط ٢ر٧٦٪) . على أية حال ، فان ارتفاع نسبة تعلم المرأة القطرية مقارنة بالذكور سوف يعني في نهاية الأمر الزيادة المستقبلية للعمالة النسائية[٥٥] .

ويفسر البعض هذا الوضع الخاص بحجم عمالة المرأة النسائية في دول الخليج بان المجتمعات الخليجية « ذات توجهات استهلاكية وتعتمد على الاستيراد من الخارج ، ولهذا فهي محدودة الانتاج وبالتالي محدودية فرص العمل المتاحة للمواطنين مع استيرادها للعمالة الخارجية مع وجود سوء توظيف وتشغيل . وهذا الوضع - أعني

محدودية فرص العمل - سوف يكون في صالح الرجال حيث سطوة الرجال على كل الفرص المتاحة للعمل وبالتالي حرمان المرأة من ممارسة العمل . وإن كانت هناك فرص متاحة للمرأة في العمل بالخدمات ومن ثم تتاح لها الفرصة في تنمية مواهبها وشخصيتها ووعيها الاجتماعي ... وخلاصة القول فإن المرأة الخليجية في كل الطبقات تخضع لنوع من القهر الاجتماعي ويرجع ذلك لتبعيتها للرجل والذي من بدوره تابع لآخر لتصب كل سلاسل التبعية على قاع المجتمع وليس اقتصاديا فقط ونقصد هنا بتبعية الضعيف للقوي والفقير للغني والمرأة للرجل ، زد على ذلك ، فإن الوعي بالمرأة الخليجية سواء وعيها بذاتها أو وعي المجتمع بها لا يأتي من فراغ ، وإنما يتحدد بظروف المجتمع الخليجي ذاته ونمط الانتاج السائد فيه أيضا .. أنه مجتمع أبوي يعتمد دائماً على الرجل .. (ولهذا) فإن أدوار النساء محدودة وقاصرة على الأدوار المنزلية .. وأنها لابد وأن تخضع لسيطرة الرجل .. وأن اختلاطها في الحياة العامة لابد أن يكون في أضيق الحدود وعند الضرورة القصوى .. والرجل الخليجي نتيجة لعوامل تاريخية معقدة استطاع أن يستولى على الأدوار الاجتماعية التي تسمح له بالتسلط اقتصاديا واجتماعيا وأن يضع المرأة في مستوى أدنى من المستوى الذي يوجد هو فيه ، وأن تكون هي موضع استغلاله وتحكم هو ليس على استعداد بان يسمح للمرأة بأن تتحول من وضع التابع له إلى وضع الشريك الحر الإرادة الكاملة الحقوق »[٥٦] .

ولعل من أسباب هذا التحيز في مشاركة المرأة هو النظرة إلى العمل ككل . فالعمل ليس مقدسا كما هو الحال في المجتمعات الغربية . فالدولة تعطي مرتبات لعامة الناس ، وهذا ينقص من الحاجة إلى العمل وفائدته ، يضاف إلى ذلك عدم الجدية والاهتمام بالعمل ، مع كثرة الغياب والتسيب والتهرب من المسئوليات والواجبات . وينجم عن هذا المناخ ، عدم الحماس لعمل المرأة خاصة لو أمنا لها وسائل العيش والرفاهية دون مجهود . وقد يرجع ذلك أيضاً إلى عدم اقدام المرأة للمشاركة في العمل نتيجة وعيها الزائف . أو لأن الزمن الذي تشتغله من عمرها ، زمنا مؤقتا حيث الانجاب الذي يمنعها من الاستمرار في العمل . وأخيراً التشريعات والسياسات

الحكومية التي تحكم عمل المرأة[٥٧] . هذا بالإضافة إلى أساليب التنشئة المهنية للمرأة القطرية[٥٨] .

والسؤال المطروح هنا هو ما هي التأثيرات السلبية والايجابية التي طرأت على مجتمعات الخليج العربي بعد تدفق النفط وتأثير ذلك على وضع المرأة في هذا النموذج من المجتمعات ؟. ومنذ البداية نقرر بان المجتمعات العربية في الخليج لا تختلف كثيراً عن المجتمعات العربية الأخرى . كذلك فالتعميم بان قضية المرأة هناك تختلف عن قضية المرأة في بقية المجتمعات العربية ، أو أن المرأة الخليجية في عمومها تتصف بالترف - هذه التعميمات تتصف بالتسرع وعدم المعرفة بطبيعة هذه المجتمعات . فللمرأة العربية في الخليج قضيتها الناجمة عن خصوصية المجتمع الذي تعيش فيه ولكنها ليست بحال منفصلة عن قضية المرأة العربية . وكما يشير أحد الباحثين بان «المرأة الخليجية لا تشذ عن المرأة العربية لانها تشاركها معظم الهموم ؛ باستثناء أقرب منه إلى الكم منه إلى الكيف »[٥٩] . ولهذا يمكن دراسة وضعية المرأة الخليجية في سوق العمل من خلال القضايا التالية :

١- إن اشكالية المرأة الخليجية ليست في المساواة القانونية الشكلية ولا في حرية التعليم والخروج لسوق العمل . ان اشكالية المرأة العربية والخليجية على السواء هو في « وعيها بإنسانيتها ووعي المجتمع بان المرأة إنسانة . . . فان الوعي بإنسانية المرأة . . هي الخطوة الأولى والرئيسية التي ترغب في أن تحققها المرأة العربية . إن وعي المجتمع بادوار أفراده ووعي المرأة والرجل العربيين بواقع مجتمعهما والذي هو في هذه الفترة التاريخية لم يستطع أن يحقق الاستقلال السياسي والاقتصادي والثقافي الناجز ، هي القضية المركزية في نظرنا »[٦٠] .

إن المشكلة التي يجب أن تناقش هنا هي وعي المرأة العربية في الخليج بذاتها ومحيطها الاجتماعي . فوعيها هو انعكاس للواقع الاجتماعي والثقافي الذي تعيشه. ولهذا ليس بمستغرب أن وعي المرأة العربية في الخليج وعي محدود مرتبط بالمجموعات الاجتماعية والاقتصادية المسيطرة ووسائل الإعلام

التي تشكل وعيا زائفا . وتلخص احدى الدراسات هذا الوعي الزائف للمرأة الخليجية بقضيتها بان الصحافة الخليجية تقدم المرأة في موقعها الاجتماعي التقليدي كزوجة وكأم وربة منزل وطالبة وموظفة وتركز على قضايا الطلاق وقوانين الاحوال الشخصية أكثر من اهتمامها بقضايا الانتاج والعمل والمشاركة السياسية والثقافية والاجتماعية[٦١] .

إن هذا الوعي الزائف راجع إلى انغلاق المجتمع الذي عاشت فيه المرأة الخليجية ومحدودية واقعها السياسي والاقتصادي ، ثم الانفتاح الاقتصادي الذي اعطاها نموذجا واحد من التغيير - نموذج المرأة المستهلكة . فالمرأة العربية عامة ، وفي الخليج خاصة، لها صورتان متناقضتان ولكنهما يتعايشان في مجتمعنا العربي عامة والخليجي خاصة. فهناك صورة المرأة الإعلامية ذات الوعي المزيف «المرأة المرتبطة بالعالم الغربي في كل ظواهره وانكاره، وصورة المرأة التي يجب أن تكون لترضي المجتمع ولتبقي جزءا مقبولاً منه. وهذه الصورة الثانية تتكون من ممنوعات الصورة الأولى »[٦٢] .

إن الوعي الزائف أو عدم الوعي بقضية المرأة والمجتمع في الخليج ، هي المشكلة الأساسية . ويشير أحد الكتّاب عن هذه المعضلة بالاتي : « قضية المرأة في الخليج لا يجب أن تصور على أنها قضية نساء فقط ، وأن حلها يكمن في مساواتها بالرجل ، إن القضية الأساسية في نظرنا هي القضاء على الاستغلال بكل صوره وأشكاله في مجتمع الخليج »[٦٣] .

٢- إن المؤشر الإحصائي لدخول المرأة إلى سوق العمل ، مؤشر غير صحيح بالتحديد في المجتمعات الخليجية ، فدخول المرأة إلى سوق العمل - كما تشير الأرقام والإحصاءات - لا يفسر عزل النساء في مهن التدريس والخدمات الاجتماعية فقط . إن واقع المجتمعات الخليجية يشير إلى أن أعداداً كبيرة نسبياً من النساء ألتحقن في أعمال متعددة ، ولكن الكثير منهن لايجدن ما يعملن . إن المؤشر الإحصائي للانتاج في المجتمعات النفطية وبالتالي قيمة نسبة العاملات في قوة

العمل لا يفسر الواقع المعاش للمرأة الخليجية . فهناك الكثير من المحددات الاجتماعية والثقافية التي تقف أمام مشاركة المرأة الخليجية في الانتاج . فعزوف الفتاة السعودية (٢١٪ بسبب الزواج ، ٥٠٪ لعدم الرغبة في دراسة الطب بعد الالتحاق بالكلية ، ٢٢٪ لأسباب غير معروفة) راجع « لعدم توفر وقت ولي الأمر المتفرغ لتوصيلهن إلى الكلية ، أو عدم تأقلمهن مع الجو الجامعي) والسكن الداخلي أو خوفا من نوعية العمل في المستشفى (لاحقا) التي قد تؤدي إلى الوجود في محيط الرجال »[٦٤] .

٣- إن طبيعة المجتمع الخليجي له تشكيلة اقتصادية واجتماعية وثقافية معينة . فهو مجتمع قبلي وفي الوقت نفسه تتقابل فيه المدينة والريف والبادية ، وتسيطر عليه علاقات قبلية . ولاشك ، أن ظهور النفط قد أثر على وضعية المرأة ، ولكن تأثيره كان « صامتاً ». فالبناء الجديد جعل من العائلة والقبيلة أساس البناء الاجتماعي ، فلم تتغير علاقات الزواج ولا علاقة المرأة بالأسرة . فقد حدث التغير في الشكل وليس في المضمون نتيجة الرغبة في استمرار العلاقات الاجتماعية التقليدية . فالعائلة والقرابة والقيم المحددة لسطوة الرجل وسيطرته هي العوامل التي أدت إلى عزل المرأة اجتماعياً وثقافياً وجعلها عاجزة على الحصول على حقوقها المشروعة بما في ذلك حقها في اختيار المهنة التي تريدها .

٤- إن الاتجاهات نحو العمل الانتاجي قد حدث بها تحول في مجتمعات الخليج . فالدراسات التي اجريت في عام ١٩٧٩ تشير إلى « أن تغيرا واضحا لم يطرأ على اتجاهات المجتمع (القطري) نحو تعلم الفن والعمل الانتاجي الفني اليدوي »[٦٥] . وإن النظرة أي الانتاج وعلاقته بالعمل والقيم المرتبطة بها لاتزال سلبية . « فالعمل ليس مقدساً له قيمة في مجتمعات الخليج كما هو الحال في المجتمعات الأخرى . إن اتجاه دول البترول نحو أن تكون دول رفاه أي اعطاء مرتبات ومخصصات دون عمل بالنسبة لعامة الناس - هذا ينقص من الحاجة إلى العمل ، ويؤدي .. إلى كثرة الغياب والتهرب من المسؤوليات والواجبات وتعطيل الأعمال دون سبب ، أي باختصار انعدام اخلاقيات العمل »[٦٦] .

وفي دراسة حديثة كشفت نتائجها على أن هناك تحولات اجتماعية واقتصادية للأسرة القطرية ادت بدورها إلى احداث هزة واضحة في ترتيب القيم وفق أهميتها النسبية من سلم القيم المرتبطة بالعمل . فلقد تراجعت قيم تقليدية ارتبطت بالعمل وحل محلها قيم جديدة مثل التلقب المهني محل الانتماء القبلي ، كما ارتفع - نسبياً - قيمة الدافعية للانجاز[٦٧] . أما عن الاتجاهات نحو عمالة النساء والتفضيلات المهنية، فلقد كشفت الدراسة نفسها أن تأثير النسق الثقافي للمجتمع القطري على توجهات القطريات لممارسة أنشطة اقتصادية معينة ، حيث تركزت القطريات في القطاع الحكومي ، وبالأخص التعليم بنسبة ٩٠ر٧٧٪ عام ١٩٩٢ . ولكن هناك تحولات واضحة ومؤشرات ايجابية في انساق القيم الموجهة للسلوك المهني . فرغم استمرار انخفاض نسبة مساهمة المرأة القطرية في سوق العمل ، فان قبول مبدأ خروجها لهذا السوق يعتبر في حد ذاته تحولاً قيميا داخل مجتمع تحكمه الانتماءات القبلية والثقافية التقليدية والتي كانت تناهض فكرة عمل المرأة نظير أجر خارج محيط العائلة. وقد يرجع ذلك أيضاً إلى بعض التأثير السلبي لبعض المتغيرات الاقتصادية والتي قيدت فرص الاختيار المهني ومجالات العمل أمام المرأة القطرية مثل اعتماد الاقتصاد على الاستيراد السلعي المتنوع ، كذلك ارتفاع دخل الفرد القطري والاسرة القطرية ما يجعل بعض القادرين على العمل يحجمون عنه[٦٨] .

٥- إن زيادة عدد المتعلمات والعاملات في دول الخليج لا يعني تلقائيا وضعاً أفضل للمرأة دون النظر إلى العوامل الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية المحيطة بها . حقيقة هناك نسبة ضئيلة من النساء العاملات في الخليج في قوة العمل ، وهناك أيضاً أصوات مسموعة تنادي بالاستفادة من عمل المرأة الخليجية ليحل محل العمالة الأجنبية (رجالاً ونساءً) ، ولكن الحقيقة المنطقية أن تعليم المرأة وعملها في مجتمعات الخليج لن يؤدي إلى « نقلة نوعية » من جراء العمل المأجور . فتفسير وضع المرأة الخليجية اليوم بعلاقات السوق الرأسمالية وسوق العمل قد يؤدي إلى عدم فهم واضح لاشكالية واقعها الملموس . « إن الاحساس

بالغربة الذي يتعاظم لدى تفاعلات واسعة من المجتمع الخليجي ، المرأة والرجل - يعني إن علينا الابتعاد عن التفسيرات الجاهزة ، ومحاولة التعرف بعمق على الجدلية الاجتماعية - الاقتصادية - السياسية الحادثة في هذه المجتمعات ، والتي سوف تؤثر بعمق في تشكيلها في المستطيل ... ومظاهر عمل المرأة كمذيعة أو مدرسة أو حتى كعضو في الشرطة أو الجيش ، لا يعني أبداً انعتاق المرأة العربية في الخليج . إن الانعتاق الحقيقي هو حل الاشكالية الاجتماعية»[٦٩] .

٦- إن ظهور النفط في المجتمعات الخليجية وما يتبعه من وضع اقتصادي جديد أدى إلى تحولات اجتماعية أثرت بدورها على المرأة الخليجية بشكل إيجابي وسلبي في الوقت نفسه. وهذا لمعرفة وضعية المرأة لابد من التعرف على القوانين الضابطة لايقاع الاشكالية الاجتماعية والثقافية السياسية في مجتمعات الخليج المعاصرة . فالتحرر الظاهر للمرأة والذي اعتقد البعض أنه نهائي ، سرعان ما تبين أنه « فقاعات سرعان ماذابت ، فالوضع القانوني للمرأة مازال أساساً كما هو ، وما يتغير في النصوص استمر في التطبيق وقد حصر عمل المرأة وتعليمها في نطاق مهني ... وحتى يكون وضع المرأة باتجاه التحرر الحقيقي .. لابد أن يكون هناك تغير اجتماعي جذري ، مازالت ترهبه الفئات المسيطرة.. »[٧٠] .

٢- نموذج المجتمعات الغير نفطية (المجتمع المصري) :

إن التحسن الذي طرأ على التوزيع التعليمي للسكان في المجتمع المصري حيث ارتفعت نسبة الاناث المتعلمات - سواء تعليم متوسط أو عالي - قد انعكس بدوره على عمالة المرأة المصرية في مجالات العمل المختلفة . فقد وصلت نسبة الاناث العاملات في عام ١٩٧٦ إلى ٢ر٩٪ من اجمالي السكان (الرجال ٩ر٥٢٪) . ويلاحظ أيضاً ، تطور المهن التي تزاولها المرأة المصرية ، إذ بلغت نسبة المشتغلات بالزراعة ٤٣٪ من جملة الاناث العاملات ، وبالنسبة لاصحاب المهن الفنية والعلمية فنجد أن نسبة العاملات في ارتفاع تصاعدي حيث كانت في عام ١٩٦٠ ٣ر٨٪

وارتفعت لتصل إلى ٢ر٩٪ من جملة العاملات ١٩٧١ ثم ارتفعت في عام ١٩٧٧ لتصل إلى ٢٧٪ من جملة العاملات . كذلك ارتفعت نسبة المشتغلات بالأعمال الكتابية من ٥ر٢٪ إلى ٧ر١٠٪ ثم إلى ٧ر١٩٪ من جملة العاملات في عام ١٩٦١ ، ١٩٧١ ، ١٩٧٧ على التوالي . أما العاملات في قطاع الخدمات فيلاحظ انخفاض النسبة من ٢ر٢٧٪ إلى ١ر١٧٪ ثم إلى ٢ر١٠٪ من جملة العاملات في الأعوام ١٩٦١ ، ١٩٧١ ، ١٩٧٧ ، على التوالي . وقد يرجع ذلك لاتجاه المرأة للبحث عن عمل يتلائم مع مستوى تعليمها وتدريبها [٧١] .

ولاشك ، أن التغير الواضح في نسبة العاملات في المهن المختلفة في الفترة من ١٩٦١ حتى ١٩٧٧ كان مرتبطا بسياسة الدولة التعليمية . فقد شهدت هذه الفترة اقبالا ملحوظ لتعليم المرأة. وكما تشير الإحصاءات ، فانه يلاحظ تناقص نسبة الأمية بين العاملات من ٥ر٧٩٪ عام ١٩٦١ إلى ٣ر٢٩٪ عام ١٩٧٧ كذلك نسبة العاملات اللاتي يقرأن ويكتبن والحاصلات على مؤهلات أقل من متوسط والمؤهلات المتوسطة والتعليم العالي [٧٢] .

وفي دراسة طبقت على القيادات المتوسطة والعليا العاملة في مجال الانتاج الصناعي لتقييم الدور الذي قامت به المرأة المصرية في مجال العمل ، جاءت النتائج تؤيد (٣ر٧٨٪) نزول المرأة ميدان العمل ، في حين أن ٧ر٢١٪ لم يؤيدوا نزول المرأة للعمل ، وذلك بسبب اعتقاد بعضهم (٧ر٥٧٪ من المجموع الكلي للذين رفضوا عمل المرأة) إن طبيعة المرأة لا تسمح لها بالعمل خارج المنزل ، وأن اسمى رسالتها هي التي خلقت من أجلها وهي أن تكون أماً وربة منزل ، أو بسبب الظروف الاجتماعية للمرأة المصرية والمشاكل التي يعاني منها المجتمع المصري مثل : المواصلات (٩ر٢٦٪) ، أو بسبب أن نزول المرأة لمجال العمل قد إأدى إلى ارتفاع نسبة البطالة المقنعة (٤ر١٥٪) أو أن نزول المرأة للعمل قد أدى إلى زيادة القوة الشرائية مما يزيد الاستهلاك ويؤدي إلى ارتفاع الاسعار (٩ر٣٪) وأخيراً هناك من يرى أن نزول المرأة للعمل هو نوع من الانحلال والفساد وأن خروجها للعمل ضد الدين (٩ر٣٪) [٧٣] .

وفي دراسة أخرى اجريت دراسة حديثة لمعرفة اتجاهات المجتمع المصري نحو المرأة وعملها ، جاءت أهم النتائج التي توصلت إليها ، أن موقف الرجل محايد تجاه عمل المرأة، « فالرجل لا يعبّر صراحة عن ذلك وأن كان الواقع نتيجة ظروف المجتمع المصري حالياً ، يؤكد احتياج الأسرة لمرتب الرجل والمرأة معا ، والرجل يعترف بهذا ، وغالباً ما يعبّر (لو أن المنزل غير محتاج لابقيت المرأة في المنزل) وكأن عمل المرأة هو من أجل زيادة دخل الأسرة فقط ، وليس من أجل التنمية الاقتصادية أو اثبات ذاتها . ومن هنا تعددت صيحات البعض بوجوب عدم عمل المرأة وتقاض معاشا شهرياً يعادل الأجر»[٧٤] .

على أية حال ، فإن مشاركة المرأة المصرية للعمل يمكن الإشارة إليه في التالي : تميل النساء الحضريات والأصغر سنا إلى البحث عن العمل أكثر من النساء الريفيات والنساء الأكبر سنا ، كذلك فان نسبة النساء المتعلمات تمثل نسبة كبيرة من القوى العاملة النسائية حيث تصل النسبة إلى ٥٠٪ . كذلك فان النساء العاملات في مصر يعملن في مهن تخصصية عليا وأعمال فنية وكتابية وأن نسبة بسيطة جدا هي التي تعمل في المهن الأنثوية مثل التدريس في المراحل التعليمية ، وهناك أيضاً اتجاه من المرأة المتعلمة لدخول مهنة الطب خاصة طب الأطفال والنساء . ولا تنجذب النساء المصريات إلا بنسبة ضئيلة في الاشتغال في الأنشطة الاقتصادية الخاصة بالبيع أو الفندقة .

وأخيراً ، هناك عوامل أخرى تسهم في انخفاض معدلات مشاركة المرأة المصرية في الاقتصاد والعمل منها « إن الكثير من أصحاب الأعمال والمدبرين يعتقدون أن النساء أقل انتاجية كقوة عاملة من الرجال . وتسهم في تعزيز هذا الاعتقاد بعض العوامل مثل ارتفاع نسبة الغياب عند العاملات الاناث عنها بالقياس إلى نسبة لدى العاملين من الذكور . وينطبق ذلك بوجه خاص على النساء المتزوجات . فضلا عن أن المرأة تسجل أحيانا نسبة عالية في التأخر عن مواعيد العمل الرسمية أكثر من الرجال. ومن المعروف أنه يتعين على المرأة العاملة في كل أرجاء العالم أن تواجه مشكلتها في التوفيق بين أداء مسئولياتها العائلية وبين انجاز التزاماتها المهنية .

ولكن الأمر يزداد صعوبة أمام المرأة العاملة في مصر خصوصا لو أدركنا عدم التأييد الكامل لاشتغالها بل وعدم الترحيب بفكرة اشتغالها خارج المنزل »[٧٥] .

إن خروج المرأة المصرية للعمل كان نتيجة ظروف اقتصادية أساسا ، ولم تخرج للعمل نتيجة اقتناع الرجل وإيمانه بمساواتها الحقيقية ، وبالرغم من القوانين والتشريعات التي تتيح للمرأة العمل، فان هذا ليس تغيرا جذريا في مفهوم الرجل عن المرأة وإنما جاء للضرورة الاقتصادية التي تجعله يرضي بهذا الوضع أملاً في مشاركة المرأة له في المسئولية المالية للأسرة . ومن ناحية أخرى ، فان الغالبية العظمى من النساء العاملات قد خرجن للعمل بوعي زائف عن وضعهن في مكانة أدنى من الرجل ، بمعنى أخر ، أنهن خرجن للعمل وهن غير واعيات بقدراتهن وحقوقهم وواجباتهم نحو أنفسهن ونحو المجتمع الكبير . وتعتقد الكثيرات منهن أن خروجهن ليس إلا لزيادة دخل الأسرة فحسب . ولقد طالبت احدى عضوات مجلس الشعب بضرورة صدور قرار يمنح المرأة نصف مرتبها لتعود للمنزل وتفسح بذلك مجال العمل للرجل . وهذا يشير إلى عدم الفهم الموضوعي لحق المرأة في العلم والانتاج والمساواة وحق الفرصة في اختيار النشاط الاقتصادي[٧٦] .

٣- صور التحديات التي تواجه مشاركة المرأة العربية في سوق العمل :

تواجه المرأة العربية العاملة ، اذن ، مجموعة من التحديات الضاربة جذورها في أعماق التاريخ العربي ومرتبطة بالتركيب الاجتماعي وبالتراث والقيم الثقافية التي مازالت فاعلة . فواقع المرأة العاملة مرتبط بالبني الثقافية والاجتماعية والاقتصادية بكل ما تحمله من قهر وسلطوية . ولهذا ، يمكن القول ، بان تدني وضعية المرأة العربية العاملة راجع إلى التخلف الذي يسود المجتمع العربي ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا من ناحية ، وانخفاض الوعي الثقافي والاجتماعي لغالبية النساء العربيات من ناحيه أخرى. على أية حال ، سوف نحدد بايجاز شديد ، أهم هذه التحديات ، وبالرغم من تداخل هذه التحديات مع بعضها البعض ، فاننا سوف نقسمها إلى مجموعتين :

مجموعة التحديدات الثقافية والاجتماعية ومجموعة التحديدات الاقتصادية والتنظيمية .

أ - التحديدات الثقافية والاجتماعية :

١- إن القيمة الثقافية لأي مجتمع هي المحددة لدور ومكانة الأنثى - وذلك من خلال عمليات التنشئه الاجتماعية وانماط التحصيل والتعليم ووسائل الإعلام - وذلك بهدف تقوية الاحساس بالجنس والانوثة مما يخلق فروقا بين الجنسين وتصبح الأنثى أقل طموحا من الرجال خاصة في المجالات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية . وتلعب القيم الثقافية - التقليدية والحديثة - دوراً هاما في البلبلة الناجمة عن ازدواجية الأدوار التي تقوم بها المرأة العربية . فالمرأة العربية - طبقا للمعايير الحديثة - عليها أن تعمل خارج المنزل ، كما أنها - طبقا للمعايير التقليدية - أن تعمل داخل المنزل . وهذا يعني ، تعددية الأدوار للمرأة. وهذا ، بلا شك ، انعكس على انتاجيتها كقوى عاملة ، كما انعكس أيضاً سلبيا على دورها كأم مسؤولة عن تربية الأبناء . فازدواجية الأدوار وتضارب المعايير قد أفرز مشاكل المرأة العاملة في مجال العمل كالغياب وعدم اجادتها لعملها ومطالبتها بالاجازات والتفرغ لتربية أبنائها ورعاية زوجها . هذه الأزدواجية في الأدوار تفسر عزوف الكثير من الطالبات الجامعيات عن الالتحاق ببعض الدراسات دون سواها واقبالهن الشديد على نوعية أخرى من الدراسات ، وذلك طبقا لمعايير المجتمع ونظرتهن المستقبلية حول المدرسة التي تمكنهن من الجمع بسهولة بين العمل المنزل والعمل خارج المنزل(٧٧) .

٢- لا تزال التقاليد والاعراف السائدة في الدول العربية - خاصة دول الخليج ، تضع الكثير من القيود على مساهمة المرأة خارج المنزل . فلايزال ينظر إلى المرأة على أنها « حاملة شرف العائلة » . ومن أجل هذا تجرى عليها العديد من أشكال العزل المكاني والثيابي (الحجاب) سواء في البيئة الريفية أو الحضرية . وبالرغم من بعض التحرر في بعض المجتمعات العربية كحركة المرأة خارج المنزل ، إلا أن

التحرر نسبي ومرهون بموقف الرجل الذي له الحق في عودة الفتاة إلى المنزل إذا صدر عنها أي تصرف غير مرغوب فيه ، و « يسئ » لشرف العائلة[٧٨] ، إن العزلة الاجتماعية التي فرضت على المرأة العربية ، قد أدت إلى انفصالها عن التيارات الثقافية والفكرية والعلمية في مجتمعها . ولهذا حرمت المرأة الفرصة للمشاركة بمقدراتها وملكاتها لتكون إنسانا فعالا منتجا أكثر من كونها مستهلكة وعالة على الآخرين .

٣- إن مشكلة المرأة العربية العاملة ، ليست مشكلة جنس في مقابل الجنس الآخر ، ولا في مشكلة ايجاد عمل مستقل ، أو زيادة أعداد النساء العاملات ، بل هي مشكلة مجتمعية في المحل الأول . فتحرير المرأة لا يتم إلا بتحرير الرجل أولاً ، وأي اضطهاد أو قمع أو استغلال للرجل في أي مجال اجتماعي أو اقتصادي أو سياسي ينعكس مباشرة على تعامله مع المرأة . ومن أجل هذا ، فان الفحص الدقيق لدونية وضعية المرأة العربية في البني الاقتصادية والاجتماعية وتوزيع العمل والمشاركة في عمليات الانتاج لابد وان تناقش من خلال انماط المعيشة (البادية - الريف - الحضر) والنظام الطبقي والنظام الابوي في المجتمع العربي. فكما آشرنا ، أن المرأة في البادية والقرية محرومة من المسئولية والأجور، وفي المدينة - رغم بعض مظاهر التحرر- إلا الملاحظ أن الأجور الزهيدة لنساء الطبقة الدنيا والاعمال الخدمية لنساء الطبقة الوسطى والترف لنساء الطبقة الغنية . وكما أشرنا أيضاً فأن أنماط المعيشة المختلفة في الوطن العربي تعتمد توزيعا يحيل المرأة إلى كائن هامشي عاجز ملحق بالرجل وخدمته . كذلك الحال بالنسبة للنظام الطبقي السائد في المجتمع العربي حيث علاقات الاستغلال والسيطرة . وهي عملية متصلة ، فالرجل المضطهد في العمل يضطهد زوجته وأولاده في المنزل . إن الأيدلوجية الطبقية السائدة هي حتمية عدم المساواة والتفاوت الطبيعي في المواهب والطموحات . وأخيراً فإن العائلة العربية هي عائلة أبوية هرمية يقوم التمايز وتوزيع العمل فيها على أساس الجنس والعمر . « بتسلط الذكر على الأنثى ، والكبير على الصغير ، انها في صلب التنظيم الاجتماعي ،

وصورة مصغرة للمجتمع ، فتشكل حولها وحدة المجتمع الاقتصادية والاجتماعية فيتوارث فيها الافراد والجماعات هوياتهم وانتماءاتهم الطبقية والدينية والثقافية »[٧٩] .

٤- وبسيطرة النظام الأبوي أصبح الرجل هو « المعيل » وأصبح أفراد العائلة «عيالاً» مهما كانت درجة مشاركتهم له في العمل . جعل هذا النظام الرجل « مركز السلطة والمسئولية والاحترام والارث والانتساب . أنه رئيس العائلة وسيدها ورئيسها يملي أوامره وإرشاداته وتهديداته ، دون أن يتوقع من أفراد أسرته - بما فيهم الزوجة - نصائح هو بغنى عنها . . . ويبدأ الرجل بفقد هذه الامتيازات ويتبدل موقفه من زوجته وأولاده عندما تبدأ المرأة تشارك في العمل خارج المنزل لقاء أجر تسهم في تأمين حاجات العائلة الضرورية »[٨٠] .

٥- التحدي الآخر الذي يواجه المرأة العاملة نابع من وعيها بذاتها أو وعيها الزائف بذاتها . فالتحدي هنا مرتبط بعدم رؤية المرأة لإنسانيتها ووضعيتها ؛ وقد يرجع هذا إلى انغلاق المجتمع الذي تعيش فيه ومحدودية الواقع السياسي والاقتصادي الذي تشارك فيه . كل هذا أفرز نموذجاً واحد خاصه في مجتمعات الخليج : نموذج المرأة المستهلكة ، نموذج المرأة التي يتمشى نمط حياتها مع المصالح الاقتصادية للدول الصناعية الغربية[٨١] . إن المرأة العربية عليها أن تعي « تخلفها ووضعيتها الدونية ويكون التغير نابعا من داخلها وليس منحة معطاة لها من قبل الرجل أو السلطة الحاكمة ويستلزم ذلك منها أن تعي وتعمل على تغير تركيبها النفسي تغيرا جذريا يتلاءم مع متطلبات تغيير وضعها في المجتمع »[٨٢] .

ب - التحديدات الاقتصادية والتنظيمية :

١- إن النظام الاقتصادي الذي ترغب المرأة في المشاركة في العمل به ، هو اقتصاد متناقض بين الاعتماد على الذات والتبعية ، بين الاستيراد والانتاج . ففي المجموعات الخليجية نجد الاعتماد على الايدي العاملة الاجنبية وفي نفس الوقت تسمح بالمطالبة بالاعتماد على الذات وعلى العمالة الوطنية مما يفسح الطريق أمام

المرأة للعمل . ولكن الاقتصاد الخليجي كله « يركض وراء الاستيراد واستهلاك المواد الاجنبية . . (فهو) اقتصاداً اتكالياً يلتزم بالتبعية الكاملة ليعيش وتعيش المرأة ذات الوعي المحدود بين تناقضات الكلمة والممارسة »[٨٣] . إن عزلة المرأة العربية وتقلص دورها في المنزل - نظراً لوجود الخدم والمربيات في مجتمعات الخليج - قد دفعها إلى ايجاد بديل وهو انهماكها في النشاطات الاستهلاكية . وحتى في المجتمعات الغير نفطية جاء نزول المرأة للعمل تلبية لرغبات الأسرة الاستهلاكية ، ولهذا وقف التغير في وضعية المرأة على المستوى الكمي دون تغير يذكر على المستوى الكيفي[٨٤] .

٢- إن المرأة العربية ينقصها التدريب المهني والاستيعاب الامثل لتكنولوجيا العصر . ولكن التدريب المهني المسموح به للمرأة العربية محصورا في مهن الخياطة والتعليم والتمريض والآلة الكاتبة . فاتجاه التدريب في العالم العربي يتجه نحو ابراز الدور الاقتصادي التقليدي للنساء حيث تحضيرهن من أجل مهن معينة في قطاع الخدمات تتمشى مع أدوارهم التقليدية بعد الزواج وانجاب الاطفال . ولهذا ، كانت أساليب التربية والتعليم والتدريب لا تغذي فيها روح التفوق والإبداع في العمل المهني ، بل تغرس فيها ما يسمح لأسرتها باتخاذ القرارات المهمة الخاصة بحياتها بما في ذلك اختيارها المهني[٨٥] .

٣- إن هناك نوعا من القهر الاقتصادي يقع على المرأة العربية العاملة . فاما أن تعمل المرأة العربية داخل منزلها أو داخل العائلة بدون أجر ، أو أن تعمل في الأعمال النسوية والخدمية أو تعمل في مستوى الإدارة الوسطى بعيدة عن المناصب العليا وبعيدا عن المشاركة في اتخاذ القرار حول سياسة القوى العاملة . إن العمل كمفهوم اقتصادي قاصرا على حق الزوج في السماح لزوجته لمساعدته في نفقات المعيشة ، وهذا يقود إلى سهولة الاستغناء عن النساء العاملات عند الضرورة[٨٦] . إن القهر الاقتصادي الواقع على المرأة العربية في العالم العربي يتمثل في أن الغالبية منهن لا ينتمين رسميا الى إحصاءات قوة العمل بسبب عملهن بدون أجر ، ويترب على ذلك حرمانهن من كافة الحقوق الاقتصادية

والاجتماعية التي يوجبها هذا العمل[87] .

٤- كذلك يمكن القول بان هناك نوعا من القهر الاجتماعي يقع على المرأة العربية العاملة خاصة في مجتمعات الخليج ، ويرجع ذلك لتبعيتها الاقتصادية للرجل ، فاقتصاد الدول الخليجية التابع « لا يقف عند حد تبعية نمط انتاجي لنمط انتاجي خارجي بل تصاحبه سلاسل أخرى من التبعية ، فصاحب العمل التابع للخارج ، يسعى لايجاد شخص آخر تابع به لتصب كل سلاسل التبعية على قاع المجتمع اجتماعيا وليس اقتصاديا فقط ، ونقصد هنا تبعية الضعيف للاقوى والفقير للغني والمرأة للرجل »[88] .

٥- إن الوسيلة المستخدمة في كافة الدول العربية لتصحيح وضعية المرأة هو اصدار تشريعات جديدة ، إلا أن التشريع وحده لم يحدث التغيير المطلوب ، فمازال صور التميز ضد تعيين المرأة في بعض الأعمال ، ومحدودية التأمينات الاجتماعية للمرأة ، وعدم وجود دور حضانات لرعاية أطفال المرأة العاملة بجانب مكان عملها ، والمساواة في الأجور والترقي والرعاية الصحية[89] .

٦- إن انخفاض معدلات مشاركة المرأة العربية في مجال العمل يرجع أساسا لطبيعة المؤسسات المستخدمة للنساء حيث يغلب على إدارتها الرجال ، وينقلون إليها نظريتهم الخاصة إلى المرأة . وتعامل النساء في هذه المؤسسات في ضوء هذه «النزعة الذكرية » . فالنساء غير مؤهلات لتحمل مسئوليات كبرى وعملهن مؤقت وغير ضروري ، لذا لا تبذل هذه الإدارات الفرص لتدريب النساء وتطوير قدرتهن وتأهيلهن لتحمل مسؤوليات أكبر ، مما يؤدي إلى ضعف تمثيل النساء في المواقع العليا من الإدارة . كذلك الحال بالنسبة ضعف مساهمة المرأة في مواقع التخطيط واتخاذ القرار . فالمخططون في العالم العربي هم في الأغلب من فئة الرجال . وهذا يساهم في استمرار الوضع الراهن[90] .

٧- كذلك ، كان من أهم أسباب وضعية المرأة العاملة العربية هو ضعف دورها في قيادات النقابات والمنظمات ، وضعف اهتمام قيادات هذه النقابات بأوضاعها

وحاجاتها لاسباب من أهمها سلبية المرأة وترددها في التعبير عن حاجاتها والمطالبة بمعالجتها[٩١] . ومن ناحية أخرى ، ارتبطت الحركة النسائية العربية بشرائح اجتماعية معينة ولم تعبّر عن القاعدة العريضة للمرأة العربية ، ولذا تحول جزء كبير من جهود الحركة النسائية العربية إلى الأعمال الخيرية ، مما أدى في نهاية الأمر إلى تحجيم دورها وفشلها في إعداد المرأة العربية للمشاركة في سوق العمل، وذلك عن طريق تغير وازالة العوائق والمحددات التي تعوقها للقيام بهذا الدور[٩٢] .

٨- ومع انتشار التعليم بمجانية والزاميتة في معظم البلاد العربية ، إلا أنه لم يساعد النساء على تفهم حقهن في العمل . فالتعليم كنظام اجتماعي يعكس تخلف البناء الذي يشكل النظام التعليمي أحد اجزائه . فمحتوى كتب الدراسة تصور المرأة العربية للدور التقليدي كأم وزوجة . وبالرغم من أن القوانين والأنظمة المتعلقة بالتعليم في معظم الدول العربية تؤمن فرص متساوية للتعليم لكلا الجنسين ، إلا أن الواقع يشير إلى تسرب نسبة عالية من الاناث من التعليم بعد المرحلة الابتدائية ، وعدم المساواة في فرص التعليم بين الجنسين في المناطق الريفية والحضرية - هو الشائع في المنطقة العربية كلها . إن من الأمور المتوقعة أن نسبة مساهمة المرأة في النشاط الاقتصادي ترتفع مع ارتفاع المؤهل العلمي ، إلا أن الملاحظ أنه بالرغم من تزايد عدد الاناث العربيات اللواتي يتابعن تعليمهن في المدارس والجامعات إلا أن هذا لم يؤد بالضرورة إلى زيادة حجم اليد العاملة للاناث . ويرجع ذلك - كما أشرنا - إلى دور القيم الثقافية المحددة للادوار والتي تحدد من فعالية تعليم النساء ولا تساعد على زيادة اشتراكهن في سوق العمل[٩٣] .

خاتمـة :

حاولنا في هذا البحث أن نقدم المحددات التي تعوق المرأة العربية - كجزء من القوة العاملة - من ممارسة دورها في سوق العمل ومن ثم التنمية الشاملة . ولقد أشرنا في هذا البحث إلى أنه من الصعوبة بمكانة أن نضع « مقياس » لمفهوم العمل المنتج . فالمرأة الريفية تقوم بالكثير من الأعمال والتي تعود بعائد مادي على الأسرة ككل ، ولكن لا ينظر لها على أنها جزء من القوة العاملة . ولقد بينا خطأ هذا المفهوم حيث أن المرأة الريفية تعد بحق العمود الفقري للاقتصاد الريفي . أما عن المرأة العربية الحضرية خاصة في منطقة الخليج العربي فان الخصائص الاقتصادية والاجتماعية والديموجرافية والثقافية للطفرة النفطية قد آثرت بشكل واضح على تطلعات وتوجهات المرأة الخليجية نحو اشتغالها خارج المنزل . فمن المعروف أن المرأة الخليجية تعش - مثلها في ذلك مثل باقي النساء العربيات - في محتوى اجتماعي وثقافي يسيطر عليه الرجال والقيم التقليدية السائدة . ولا يعني هذا منع المرأة من العمل والتعليم . فهناك دول خليجية أصبح الاتجاه فيها نحو عمل المرأة أقل تشددا من دول أخرى .

إن عمالة المرأة الحضرية سواء في المجتمعات الخليجية أو غيرها مرهون بمفاهيم خاصة بمفهوم عمل المرأة ذاته ، ومرهون أيضاً بمفهوم الوفرة المادية التي تقلل من أهمية الدور الاقتصادي للمرأة في تحسن وضع الأسرة . وحتى في المجتمع المصري فان خروج المرأة للعمل ليس كقيمة في حد ذاته ، وإنما تحت وطأة الظروف الاقتصادية - مشاركة الزوجة في أعباء الأسرة . إن مفهوم المرأة نفسها عن ذاتها مفهوم زائف ، حيث الاعتقاد أن تعلمها وعملها من أجل استمرارية أسرتها . ولهذا تركن المرأة العربية إلى مهن معينة في الوقت الذي يعاني منه سوق العمالة من عجز واضح في مهن أخرى أكثر تخصصية . هذا التحيز نحو اختيار مهن معينة بحد من مشاركتها في قوة العمل الرسمية ويرتبط بنوعية الأدوار الملائمة للمرأة من وجهة نظرها .

إن البحث الحالي يرى أنه من الضرورة بمكانة أن يعاد سياسة تعلم المرأة في مهن جديدة ، وأن يكون هناك علاقة بين الانجاز العلمي والتوزيع المهني للمرأة . فالانجاز

العلمي قد يحدد نوعية المهن التي ترغب الاشتغال بها ، كما يحدد تطلعاتها نحو سوق العمل الرسمي . ومن ناحية أخرى ، فإنه لابد من مراجعة مستمرة لمستويات واتجاهات وتوزيع العمالة حسب النوع والأجور وساعات العمل بهدف التعرف على التغيير الحادث في متوسط حجم العمالة النسائية قياسا بالحجم الكلي للعمالة ، كذلك معرفة مدى التأثير الذي تحدثه العمالة النسائية في بنية المهن داخل المجتمع .

وفي ضوء تحليلنا السابق نستطيع القول باننا توصلنا في هذا البحث إلى نتائج عن التساؤلات التي أثرناها وهي متعلقة بوضعية المرأة العاملة في سوق العمل والانتاج .

١- فلقد اسفرت الدراسة أن العالم العربي - بكل أنماطه المعيشية مازال محكوما بقيود من القيم الثقافية والاعراف والتقاليد المشكلة للهوية العربية . هذه القيم مازالت فاعلة ومسيطرة في تحديد العلاقة بين الجنسين وطبيعة تقسيم العمل والادوار المحددة لكل نوع . ولهذا نؤكد بان القيم الثقافية مازالت هي المتغير المستقل الذي يؤثر بشكل واضح على وضعية المرأة في سوق العمل . أما عن دور المتغيرات الأخرى الوسيطة مثل الطبقة والتعليم والتشريع والتنظيمات الصناعية والاعلام فهي كلها عاكسة للقيم المسيطرة حيث مسئولية الرجل وضعف الانثى وتبعيتها له . إن الواقع العربي بأكمله لم يفرز بعد القيم الثقافية الجديدة التي تؤمن حق المرأة في العمل .

٢- ومن ناحية أخرى ، كشف البحث على أن اختلاف مشاركة المرأة العربية في سوق العمل مرهون باختلاف نموذج المجتمع (نفطي - غير نفطي) . فلقد بينا أن ظهور النفط في المجتمعات الخليجية قد أفرز سلبيات أخرى تضاف إلى التحديدات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي تعاني منها المرأة العربية ، فحيث اقتصاد الوفرة لجأت المرأة الخليجية إلى المشاركة الهامشية في مجال محدودة من مجال التعليم والعمل . ومازالت المرأة الخليجية تعاني من نفس التحديدات التي تعاني منها المرأة العربية في كل ارجاء العالم العربي .

٣- ومن ناحية ثالثة ، بينا أن هناك قهر اقتصادي واجتماعي يقع على المرأة الريفية بصفة خاصة، فهي عاملة منتجة وتساعد في دخل الأسرة ، إلا أنها لا تعد من القوى العاملة نظراً لعدم حصولها على أجر نظير عملها ، كذلك فهي محرومة من كافة الحقوق الاقتصادية الممنوحة للمرأة العاملة باجر . إن هامش الحرية الذي حصلت عليه المرأة الحضرية العربية ودخولها مجال سوق العمل الرسمي لم يؤدي إلا إلى تغيرات كمية ، ولم يؤدي بعد إلى تغيرات كيفية مرتبطة بالوضعية الدونية للمرأة العاملة .

٤- وأخيراً أبرزت الدراسة أن مشكلة المرأة العربية العاملة يرجع إلى وعيها المزيف عن نفسها وعن دورها ؛ هذا الوعي المزيف شاركت المرأة في تشكيله بسلبيتها وعدم انضمامها إلى الهيئات والمنظمات العمالية ، كذلك تعمل التنظيمات الاجتماعية والتعليمية والاعلامية على رسم صورة مزيفة لها تؤكد على دورها داخل نطاق أسرتها وسلطة زوجها .

إن هناك الكثير من القضايا التي كنا نأمل معالجتها في البحث ، وهي قضايا جديرة بالاهتمام مثل : تاريخ المرأة العربية في سوق العمل ، كذلك الدراسة المقارنة لموقع المرأة العربية وسط القوى العاملة والمعوقات التي تواجهها وكيفية التغلب عليها ، وأخيراً هناك أصوات تنادي بعودة المرأة للمنزل مرة أخرى وأن يصرف لها « نصف مرتب» لتعود لوظيفتها الرئيسية تاركة المجال للرجل ، إن حدثت مثل هذه « الردة » الحضرية ، فما هو موقف المرأة من القضية وماموقف الحركات النسائية . هذا ما نأمل معالجته في بحوث مستقبلية بإذن الله .

الهوامش

١- اعتماد محمد علام ، « المرأة في سوق العمل الرسمي - المداخل النظرية ونموذج مقترح لدراسة المرأة في الدول الخليجية » ، شئون اجتماعية : العدد ٣١ السنة الثامنة (خريف ١٩٩١) ، ص ٢٥ .

٢- انظر فؤاد مرسي ، « الرأسمالية تجدد نفسها » ، الكويت : عالم المعرفة ، ١٩٩٠ ، ص ٧٧ - ٨٩ .

٣- اعتماد محمد علام ، المرجع السابق ، ص ٢٥ - ٢٦ .

٤- المرجع السابق ، ص ٢٦ - ٢٨ .

5 - See:

- Blaxall, M. and B. Reagan (eds.) , Women and the Workplace. Chicago and London: University of Chicago Press, 1976.
- Boulding, E. (et al). Handbook of International Data on Women. Califormia: Sage Publications, 1976.
- Boserup. E. Woman's Role in Economic Development. London : Allen and Unwin, 1970.
- Cooper, C.A. and S.S. Alexander (eds.). Economic Development and Population Crowth in the Middle East. New York : Elsevier, 1972. "Fertility Patterns and Their Determinants in the Arab Middle East." By T.P. Schultz.
- Fernea, E.W. and B.Q. Bawirgan (eds.). Middle Eastern Muslim Women Speak. Austin, Texas, University of Texas Press, 1977.
- Fox, M., and Hosse= Biber, Women at Work. London : Mayfield Publishing Company, 1984.
- R. K- Hut, A.K. Daniels and R. Colvard (eds.), Woman and Work : Problems and Perspectives. NewYork : Oxford University Press, 1982.
- Woodsmall, R., F., The Role of Women, Their Activities and Organisations in Lebanon, Egypt, Iraq, Jordon and Syria. Vermont : Elm Tree Press, 1956.
- Youssef , N., H., Women and Work in Developing Societies. Berkeley , Calif. : University of California Press, 1974.

٦- اعتماد محمد علام ، المرجع السابق ، ص ٢٨ - ٢٩ .

٧- المرجع السابق ، ص ٣٠ .

٨- المرجع السابق ، ص ٣٠ - ٣١ .
٩- المرجع السابق ، ص ٣١ .
١٠- يمكن تصنيف الاتجاهات البيئية والاجتماعية إلى ثلاثة اتجاهات هي : الاتجاه النفسي ويقوم على مفهوم فرويد للهوية - والذي يعني أن يقوم الفرد بادماج جوانب مختلفة من شخصيات الآخرين ضمن شخصيته . ولهذا فان الاطفال الذكور يحاكون هوية الآباء والبنات تحاكي في هويتهن الامهات . أما الاتجاه الثاني فيرفض فكرة الهوية كاساس في تفسير التباين بين الذكور والاناث ويستخدم مفهوم « التقوية » - أي اتجاه الطفل لتنمية استجابته الثقافية وفقا لما يتلقاه الطفل من ثواب أو عقاب بسبب انتهاجه سلوكا مغاير للوالدين . ومن منطلق ذلك يحدد سلوكيات لكل من الذكور والاناث . فالادوار النوعية تعتمد على توقعات وسلوك الوالدين وأسلوبهما في المكافأة أو العقاب . أما الاتجاه الثالث من المداخل البيئية فيرفض ميكانيزم « التقوية » ويقترح « التنمية الإدراكية » كبديل في تفسير التحيز ضد المرأة في سوق العمل . ويؤكد هذا الاتجاه على أن عملية تعلم الدور النوعي لا يتطلب بالضرورة سلبية الطفل ازاء سلوك الوالدين أو محاولة ارضائهما . فالطفل قد يكون أكثر ايجابية وتأثيرا في تنمية دوره النوعي من خلال تفاعله مع البيئة التي يعيش فيها . المرجع السابق ص ٣٣ - ٣٤ .
١١- اعتماد محمد علام : المرجع السابق ، ص ٣٥ - ٣٧ ، انطلاقا من مدخل التنشئة الاجتماعية ظهر نموذجين آخرين لتفسير التميز ضد المرأة : وهما نموذج العمل ونموذج النوع. ويركز النموذج الأول على العمالة الذكرية وعلاقات الرجل في القوى العاملة وسمات تلك العلاقة وتأثير خصائص أوضاع العمل على سلوك العامل في حياته العامة خارج محيط العمل ، بينما نجد أن نموذج النوع يركز على تأثير الدوافع الأسرية على اختيار المرأة للمهن الملائمة لها في شئون العمل الرسمي . المرجع السابق .
١٢- يشابه المدخل الفردي ما يعتقده علماء الاقتصاد تحت مسمى مدخل رأس المال البشري . وملخصه أن النساء يتحملن مسئولية انشغالهن بوظائف منخفضة أو معدومة الحراك وذات أجور منخفضة بالمقارنة بالرجال . ويشير مفهوم رأس المال البشري إلى الأبعاد التي تؤثر على قدرة الفرد لكي ينتج في العمل مثل المستوى التعليمي وسنوات الخبرة والتدريب . وطبقا لهذا المدخل فان الأوضاع المتدنية للمرأة في مجال العمل إنما ترجع إلى افتقار المرأة إلى الكفاءات التي تؤهلها لشغل وظائف مرموقة ذات دخل مرتفع ومكانة عالية . المرجع السابق ، ص ٤٥.
١٣- حاول هنج وجاردم Henning and Jardim أن يعدلا من هذا المدخل بان اضافا في دراستهما عن المرأة الإدارية بعض المفهومات الأخرى مثل الخوف من النجاح أو الاعتمادية في مجال العمل ومفهوم الاستراتيجية الفردية ، ومفهوم الرجل والمرأة للمرؤوس في العمل. المرجع السابق ، ص ٤٠ - ٤٢ .
١٤- المرجع السابق ، ص ٤٣ .
١٥- المرجع السابق ، ص ٤٤ .
١٦- المرجع السابق ، ص ٤٥ .
١٧- المرجع السابق ، ص ٤٦ .
١٨- المرجع السابق ، ص ٤٦ - ٤٧ .

١٩- وفقا لمفهوم ميرتون عن المحلية والعالمية فانه يصنف المهن وفقا لتباين النوع حيث توجد مهن ووظائف نسائية نتيجة لكثرة عدد النساء فيها ، وعندما يحدث هذا في مهنة معينة لجنس واحد فان المكانة المهنية للجنس الثاني تكون محط الانظار لقلة عدد الجنس الآخر بها . المرجع السابق ، ص ٤٨ .

٢٠- المرجع السابق ، ص ٤٧ - ٤٨ .

٢١- المرجع السابق ، ص ٤٨ .

٢٢- المرجع السابق .

٢٣- المرجع السابق ، ص ٤٩ .

٢٤- المرجع السابق ، ص ٥٠ .

٢٥- المرجع السابق ، ص ٥٠ - ٥١ .

٢٦- المرجع السابق ، ص ٥٤ - ٥٧ .

٢٧- المرجع السابق ، ص ٥٢ .

٢٨- انظر على سبيل المثال :

- عزيز السيد جاسم ، حق المرأة بين مشكلات التخلف الاجتماعي ومتطلبات الحياة الجديدة ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٠ .
- اورزولا شوى ، أصل الفروق بين الجنسين ، ترجمة بوعلي ياسين ، بيروت : دار التنوير للطباعة والنشر ، ١٩٨٠ .
- روزا شايدولينا ، المرأة العربية والعصر . ترجمة شوكت يوسف ، بيروت : دار الجيل، ١٩٨٠ .
- مونيك بيتر ، المرأة عبر التاريخ . ترجمة هنريت عودي ، بيروت : دار الطليعة ، ١٩٧٩ .
- نوال السعداوي ، المرأة والجنس . بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٢ .

٢٩- حكمت أبو زيد ، « امكانات المرأة العربية في العمل السياسي » في المرأة ودورها في حركة الوحدة العربية . بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٢ ، ص ١٥١ - ١٧٦ .

3 0 - See :

- Fatima, M., Beyond the Veil : Male - Female Dynamics in Modern Muslim Society. New York : Schenkman, 1975.
- Fevnea, E.,W., and Bazirgan, B., O (eds.). Middle Eastern Maslim Women Speak. Austin. : Texas, University Taxas Press, 1976.
- Beck, L., and Keddie, N. (eds.). Women in the Muslim World . Cambridge, Mass. : Harvard University Press, 1979.
- Madeleine, E. W., et.al. (eds,). The Changing Experience of Women. Oxford : Martin Robertson, 1982.

٣١- حليم بركات ، « النظام الاجتماعي وعلاقته بمشكلة المرأة العربية » في ندوة المرأة ودورها في حركة الوحدة العربية ، مرجع سابق ، ص ٥٣ - ٦٧ .

٣٢- باقر سلمان النجار « المرأة وعلاقات الانتاج في مجتمعات الخليج التقليدية » في الجمعية الثقافية الاجتماعية النسائية ، المرأة والتنمية في الثمانينيات : بحوث ودراسات . الكويت، المؤتمر الإقليمي الثاني للمرأة في الخليج والجزيرة العربية ٢٨ - ٣١ مارس ١٩٨١ ، ص ١٧٦.

٣٣- هنري عزام ، « المرأة العربية والعمل : مشاركة المرأة العربية في القوى العاملة ودورها في عملية التنمية » ، في ندوة المرأة ودورها في حركة الوحدة العربية ، مرجع سابق ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

٣٤- المرجع السابق ، ص ٢٦٨ .

٣٥- المرجع السابق ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

٣٦- المرجع السابق ، ص ٢٦٩ .

٣٧- المرجع السابق .

٣٨- انظر : فهد الثاقب ، « المرأة في المجتمع المعاصر » في اللجنة الثقافية الاجتماعية للمرأة، دراسات حول أوضاع المرأة في الكويت والخليج العربي . الكويت : مطبعة فهد مرزوق ، ١٩٧٥ .

٣٩- هنري عزام ، مرجع سابق ، ص ٢٧١ .

٤٠- المرجع السابق ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

٤١- حيدر إبراهيم علي ، « ادماج المرأة في خطط التنمية مشكلات وامكانيات » ، في الجمعية الثقافية الاجتماعية النسائية ، مرجع سابق ، ص ٦٣ - ٦٦ .

4 2 -Shilah, A., People and Culture of The Middle East. NewYork : Random House, 1969.

٤٣- باقر سلمان النجار « المرأة وعلاقات الانتاج في مجتمعات الخليج التقليدية ، « في الجمعية الثقافية الاجتماعية النسائية » ، مرجع سابق ، ص ١٧٠ - ١٨٥ .

٤٤- مركز بحوث الشرق الأوسط - جامعة عين شمس ، أبحاث الندوة الدولية عن المرأة الريفية والتنمية (القاهرة ١ - ٤ ديسمبر ١٩٨٠) ، القاهرة : دار وهدان للطباعة والنشر ، ١٩٨٠.

٤٥- سامية محمد جابر « المرأة والتنمية : دراسة لمكانة المرأة العربية ودورها في التنمية » ، في عاطف غيث وآخرون ، مجلات علم الاجتماع المعاصر : أسس نظرية ودراسات واقعية ، الاسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٥ ، ص ٦١١ .

٤٦- إبراهيم سعد الدين ، « المرأة الريفية والتعاونيات » في مركز بحوث الشرق الأوسط ، جامعة عين شمس ، مرجع سابق ، ص ١٢٦ .

انظر أيضاً : محمد سعيد فرح ، دراسات في المجتمع المصري » . الاسكندرية : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٦ ، ص ٣٧ - ٤٦ .

- محمود عبد الفضيل ، التحولات الاقتصادية والاجتماعية في الريف المصري (١٩٥٢ - ١٩٧٠) ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٨ ، ص ٥١- ٩٣ .

- سامية الساعاتي ، « ديناميات الأسرة الريفية والتنمية : بحث اجتماعي تحليلي » في مركز بحوث الشرق الأوسط - جامعة عين شمس ، مرجع سابق ص ١٣٧-١٥٥.

٤٧- حليم بركات ، مرجع سابق ، ص ٦٠ . عن المرأة والعمل في الوطن العربي .
انظر أيضاً :
- الاتحاد العام لنساء العراق ، دور المرأة العربية في التخطيط القومي للتنمية الاجتماعية ، لجنة المرأة العربية المنعقدة في دمشق ٢٤ - ٢٧ تشرين الأول ، ١٩٧٧.
- حامد عمار ، في الإنسان العربي ، الاسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٨ . ص ٢٨١ - ٤٠١ .
- فوزية العطية ، المرأة والتغير الاجتماعي في الوطن العربي ، بغداد : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ١٩٨٣ .
- موزة غباش ، « أثر القيم على المرأة العاملة في مجتمع الإمارات » في جمعية الاجتماعيين ، دراسات في مجتمع الإمارات ، الإمارات العربية المتحدة : جمعية الاجتماعيين ، ١٩٩٠ ، ص ١٨٧ - ٢١١ .
- نجاة عبد الله النابه ، « المرأة في دولة الإمارات إلى أين » في جمعية الاجتماعين ، مرجع سابق ، ص ١٣ - ٣٦ .
- ناصف ثابت ، المرأة والتنمية والتغيرات الاجتماعية المرافقة ، الكويت : دار السلاسل ، ١٩٨٣ .

٤٨- انظر :
- بحوث المؤتمر الأول للاجتماعيين العرب حول الأسس الاجتماعية للتنمية في الوطن العربي ، بغداد : ٢ - ٦ فبراير ١٩٨٠ .
- سهير لطفي علي ، « دراسة سوسيولوجية لدور المرأة في عملية التنمية المجتمعية في العالم النامي : اشارة لمصر » ، الجمعية الثقافية الاجتماعية النسائية ، مرجع سابق ، ص ٣ - ٣٤ .
- نعيمة محمد عيد ، « دور المرأة العربية في التنمية في الثمانينيات » ، المرجع السابق ، ص ٩٤ - ١٢٣ .
- نوال السعداوي ، « العقبات أمام المرأة العربية والتنمية - مع التركيز على مشكلات المرأة الخليجية » ، المرجع السابق ، ص ١٢٧ - ١٤٦ .
- مصطفى تركي ، « الدافعية للانجاز عند المرأة الكويتية » ، المرجع السابق ، ص ١٨٦ - ٢٠٤ .
- فضة الخالد ، « الدور التنموي للمرأة الكويتية » ، المرجع السابق ص ٢٦٦ - ٢٧٢ .
- عائشة الحسيني ، « المرأة والتنمية في المملكة العربية السعودية » ، المرجع السابق، ص ٤٣٠ - ٤٥٠ .
- عبد الباسط عبد المعطي ، « في الوعي الزائف بالمرأة الخليجية » ، المرجع السابق ، ص ٧٢٣ - ٧٥٤ .

- ماهر سميح النابلسي ، « التعزيزات المقدمة للمرأة العاملة في الاردن » ، المرجع السابق ، ص ٨٣٧ - ٨٥٦ .
- لجنة العمل النسائي ، « رام الله البيرة » ، دراسة ميدانية حول أوضاع المرأة الفلسطينية في المناطق المحتلة ، المرجع السابق ، ص ٩٢٧ - ٩٧٧ .
- وفد اليمن الديمقراطية الشعبية ، « تقرير عن أوضاع المرأة في اليمن الديمقراطية الشعبية » ، المرجع السابق ، ص ٩٧٨ - ٩٨٩ .

٤٩- حيدر إبراهيم علي ، مرجع سابق ، ص ٧٠ - ٧٢ .

٥٠- انعام سيد عبد الجواد ، « العوامل البنائية المحددة للمشاركة الاجتماعية للمرأة الخليجية » الجمعية الثقافية الاجتماعية النسائية ، مرجع سابق ، ص ١٥٥ .
وتشير الإحصاءات إلى أن قوة العمل النسوية بالنسبة لمجموع السكان في بعض الاقطار الأخرى عام ١٩٧٥ قد وصلت إلى ٨ر١٪ في الجزائر ٨ر٤٪ في مصر ٧ر٢٪ في ليبيا ، ٨ر٠٪ في المغرب ، ٣ر٠٪ في تونس ، ٦ر٢٪ في الاردن ، ٦ر٩٪ في سوريا .
انظر : صالحة سنقر ، « أثر تربية المرأة العربية في تحقيق التنمية الشاملة في الجمعية الثقافية والاجتماعية النسائية ، مرجع سابق ص ٢٢٦ .

٥١- انعام سيد عبد الجواد ، مرجع سابق ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

٥٢- محمد علي محمد الكبيسي : « القوى العاملة في قطر : رؤية بنائية وتحليل تتبعي » حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية ، جامعة قطر ، العدد ١٣ ، عام ١٩٩٠ ، ص ٤٥ - ٤٦ . وتشير الإحصاءات الخاصة بعمل المرأة القطرية أن مساهمتها في سوق العمل الرسمي كما تشير نتائج أول تعداد قطري عام ١٩٧٠ لم تتجاوز حينئذ ٢٨٤ . أي أن نسبة مساهمة المرأة القطرية لم تتجاوز ٥ر٣٪ من القوى العاملة الوطنية في هذه الفترة ، وفي عام ١٩٧٥ بلغت نسبة مساهمة المرأة القطرية في القوى العاملة ٢ر٢٪ ، ثم ارتفعت عام ١٩٧٦ إلى ٥ر٣٪ .
أما في عام ١٩٨٠ فقد زادت مشاركة المرأة القطرية بالنسبة لقوة العمل الوطنية أكثر من ثلاثة أضعاف ما كانت عليه عام ١٩٧٠ ، حيث أصبحت نسبة النساء القطريات تمثل ٧ر١٠٪ من مجموع قوة العمل الوطنية .
انظر : محمد حافظ ، أمينة علي الكاظم ، مجتمعات الخليج العربي : بحوث ودراسات في التصنيع والتحضر والقوى البشرية . القاهرة : مطبعة الطوبجي التجارية ، ١٩٩٢ ، ص ٢٨٩ .

٥٣- انظر : عادل حسن غنيم وآخرون ، التاريخ الاجتماعي للمرأة القطرية المعاصرة ، قطر : مركز الوثائق والدراسات الإنسانية ، ١٩٨٩ . الفصل السابع .
السيد الحسيني ، « ملامح البناء المهني القطري (١٩٧٠ - ١٩٨٦) » ، ندوة قضايا التغير في المجتمع القطري في القرن العشرين ، جامعة قطر ، مركز الوثائق والدراسات الإنسانية ، ١٩٩١ ، ص ٨ .

٥٤- محمد علي محمد الكبيسي ، مرجع سابق ، ص ٤٦ . محمد حافظ ، أمينة علي الكاظم ، مرجع سابق ، ص ٣٩٠ .

٥٥- محمد حافظ ، أمينة علي الكاظم ، مرجع سابق ، ص ٣٨٩ - ٤٠٩ .
انظر الملاحق الجداول الإحصائية الخاصة بالمجتمع القطري .

٥٦- انعام سيد عبد الجواد ، مرجع سابق ص ١٦٢ .
٥٧- حيدر إبراهيم علي ، مرجع سابق ، ص ٨٤ .
٥٨- اعتماد محمد علام ، « الأسرة والتنشئة المهنية للمرأة : المجتمع القطري نموذجاً » .ندوة التنشئة الاجتماعية في مجتمعات الخليج العربية ، دولة الامارات العربية المتحدة - كلية الاداب - قسم الاجتماع . ٢٥-٢٧ فبراير ١٩٩٢م .
٥٩- محمد الرميحي ، « أثر النفط على وضع المرأة العربية في الخليج » ، في المرأة العربية ودورها في حركة الوحدة العربية ، مرجع سابق ، ص ٢٣٢ .
انظر أيضاً عبد الباسط عبد المعطي« في الوعي الزائف بالمرأة الخليجية »، مرجع سابق ، ٧٢٣ - ٧٥٤ .
٦٠- محمد الرميحي ، مرجع سابق ، ص ٢٣٣ .
٦١- عواطف عبد الرحمن ، « صورة المرأة الخليجية في الصحافة الخليجية » في الجمعية الثقافية الاجتماعية النسائية ، المرأة والتنمية في الثمانينيات ، مرجع سابق ، ص ٦٤٠ - ٦٨٠ .
٦٢- مركز دراسات الوحدة العربية ، المرأة ودورها في حركة الوحدة العربية ، مرجع سابق ، ص ٢٥٧.
٦٣- محمد الرميحي ، مرجع سابق ، ص ٢٣٦ .
٦٤- انظر سميرة إبراهيم سلام ، « دراسة اسباب انسحاب الطالبات السعوديات في كلية الطب »، في الجمعية الثقافية الاجتماعية النسائية ، مرجع سابق ، ص ٨٥٧ - ٨٩٦ .
٦٥- محمد الرميحي ، مرجع سابق ، ص ٢٤٣ . انظر : محمد أحمد سلامة ، اتجاهات الآباء والابناء نحو التعليم الفني اليدوي وعلاقتها بالمستوى الاقتصادي والاجتماعي . قطر : جامعة قطر ، مركز البحوث التربوية ، ١٩٧٩ .
٦٦- انظر حيدر إبراهيم علي ، مرجع سابق ، ص ٥٤ .
٦٧- اعتماد محمد علام ، التحولات الاجتماعية وقيم العمل في المجتمع القطري ، قطر : جامعة قطر ، مركز الوثائق والدراسات الإنسانية ، ١٩٩٥ ، ص ٤٤٦ .
٦٨- المرجع السابق ، ص ١٨٤ - ١٨٥ .
٦٩- محمد الرميحي ، مرجع سابق ، ص ٢٥٠ .
٧٠- المرجع السابق .
٧١- جلال إسماعيل حلمي ، « المرأة واستراتيجية التنمية في جمهورية مصر العربية » ، في الجمعية الثقافية الاجتماعية النسائية ، مرجع سابق ، ص ٤٥١ - ٤٧٨ .
٧٢- انظر الملاحق الخاصة بالجداول الإحصائية الخاصة بالمجتمع المصري .
٧٣- سهير لطفي ، مرجع سابق ، ص ١٨ - ١٩ .
٧٤- هدى محمد قناوي ، دراسة اتجاهات المجتمع نحو المرأة ، القاهرة : مطبعة جامعة عين شمس ، ١٩٨١ ، ص ٥٤ .
٧٥- سامية محمد جابر ، مرجع سابق ، ص ٦١٢ - ٦١٣ .
٧٦- هدى محمد قناوي ، مرجع سابق ، ص ٥٤ .
٧٧- سهير لطفي ، مرجع سابق ، ص ٤ ، ٢١ ، صالحة سنقر ، « أثر تربية المرأة العربية في تحقيق التنمية الشاملة » ، في الجمعية الثقافية الاجتماعية النسائية ، مرجع سابق ، ص ٢٣٥ .

٧٨- محمد الرميحي ، مرجع سابق ، ص ٢٤٠ .
٧٩- حليم بركات ، مرجع سابق ، ص ٥٨ - ٦٣ .
٨٠- المرجع السابق ، ص ٦٤ - ٦٥ .
٨١- مركز دراسات الوحدة العربية ، المرأة ودورها في حركة الوحدة العربية ، مرجع سابق ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧ ، انظر أيضاً ، عبد الباسط عبد المعطي ، مرجع سابق ، ص ٧٢٧ .
٨٢- سهير لطفي ، مرجع سابق ، ص ٢٤ ، انظر أيضاً : أمل حمد الفرحان ، « دور التعليم في تطوير وضع المرأة في المجتمع العربي » ، الجمعية الثقافية الاجتماعية النسائية ، مرجع سابق، ص ٢١١ .
٨٣- مركز دراسات الوحدة العربية ، مرجع سابق ، ص ٢٥٩ .
٨٤- سهير لطفي ، مرجع سابق ، ص ٢٢ .
٨٥- هنري عزام ، مرجع سابق ص ٢٧٤ .
٨٦- نوال السعداوي ، مرجع سابق ص ١٤٠ .
٨٧- المرجع السابق ، ص ١٣٧ .
٨٨- انعام سيد عبد الجواد ، مرجع سابق ، ص ١٦١ .
٨٩- سهير لطفي ، مرجع سابق ، ص ٢٠ - ٢١ . انظر ايضاً : زهور الازرق « الآثار السلبية التي قد تنجم عن خروج المرأة للعمل » . في الجمعية الثقافية الاجتماعية النسائية ، مرجع سابق ، ص ٧٦٠ - ٧٨٦ .
٩٠- هنري عزام ، مرجع سابق ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .
٩١- المرجع السابق ، ص ٢٧٩ .
٩٢- سهير لطفي ، مرجع سابق ، ص ٧ - ٨ .
٩٣- هنري عزام ، مرجع سابق ، ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .

المراجع

أولاً : المراجع العربية :

١- إبراهيم سعد الدين ، « المرأة الريفية والتعاونيات » ، في مركز بحوث الشرق الأوسط (جامعة عين شمس) ، ابحاث الندوة الدولية عن المرأة الريفية والتنمية (القاهرة ١ - ٤ ديسمبر ١٩٨٠) القاهرة : دار وهدان للطباعة والنشر ، ١٩٨٠ .

٢- اعتماد محمد علام ، التحولات الاجتماعية وقيمة العمل في المجتمع القطري ، قطر : جامعة قطر ، مركز الوثائق والدراسات الإنسانية ، ١٩٩٥ .

٣- ———— ، المرأة العربية في سوق العمل الرسمي : المداخل النظرية ونموذج مقترح لدراسة المرأة في الدول الخليجية » ، شئون اجتماعية : العدد ٣١ ، السنة الثامنة (خريف ١٩٩١) ، ص ٢٣ - ٦٥ .

٤- أمل حمد الفرحان ، « دور التعليم في تطوير وضع المرأة في المجتمع العربي » في الجمعية الثقافية والاجتماعية النسائية . المرأة والتنمية في الثمانينيات : بحوث ودراسات : الكويت ١٩٨٢ (المؤتمر الإقليمي الثاني للمرأة في الخليج والجزيرة العربية ٢٨ - ٣١ مارس ١٩٨١)، ص ٢٠٥ - ٢٢٠ .

٥- انعام سيد عبد الجواد ، « العوامل البنائية المحددة للمشاركة الاجتماعية للمرأة الخليجية » في الجمعية الثقافية الاجتماعية النسائية ، المرأة والتنمية في الثمانينيات : بحوث ودراسات . الكويت : ١٩٨٢ (المؤتمر الإقليمي الثاني للمرأة في الخليج والجزيرة العربية ٢٨ - ٣١ مارس ١٩٨١) ص ١٤٧ - ١٦٩ .

٦- الاتحاد العام لنساء العراق ، دور المرأة العربية في التخطيط القومي للتنمية الاجتماعية . لجنة المرأة العربية المنعقدة في دمشق ٢٤ - ٢٧ تشرين الأول ، ١٩٧٧ .

٧- اوزرولا شوى ، أصل الفروق بين الجنسين . ترجمه بوعلي ياسين . بيروت : دار التنوير للطباعة والنشر ، ١٩٨٢ .

٨- باقر سلمان النجار « المرأة وعلاقة الانتاج في مجتمعات الخليج التقليدية » ، في الجمعية الثقافية الاجتماعية النسائية ، مرجع سابق ، ص ١٧٠ - ١٨٥ .

٩- بحوث المؤتمر الأول للاجتماعين العرب حول الأسس الاجتماعية للتنمية في الوطن العربي . بغداد ٢ - ٦ فبراير ، ١٩٨٠ .

١٠- جامعة العين ، ندوة التنشئة الاجتماعية في مجتمعات الخليج العربية . دولة الإمارات العربية المتحدة - كلية الآداب - قسم الاجتماع (٢٥-٢٧ فبراير ١٩٩٢) .

١١- جامعة قطر ، ندوة قضايا التغير في المجتمع القطري في القرن العشرين ، (الدوحة ٢٥ - ٢٨ فبراير ١٩٨٩) قطر : مركز الوثائق والدراسات الإنسانية ، ١٩٩١ .

١٢- جلال إسماعيل حلمي ، « المرأة واستراتيجية التنمية في جمهورية مصر العربية » في الجمعية الثقافية الاجتماعية النسائية ، مرجع سابق ، ص ٤٥١ - ٤٧٨ .

١٣- حامد عمار ، في بناء الإنسان العربي ، الاسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٨ .

١٤- حليم بركات ، « النظام الاجتماعي وعلاقته بمشكلة المرأة العربية » مركز دراسات الوحدة العربية ، المرأة ودورها في حركة الوحدة العربية . بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٢ ، ص ٥٣ - ٦٧ .
١٥- حيدر إبراهيم علي ، « ادماج المرأة في خطط التنمية : مشكلات وإمكانيات » ، في الجمعية الثقافية الاجتماعية النسائية ، مرجع سابق ، ص ٣٥ - ٩٣ .
١٦- روزا شايدولينا ، المرأة العربية والعصر ، ترجمة شوكت يوسف ، بيروت : دار الجبل ، ١٩٨٠.
١٧- زهو الازرق ، « الآثار السلبية التي قد تنجم عن خروج المرأة للعمل » ، في الجمعية الثقافية الاجتماعية النسائية ، مرجع سابق ، ص ٧٦٠ - ٧٨٦ .
١٨- سامية الساعاتي ، « ديناميات الأسرة الريفية والتنمية : بحث اجتماعي تحليلي » ، في مركز بحوث الشرق الأوسط ، جامعة عين شمس ، مرجع سابق ، ص ١٣٧ - ١٥٥ .
١٩- سامية محمد جابر ، « المرأة والتنمية : دراسة لمكانة المرأة العربية ودورها في التنمية » في عاطف غيث وآخرون ، مجالات علم الاجتماع المعاصر : أسس نظرية ودراسات واقعية. الاسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٥ . ص ٥٩٧- ٦١٤ .
٢٠- ساهر سميح النابلسي ، « التعزيزات المقدمة للمرأة العاملة في الاردن » ، في الجمعية الثقافية الاجتماعية النسائية ، مرجع سابق ، ص ٨٣٧ - ٨٥٦ .
٢١- سميرة إبراهيم سلام ، « دراسة أسباب انسحاب الطالبات السعوديات في كلية الطب » ، في الجمعية الثقافية الاجتماعية النسائية ، مرجع سابق ، ص ٨٥٧ - ٨٩٦ .
٢٢- سهير لطفي علي ، « دراسة سوسيولوجية لدور المرأة في عملية التنمية المجتمعية في العالم النامي : إشارة لمصر » في الجمعية الثقافية والاجتماعية النسائية ، مرجع سابق ، ص ٣ - ٣٤ .
٢٣- صالحة سنقر ، « أثر تربية المرأة العربية في تحقيق التنمية الشاملة » في الجمعية الثقافية الاجتماعية النسائية ، مرجع سابق ، ص ٢٢١ - ص ٢٤٠ .
٢٤- عائشة الحسيني ، « المرأة والتنمية في المملكة العربية السعودية » في الجمعية الثقافية الاجتماعية النسائية ، مرجع سابق ، ص ٤٣٠ - ٤٥٠ .
٢٥- عادل غنيم وآخرون ، التاريخ الاجتماعي للمرأة القطرية المعاصرة . قطر : مركز الوثائق والدراسات الإنسانية ، ١٩٨٩ .
٢٦- عبد الباسط عبد المعطي ، « في الوعي الزائف بالمرأة الخليجية » ، في الجمعية الثقافية الاجتماعية النسائية ، مرجع سابق ، ص ٧٢٣ - ٧٥٤ .
٢٧- عزيز السيد جاسم ، حق المرأة بين مشكلات التخلف الاجتماعي ومتطلبات الحياة الجديدة ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٠ .
٢٨- عواطف عبد الرحمن ، « صورة المرأة الخليجية في الصحافة الخليجية » ، في الجمعية الثقافية الاجتماعية النسائية ، مرجع سابق ص ٦٤٠ - ٦٨٠ .
٢٩- فضة الخالد ، « الدور التنموي للمرأة الكويتية » ، في الجمعية الثقافية الاجتماعية النسائية ، مرجع سابق ، ص ٢٦٦ - ٢٧٢ .
٣٠- فهد الثاقب ، « المرأة في المجتمع المعاصر » في اللجنة الثقافية والاجتماعية للمرأة ، دراسات حول أوضاع المرأة في الكويت والخليج العربي ، الكويت : مطبعة فهد مرزوق ، ١٩٧٥ .

٣١- فؤاد مرسي ، الرأسمالية تجدد نفسها . الكويت : عالم المعرفة ، ١٩٩٠ .
٣٢- فوزية العطية ، المرأة والتغير الاجتماعي في الوطن العربي ، بغداد : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ١٩٨٣ .
٣٣- لجنة العمل النسائي ، « رام الله البيرة » ، دراسة ميدانية حول أوضاع المرأة الفلسطينية في المناطق المحتلة ، في الجمعية الثقافية الاجتماعية النسائية ، مرجع سابق ، ص ٩٢٧ - ٩٧٧.
٣٤- محمد أحمد سلامة ، اتجاهات الآباء والابناء نحو التعليم الفني اليدوي وعلاقتها بالمستوى الاقتصادي الاجتماعي . قطر : جامعة قطر : مركز البحوث التربوية ، ١٩٧٩ .
٣٥- محمد الرميحي ، « أثر النفط على وضع المرأة العربية في الخليج » . في المرأة العربية ودورها في حركة الوحدة العربية ، مرجع سابق ، ص ٢٣١ - ٢٥١ .
٣٦- محمد حافظ ، أمينة علي الكاظم ، مجتمعات الخليج العربي : بحوث ودراسات في التصنيع والتحضر والقوى البشرية . القاهرة : مطبعة الطوبجي التجارية ، ١٩٩٢ .
٣٧- محمد سعيد فرح ، دراسات في المجتمع المصرى ، الاسكندرية : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦ .
٣٨- محمد علي محمد الكبيسي ، « القوى العاملة في قطر : رؤية بنائية وتحليل تتبعي » ، حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية ، جامعة قطر ، العدد ١٣ عام ١٩٩٠ ، ص ٢٧ - ٥٨ .
٣٩- محمود عبد الفضيل ، التحولات الاقتصادية والاجتماعية في الريف المصري (١٩٥٢ - ١٩٧٠) القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٨ .
٤٠- مركز بحوث الشرق الأوسط ، جامعة عين شمس ، ابحاث الندوة الدولية عن المرأة الريفية والتنمية . (القاهرة ١ - ٤ ديسمبر ١٩٨٠) . القاهرة : دار وهدان للطباعة والنشر ، ١٩٨٠ .
٤١- مركز دراسات الوحدة العربية ، المرأة ودورها في حركة الوحدة العربية . بيروت : مركز الوحدة العربية ، ١٩٨٢ .
٤٢- مصطفى تركي ، « الدافعية للانجاز عند المرأة الكويتية » ، في الجمعية الثقافية الاجتماعية النسائية ، مرجع سابق ، ص ١٨٦ - ٢٠٤ .
٤٣- موزة غباش ، « أثر القيم على المرأة العاملة في مجتمع الإمارات » في جمعية الاجتماعيين ، دراسات عن مجتمع الإمارات ، الإمارات العربية المتحدة : جمعية الاجتماعيين ، ١٩٩٠ ، ص ١٨٧ - ٢١١ .
٤٤- مونيك بيتر ، المرأة عبر التاريخ ، ترجمة هنريت عودي ، بيروت : دار الطليعة ، ١٩٧٩.
٤٥- ناصف ثابت ، المرأة والتنمية والمتغيرات الاجتماعية المرافقة . الكويت : دار السلاسل ، ١٩٨٣ .
٤٦- نجاة عبد الله النابه ، « المرأة في دولة الإمارات إلى أين » في جمعية الاجتماعين ، مرجع سابق، ص ١٣ - ٣٦ .
٤٧- نعيمة محمد عيد ، « دور المرأة العربية في التنمية في الثمانينيات » في الجمعية الثقافية الاجتماعية النسائية ، مرجع سابق ، ص ٩٤ - ١٢٣ .
٤٨- نوال السعداوي ، « العقبات أمام المرأة العربية والتنمية ، مع التركيز على مشكلات المرأة

الخليجية » ، في الجمعية الثقافية الاجتماعية النسائية ، مرجع سابق ، ص ١٢٧ - ١٤٦.
٤٩- نوال السعداوي ، المرأة والجنس ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٢ .
٥٠- هدى محمد قناوي ، دراسة اتجاهات المجتمع نحو المرأة ، القاهرة : مطبعة جامعة عين شمس ، ١٩٨١ .
٥١- هنري عزام « المرأة العربية والعمل : مشاركة المرأة العربية في القوى العاملة ودورها في عملية التنمية » في ندوة المرأة ودورها في حركة الوحدة العربية ، مرجع سابق ، ص ٢٦٥ - ٣٠١ .
٥٢- وفد اليمن الديمقراطية الشعبية ، « تقرير عن أوضاع المرأة في اليمن الديمقراطية الشعبية»، في الجمعية الثقافية الاجتماعية النسائية ، مرجع سابق ، ص ٩٧٨ - ٩٨٩ .

ثانياً : المراجع الأجنبية :

1 - Beck, L., and Keddie, N. (eds.) Women in The Muslim World. Cambridge, Mass. : Harvard University Pren, 1979.
2 - Blaxall, M. and B. Reagan (eds.) Women and the Workplace. Chicago and London: University of Chicago Press, 1976
3 - Boulding, E. (et al) . Handbook of International Data on Women. California: Sage Publications, 1976.
4 - Boserup, E.Woman's Role in Economic Development. London : Allen and Unwin, 1970.
5 - Cooper, C. A. and S.S. Alexander (eds.). Economic Development and Population Crowth in the Middle East. New York : Elsevier, 1972. " Fertility Patterns and Their Deteminants in the Arab Middle East." By T.P. Schultz.
6 - Fatima, M., Beyond The Veil : Male=Female Dynamics in Modern Muslim Society. New York : Scherkman, 1975.
7 - Fernea, E.W. and B.Q. Bazirgan (eds.). Middle Eastern Muslim Women Speak. Austin, Texas, University of Texas Press, 1977.
8 - Fox, M., and Hesse - Biber, Women at Work. London: Mayfield Publishing Compary, 1984.
9 - Hut, R.K., Daniels, A., K., and Colvard, R., (eds.), Woman and Work : Problems and Perspectives. New York : Oxford University Press, 1982.
10 - International Labour Organisation (ILO). Labour Force Estimates and Projections : 1950 - 2000 . 2nd ed. Geneva : ILO, 1977. 2 vols.

11 - ______ . Yearbook of Labour Statistics, 1978, Geneva : ILO, 1978.

12 - Madeleine, E., W., et. al. (eds.). The Changing Experience of women. Oxford : Martin Robertson, 1982.

13 - Makhlouf, Carla. Changing Veils, Women and Modernization in North Yemen. London : Croom Helm. 1979.

14 - Population Reference Bureau (PRB). World Data Sheets. Washington D.C. : PRB, 1978.

15 - Omran, A.R. (ed.). Egypt : Population Problems and Prospects. Chapel Hill : Carolina Population Center, 1973. " Status of Women and Family Planning in a Developing Country - Egypt". By A , Hussein.

16 - Shilah, A., People and Culture of the Middle East. New York : Random House, 1969.

17 - Standing. G. Labour Force Participation and Development. Geneva : ILO, 1978.

18 - ______ . and G. Sheehan. Labour Force Participation in Low Income Areas : Case Studies. Geneva : ILO, 1978.

19 - Tinker, Irene and M. Bobramsen, (eds.). Wormen and World Development Washington D.C : Overseas Development Council. 1976. I Women in Development : Urban Life and Labour." By Nadia H. Youssef.

20 - Woodsmall, R., F., The Role of Women, Their Activities and Organisations in Lebanon, Egypt, Iraq, Jordan and Syria. Vermont : ELM Tree Press, 1956.

21 - Youssef, N.,H., Women and Work in Developing Societies. Berkeley, Calif. : University of California Press, 1974.

« علاقات آل افراسياب السياسية والتجارية مع القوى الاوربية في الخليج العربي خلال النصف الأول من القرن السابع عشر »

د . طارق نافع الحمداني
قسم التاريخ - كلية التربية - جامعة بغداد

استطاعت أسرة آل افراسياب[١] التي قامت في البصرة في السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر - بصورة شبه مستقلة عن الدولة العثمانية - أن تقيم لنفسها علاقات سياسية وتجارية مهمة مع القوى الاوربية المختلفة في الخليج العربي ، وقد كان لهذه العلاقات أثرها في اعطاء البصرة مكانة بارزة بالمقارنة بما كانت عليه في فترات سابقة ولاحقة بحكم هذه الأسرة .

ومن الجدير بالذكر أن آل افراسياب كانوا قد قضوا السنوات الأولى من حكمهم في إصلاح الأحوال السيئة التي نجمت عن استمرار الحكم العثماني في البصرة والخليج العربي في العقود الأخيرة من القرن السادس عشر ، وفي تثبيت دعائم سلطتهم في المنطقة . فمن المعروف أن الحكم العثماني في البصرة في نهاية القرن السادس عشر قد شهد حالة كبيرة من الضعف بحيث أصبح الولاة العثمانيون هناك عاجزين عن السيطرة التامة على الاوضاع الداخلية والخارجية في البصرة ، وغير قادرين على درء الأخطار الخارجية التي تعرضت لها المدينة ، وكان حصيلة ذلك كله انحسار النفوذ العثماني عن المنطقة وقيام حكومة آل افراسياب في البصرة وامتداد سلطتها إلى الاحساء أحيانا[٢] . وقد تطلب مجيء آل افراسياب إلى السلطة بعد حالة الانحلال التي كانت عليها البصرة زمن العثمانيين - ايجادهم الحلول المعقولة لعلاقاتهم مع العثمانيين والمشعشعين

والفرس والقوى الاوربية في الخليج من ناحية ، وتنشيطهم الاحوال الاقتصادية المتدهورة في البصرة من ناحية أخرى . وسنركز اهتمامنا على علاقاتهم السياسية والتجارية مع القوى الاوربية في الخليج ، وما اصاب تلك العلاقات من نشاط وتطور خلال الفترة موضوع البحث .

علاقات آل افراسياب السياسية مع القوى الاوربية :

١- العلاقات السياسية الافراسيابية - البرتغالية :

على النقيض من العلاقات العدائية ما بين العثمانيين والبرتغاليين في الخليج العربي[٣] في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، فقد اتخذت العلاقات الافراسيابية - البرتغالية طابعا جديدا في النصف الأول من القرن السابع عشر . وقد كان لقيام أسرة آل افراسياب في البصرة وتعرض الوجود البرتغالي في الخليج العربي لنكسات عديدة أثر كبير في رسم تلك العلاقات .

فمع تمكن افرا سياب باشا ، مؤسس الأسرة الافراسيابية في البصرة ، من تصفية الكثير من مشكلاته مع القوى المجاورة ، كالمشعشعين والفرس ، إلا أنه كان لايزال معرضا ، حتى العقد الثالث من القرن السابع عشر وما بعده ، للخطر الفارسي . فباستيلاء الفرس على بغداد عام ١٦٢٣ ، أصبحت مكانة آل افراسياب حرجة للغاية ، وقد توقعوا هجوما فارسيا مباغتا على البصرة من وقت لآخر . وبناء على ذلك فقد شعر علي باشا افراسياب ، وريث افراسياب باشا في ولاية البصرة منذ عام ١٦٢٤ ، أنه من الضروري الآن تعزيز علاقاته مع البرتغاليين وذلك من أجل الحصول على مساعداتهم العسكرية تجاه أي هجوم فارسي على البصرة . وعلى ضوء هذه السياسة فقد جعل علي باشا الباب مفتوحا للنشاطات التجارية البرتغالية المتزايدة في البصرة[٤] ومن ناحية أخرى ، فقد حاول البرتغاليون بعد فقدانهم هرمز عام ١٦٢٢ ، الحصول على موطيء قدم لهم في البصرة ، وبطريقة سلمية ، ولهذا فقد استجابوا لطلبات علي باشا بالمساعدة ضد الفرس[٥] وهكذا عمل الطرفان الافرسيابي والبرتغالي على تطوير علاقاتهما الحسنة ، خدمة لمصالح كل منهما وأغراضه .

بدأت أولى الاتصالات البرتغالية مع البصرة عن طريق المبشرين الكاثوليك ، الذين وصلوا إلى المدينة بعد سقوط هرمز ، وطلبوا من علي باشا حق فتح كنيسة هناك[٦] . ويظهر أن علي باشا استجاب لطلباتهم . فقد أشارت تقارير شركة الهند الشرقية الإنكليزية في ٣٠ مايس (مارس) ١٦٢٤ إلى حصول البرتغاليين على اذن ببناء اديرة وقد وعدوا بمنح تسهيلات لبناء قلعة في البصرة[٧] وقد أكد سوسة Sousa[٨] هذا الأمر، وأضاف قائلا بان علي باشا « قد منح البرتغاليين الأفضلية على كل المسيحين الآخرين » .

وفي مقابل ذلك ، اعتمادا على ما ذكره ستيرنزكورد Streensgaard فقد طالبهم علي باشا بان يحاولوا الحصول على أذن نائب الملك البرتغالي في الهند بقيام السفن البرتغالية بزيارة البصرة[٩] كما أنه بعث ، في مطلع عام ١٦٢٤ ، رسالة إلى القائد البرتغالي ري فريبه Ruy freyre واصفا فيها قلقه من احتمالات الهجوم الفارسي على البصرة ، عن طريق شط العرب معربا عن رغبته في الحصول على مساعدة البرتغاليين البحرية . وقد طلب علي باشا بقاء ست سفن برتغالية هناك . وتعهد بدفع كافة مصروفاتها طالما بقيت في خدمته[١٠] . وقد استجاب ري فريبه دي اندريد لطلب علي باشا سريعا وذلك عن طريق ارساله أسطولا برتغاليا مؤلفا من خمس أو ست سفن شراعية بقيادة القائد دي سلفيرا Dom Doncalo de Silverya لمساعدته في الدفاع عن البصرة ضد الهجوم الفارسي[١١] . وقد وصل هذا الاسطول البصرة بالفعل في كانون الثاني (يناير) من عام ١٦٢٤ وشارك مع قوات علي باشا في حماية المدينة من الهجوم الفارسي الأول على البصرة[١٢] كما استعان علي باشا مرة أخرى بخمسة سفن برتغالية ، وذلك عندما كرر الفرس هجومهم الثاني على البصرة ، واستطاعت هذه القوة أن تساهم بفعالية في تخليص المدينة من الجيوش الفارسية القريبة منها - في ٢٣ مارس ١٦٢٥[١٣] .

وهكذا يظهر بوضوح مدى اعتماد آل افراسياب على مساعدات البرتغاليين العسكرية في مواجهة الهجمات الفارسية المتكررة على البصرة ، ولكن ذلك لم يكن دون مقابل فقد صعد البرتغاليون من نشاطاتهم التجارية والعسكرية في المدينة ،

بخاصة في السنوات الأولى التي اعقبت فقدانهم هرمز للفرس ، وتعرضهم لمقاومة عرب عمان على الجانب الغربي من الخليج .

وفي السنوات التالية قلل البرتغاليون من نشاطاتهم البحرية في البصرة . ففي نهاية عام ١٦٢٥ ، سحب البرتغاليون اسطولهم من البصرة ، ولم يبدوا أي نوع من أنواع المساعدة لعلي باشا افراسياب خلال الهجوم الفارسي الثالث ضد البصرة عام ١٦٢٨ (١٤) . وقد حدثت هذه التغيرات السياسية من جانب البرتغاليين بعد انتظام العلاقات البرتغالية- الفارسية استنادا لاتفاقية عام ١٦٣٠ ، التي منحت البرتغاليين حق الاتجار مع الموانئ الفارسية ، إضافة إلى تسهيلات تجارية أخرى (١٥) .

ومن ناحية أخرى ، فقد حدثت تطورات سياسية مهمة أثرت على وضع البرتغاليين ووكالاتهم التجارية والتبشيرية في فارس والبصرة والخليج العربي(١٦) فمع أنهم ظلوا في البصرة حتى عام ١٦٤٠ على الأقل ، يشكلون القوة الاوربية ذات النفوذ السياسي في المنطقة ، إلا أن السنوات العشر التالية شهدت منافسة قوى عديدة لهم ، مثل الانكليز والهولنديين وعرب عمان ، وقد تمكنت هذه القوى من اقصاء النفوذ البرتغالي وازالته من الوجود (١٧) .

علاقات آل افراسياب السياسية مع الانكليز :

لم يكن لآل افراسياب علاقات سياسية مباشرة مع الانكليز إلا في عام ١٦٣٥ ، وان كان للآخرين علاقات مع البصرة تعود إلى فترة أسبق . ففي العقد الثالث من القرن السابع عشر تعاون موظفو شركة الهند الشرقية الانكليزية في بندر عباس (كمبرون) مع الفرس للضغط على حكومة البصرة وذلك لطرد البرتغاليين من مياهها ولكن آل افراسياب رفضوا ذلك لحاجتهم الماسة للمساعدات البرتغالية ، وازاء هذه الضغوط فقد اتصل علي باشا افراسياب حاكم المدينة في عام ١٦٢٧بالباب العالي ، طالبا مساعدته للتوسط بينه وبين السفير الانكليزي في اسطنبول ، الذي لم تكن تربطه واياهم اية علاقات دبلوماسية ، من اجل ابلاغ السفن الانكليزية الموجودة في الخليج العربي الكف عن أعمالها العدائية ضد البصرة وقد تكررت مثل تلك الأعمال

العدائية في عام ١٦٢٩ ، عندما تعرض التجار الذاهبون إلى سورات Surat إلى مضايقات وتحرشات من المقيمين الانكليز والهولنديين هناك . فاتصل علي باشا مرة أخرى بالباب العالي ، الذي اخبر بدوره السفير الانكليزي في اسطنبول بالامر . وقد اثمرت تلك الاتصالات عندما كتب السفير الانكليزي إلى رعاياه هناك طالبا منهم عدم تكرار مثل تلك الحوادث[١٩] .

وفي خلال السنوات السبع التالية لا نسمع شيئا عن أي نوع من أنواع الاتصالات الدبلوماسية ما بين آل افراسياب والانكليز ، وكانت أول خطوة في هذا الاتجاه هي ارسال شركة الهند الشرقية الإنكليزية بعض مستخدميها إلى علي باشا افراسياب عام ١٦٣٥ ، مع هدية ورسالة تتضمن تفصيلات عن العلاقة الحسنة بين انكلترا والدولة العثمانية[٢٠] ، وفي محاولة لاقناع حاكم البصرة بمنحها الامتيازات التجارية والتسهيلات ، وقد كانت تلك المحاولة البداية للعلاقات الدبلوماسية - التجارية المباشرة لشركة الهند الشرقية مع علي باشا ، وشهدت السنوات التالية محاولات مماثلة تهدف إلى التقرب من هؤلاء الحكام .

ففي عام ١٦٤٠ بعثت الشركة كلا من وليم ثورستون William Thurston وادوارد بيرس Edward Pearce إلى البصرة ، لمعرفة مدى إمكانية ممارسة نشاطها التجاري هناك . وقد استقبل هذا المبعوثان استقبالا حارا من قبل علي باشا ، الذي منحهما حق الاتجار في البصرة وأفضلية في دفع الرسوم الجمركية[٢١] . وقد بين كل من ثورستون وبيرس في تقرير لرئاسة الشركة بأنه إذا ما أريد الاحتفاظ بالتجارة مع البصرة فإنه من الضروري تأسيس وكالة دائمة Factory للشركة في ذلك الميناء ، الأمر الذي سيمنح الباشا ثقة أكبر في التجارة مع الإنكليز ، أكثر مما يتوقع من الرحلات الفردية والطارئة[٢٢] . ويبدو أن المسؤولين في الشركة قد اقتنعوا بتقرير مبعوثيهم فاوصوا بفتح أبواب تلك الوكالة بالفعل وبشكل مؤقت في عام ١٦٤٣ ، ولما كانت العوائد كافية ومشجعة فقد تقرر جعلها دائمة[٢٣] .

ومن الملاحظ أن وكلاء ومبعوثي شركة الهند الشرقية الإنكليزية قد اتصفوا

بالخبرة والمقدرة السياسية والتجارية ، إلى جانب معرفتهم بلغة أهل البلاد التي كانوا يقيمون فيها ، كروبرت كرانمر Robert Cranmer الذي كان عارفا باللغة العربية(٢٤) . يستدل على ذلك من توصيات كرانمر لزملائه في البصرة بان يكونوا حذرين في معاملتهم للباشا والناس هناك ، وأن يكونوا في منتهى اللطف والاحترام معهم(٢٥) .

وفي عام ١٦٤٥ ، خلال الازمة التي حدثت بين الهولنديين والفرس حول بعض الرسوم الجمركية المتنازع عليها ، قررت الشركة نقل وكالتها من بندر عباس إلى البصرة . وهنا اجرى كل من روبرت كرانمر وريفيت ويلان Revett Walwyn الاتصال بعلي باشا افراسياب من أجل الحصول على إذنه بممارسة التجارة هناك خصوصا وهما يعرفان أن المنافسة الهولندية كانت على أشدها في تلك السنة ، وهي تهدف إلى تجريد الشركة الإنكليزية من كل الارباح التي تنالها ، وأنها في طريقها إلى البصرة(٢٦) . وقد استقبل علي باشا هذين المبعوثين في ٢٩ ايلول (سبتمبر) عام ١٦٤٥ ، واظهر سروره واهتمامه لوصولهما(٢٧) . ويبدو أن هذا الوفد قد افلح في مهمته ذلك لأن علي باشا قد وافق على قيام وكلاء الشركة بدفع الرسوم الجمركية المتفق عليها سابقا مع انكلترا . وهي بمقدار ٣٪(٢٨) . يضاف إلى ذلك ، فقد حصل الوفد على رسائل من علي باشا ، إلى رئيس شركة الهند الشرقية في سورات حول طبيعة العلاقات بين الشركة وحكومة البصرة . كما أرسل علي باشا أيضاً حصانا عربيا هدية إلى رئيس الشركة ، مع قائمة تتضمن تفصيلات عن البضائع والسلع التي يحتاجها(٢٩) . وهذا دليل عن علاقة الباشا الحسنة مع مسؤولي الشركة ومستخدميها في ذلك الوقت .

إلا أن العلاقات بين الشركة وحكومة البصرة أصابها الركود خلال السنوات الخمس التالية على ما يبدو ، ذلك لأننا لم نعد نسمع عن تردد الوفود إلى بلاط علي باشا بالصورة التي لاحظناها ، باستثناء مرة واحدة حين سلم أحد مبعوثي الشركة في ٢١ آب (أغسطس) ١٦٤٦ رسائل من رئيس الشركة إلى علي باشا وابنه حسين باشا افراسياب ومحمود أغا ، مسؤول الميناء في البصرة(٣٠) . ولعل مرد هذا الركود في العلاقات بين الشركة وحكومة البصرة ، إنما يرجع إلى المنافسة الهولندية الحادة للنشاطات الإنكليزية ، واقتصار الآخرين على الرابطة التجارية مع البصرة فقط .

علاقات آل افراسياب التجارية مع القوى الاوربية

١- العلاقات التجارية الافراسيابية - البرتغالية :

شهدت البصرة في القرن السابع عشر علاقات تجارية واسعة مع القوى الاوربية في الخليج العربي تختلف تماما عما كانت عليه الحال في القرن السادس عشر . فبينما لا توجد تغييرات مهمة في العلاقات التجارية بين السلطات العثمانية في البصرة وبين البرتغاليين في هرمز خلال القرن السادس عشر ، فقد حدثت مثل هذه التغييرات بين آل افراسياب وبين البرتغاليين في النصف الأول من القرن السابع عشر ، بخاصة بعد سقوط هرمز عام ١٦٢٢ . فبعد سقوط هذه المدينة ، التي كانت معقلهم الرئيسي في الخليج العربي لأكثر من مائة سنة توجهت أنظار البرتغاليين إلى مدينة البصرة لجعلها قاعدتهم الجديدة في التجارة ، وقد أصبحت البصرة مع مسقط ، سوقهم المهم حتى سنة ١٦٤٠ على الأقل ، عندما دخلوا في منافسة حادة مع التجارة الإنكليزية هناك[٣١] .

إذن في السنوات التالية لسقوط هرمز نشطت العلاقات التجارية البرتغالية مع البصرة ، وذلك بسبب تشجيع آل افراسياب السفن البرتغالية لزيارة البصرة وتوفيرهم الأمن والحماية لها[٣٢] . وكان بداية ذلك أن وصلت ميناء البصرة في آب (أغسطس) عام ١٦٢٣ تسع سفن برتغالية ، وهو على حد قول ستيزنزكورد Streensgaard شيء لم يسبق له مثيل من قبل ، وقد سر الباشا الجديد (علي باشا) بهذه المناسبة ، واقبر وصولها تقديرا له ، كما وصلت الكثير من البضائع التجارية هناك[٣٣] ، ولمواصلة هذه السياسة فقد استمر البرتغاليون في ارسال سفنهم إلى البصرة باعداد كبيرة . ففي آب عام ١٦٣٠ ، وصل أسطول برتغالي ضخم إلى المدينة ، وكان يتألف من خمسة وعشرين سفينة[٣٤] ، وقد أدى ذلك إلى انتعاش الحالة التجارية في البصرة من ناحية، وتعويض البرتغاليين عن مركزهم التجاري الرئيسي المفقود في هرمز من ناحية أخرى.

وعلى أية حال . فقد شهدت العشرون سنة اللاحقة اضمحلال النفوذ البرتغالي التجاري والسياسي في البصرة والخليج العربي ، وذلك بسبب دخول قوى أوربية جديدة

أخرى إلى المنطقة . فالحكومة البرتغالية التي تشكلت عام ١٦٤٠ واعلنت نفسها حكومة مستقلة ذات سيادة في أوربا ، رغم أنها استعادت مكانة البرتغال التجارية في الشرق لفترة قصيرة ، إلا أنها من الناحية الأخرى لم تكن قادرة على الوقوف في وجه النشاطات التجارية للشركات الإنكليزية والهولندية هناك[٣٥] ، مما اضطرها للدخول في حرب معها ، كالحرب البرتغالية - الهولندية في عام ١٦٤٣ ، وكانت منطقة المحيط الهندي والخليج العربي ميدانا لها[٣٦] . وقد أدت هذه الحالة إلى ضعف التجارة البرتغالية في البصرة بصورة سريعة ، بحيث أن الرحالة الفرنسي تافرنيه الذي زار البصرة في عام ١٦٥٢ ، أشار إلى علاقات الانكليز والهولنديين والهنود التجارية مع المدينة ، ولكنه لم يشر إلى أي علاقات تجارية للبرتغاليين مع البصرة[٣٧] ، مما يدلل على انحسار نشاطهم التجاري هناك .

٢- آل افراسياب والعلاقات التجارية الإنكليزية مع البصرة :

كان لتأسيس شركة الهند الشرقية الإنكليزية في مطلع القرن السابع عشر ، ووصول قوى أوربية أخرى إلى الشرق ، أثر كبير في تعرض احتكار البرتغاليين للتجارة إلى خطر جدي من قبلهم . ومنذ ذلك الوقت فصاعدا تمكنت القوى الجديدة من السيطرة على القسم الأكبر من تجارة المحيط الهندي ، الخليج العربي والبصرة .

وفي خلال العقد الثالث من القرن السابع عشر ، وبينما منحت الامتيازات التجارية للبرتغاليين في البصرة ، حصل الانكليز من ناحية أخرى على مركز تجاري في بندر عباس (كمبرون) وبنوا القوة الإنكليزية ونشاطاتها التجارية في الخليج العربي ، فقد بدأت بمنافسة البرتغاليين في البصرة ، وذلك استنادا إلى ما ذكرناه من شكاوي علي باشا المرسلة إلى العثمانيين ضد الإنكليز ، واستنادا إلى ما قدمه من شكاوي مماثلة إلى المقيم الإنكليزي في سورات عام ١٦٢٧ و ١٦٢٩[٣٨] . وفي أثناء هذه الفترة لعبت شركة الهند الشرقية الإنكليزية دورا واضحا في تجارة النقل البحرية بين الهند وفارس ، حتى البصرة ، وعندما علمت الشركة بان تجارا من الفرس والارمن يحققون أرباحا طائلة من جراء اشتغالهم بهذه التجارة ، ارتأت أن تبدأ اتصالها مع

البصرة[٣٩] .

لكن علاقات شركة الهند الشرقية المباشرة مع البصرة لم تتم إلا في عام ١٦٣٥ عندما بعثت الشركة بعض موظفيها إلى علي باشا افراسياب على أمل إقامة تجارة منظمة مع تلك المدينة . وقد كانت تلك الزيارة ذات أهمية خاصة في قيام التجارية الإنكليزية هناك ، وذلك لأنها المرة الأولى التي تقوم فيها السفن الإنكليزية بعملية استثمار صغيرة في البصرة[٤٠] . ورغم أن الشركة لم تستطع تحقيق ارباح مغرية بسبب المنافسة البرتغالية التي اغرقت سوق البصرة بالسلع الشرقية بواسطة أسطولهم التجاري في مسقط وذلك قبل وصول السفن الإنكليزية إليها ، إلا أن الشركة أصرت على الاستمرار في التجارة مع البصرة ، وبعثت الأوامر إلى فروعها في أحمد اباد وكامبي Cambay في الثالث من شباط (فبراير) ١٦٣٦ . تشجعهم فيها على توظيف أموالهم في البصرة[٤١] إذ أصبح الآن واضحا لدى الشركة كما يقول بالمر Palmer[٤٢] أن ميناء البصرة من الممكن أن يصبح ، من بعض النواحي ، بديلا لموانئ السند ، وربما لبندر عباس أو اصفهان في أوقات الأزمات والاضطرابات . وبعد هذا التاريخ تدفق سيل السلع الشرقية على البصرة من مختلف الهيئات الإدارية ، ومن بينها شركة الهند الشرقية التي بدأت تحقق أرباحا عالية في عام ١٦٤٠ بسبب توافد التجار على هذه المدينة من حلب ومن أماكن أخرى[٤٣] .

وقد تعززت مواقع شركة الهند الشرقية ونشاطاتها التجارية في البصرة على أثر زيادة وليم ثورستون واد ورد بيرس إلى البصرة عام ١٦٤٠ ، واتصالهما بعلي باشا افراسياب حاكم المدينة ، تمهيدا لانشاء وكالة هناك[٤٤] إلا أن من سوء حظ الشركة أن الحمولة التي وافق الباشا على بيعها في البصرة . قد اصابها الكساد ، بسبب وصول السفن البرتغالية التي ملأت سوق المدينة بالبضائع ، وعلى الاخص الاقمشة والفلفل والهيل ، الأمر الذي اعاق وكيلي الشركة ثورستون وبيرس من بيع شحنتهما هناك ، ولم يتجاوز مقدار مبيعاتهما أكثر من ٣٠٫٠٠٠ روبية[٤٥] .

ومهما يكن من أمر ، فإن الصلات التجارية للشركة مع البصرة قد تأثرت في

السنوات العشر التالية بظروف مختلفة أهمها طبيعة الصلات التي أقامتها الشركة مع حكام البصرة ، وطبيعة المنافسة التي أظهرها الهولنديون في المجال التجاري .

فمن الناحية الأولى ، فقد كانت الشركة حذرة للغاية في علاقتها مع علي باشا ، حاكم البصرة ، وذلك قبل الاذن لها ببناء وكالة دائمة في البصرة عام ١٦٤٣ ، يستفاد من ذلك من تقارير وكلاء الشركة التي تردد أن علي باشا رغم منحه قطعة أرض لبناء الوكالة ، إلا أن الشركة يجب ألا تشرع في البناء وإنما يستحسن استئجار بناية هناك خوفا من أن يطالب الباشا بملكيته لها[٤٦] . إن هذا التردد الذي أظهره وكلاء الشركة يعود لاندلاع الحرب بين علي باشا وولاة بغداد عام ١٦٤١ من ناحية[٤٧] ولأن مبيعات الشركة في البصرة في ذلك العام لم تكن مشجعة للغاية ، وقد بلغت ٢٠ر٠٠٠ ريال من مجموع قيمة السلع التي مقدارها ٨٠ر٠٠٠ ريال فقط[٤٨] .

على أن وجهة نظر الشركة وصلتها مع البصرة قد تغيرت في السنوات التالية فقبل كل شيء ، أمرت الشركة وكلاءها بالابقاء على استثماراتهم في البصرة[٤٩] . وبعدها جاءت الخطوة المهمة للشركة وهي فتح وكالة دائمة لها في البصرة عام ١٦٤٣ ، حيث أصبح بمقدورها توثيق صلاتها مع حكام البصرة[٥٠] ، وتسهيل مهمة المراسلات والاتصالات التجارية بين لندن ومقر الشركة في سوارت[٥١] .

ومن الناحية الأخرى ، فقد أصبحت البصرة المركز الرئيسي للشركة ، وذلك بعد نقل وكالتها من بندر عباس (كمبرون) إلى البصرة عام ١٦٤٥ ، وحتى ذلك العام كان التجار الإنكليز في البصرة بعيدين عن أية منافسة تجارية من قبل الهولنديين ، لكن تلك المنافسة اتخذت شكلا مفاجئا وحادا ، وأدت في خلال عام أو اثنين إلى تجريد الإنكليز من كل ربح كانوا ينالونه[٥٢] .

٣- آل افراسياب والعلاقات التجارية الهولندية مع البصرة :

يرجع وصول الهولنديين ونشاطاتهم التجارية مع البصرة إلى بداية اربعينيات القرن السابع عشر عندما بدأت سفن شركة الهند الشرقية الهولندية تصل إلى البصرة لغرض التجارة ، مما أدى إلى كساد تجارة الإنكليز في هذا الميناء[٥٣] أن استخدام الهولنديين

مختلف الوسائل والأساليب المعروفة في المنافسة التجارية ، ومنها اغراق السوق بالبضائع والبيع باسعار منخفضة لاجل القضاء على منافسة الجهات الأخرى ، واتباع هذه السياسة في منافسة التجارة الإنكليزية كان العامل الرئيسي لاضمحلال التجارة الإنكليزية في البصرة بعض الوقت . ففي خلال عامي ١٦٤٧ ، ١٦٤٨ ظلت الأعمال التجارية الإنكليزية لا تحقق أرباحا بسبب المنافسة الحادة من جانب الهولنديين ، وهذا ما نلمسه في تقارير وكلاء شركة الهند الشرقية في البصرة عن كساد فعالياتهم التجارية هناك[٥٤] .

وعلى هذا الأساس تقرر ارسال سفينة إلى البصرة لجلب موظفي وممتلكات الشركة في عام ١٦٤٨[٥٥] . كما اصدرت رئاسة الشركة في لندن امرا في شباط عام ١٦٥٠ بغلق مراكز الشركة في سواكن ومخا والبصرة وعدم ارسال السفن إلى هذه المناطق إلا عندما تكون التجارة رابحة فيها[٥٦] . وبعدها وسع الهولنديون احتكارهم ورقعة حربهم التجارية مع الإنكليز بحيث أن رئاسة الشركة في لندن قد ابلغت مبعوثيها في الشرق في السابع والعشرين من ايلول (سبتمبر) عام ١٦٥٢ ، أن شقة الخلاف بين الإنكليز والهولنديين تزداد يوما بعد يوم ، ولا أمل في وضع حد لها[٥٧] . وأدت هذه الخطوة إلى تدمير مؤقت لنشاطات الوكالة التجارية الإنكليزية وسمعتها في تلك المنطقة .

وهكذا نلاحظ من هذا الاستعراض التاريخي كيف استطاع آل افراسياب إقامة علاقات سياسية وتجارية واسعة مع القوى والشركات الأوربية المختلفة في الخليج العربي خلال النصف الأول من القرن السابع عشر ، كما استطاعوا عن طريقها ضمان وجودهم السياسي إلى حد ما ضد التهديدات الفارسية على حدودهم الشرقية من جهة، وتعزيز اقتصاديات حكومة البصرة عن طريق زيادة النشاطات التجارية في المدينة من جهة أخرى . ولكن هذه القوى والشركات قد عملت في الوقت نفسه على تثبيت وجودها التجاري والسياسي في البصرة ، لأنها فضلت التعامل ، على ما يبدو مع الأسر المحلية في المنطقة ، ومن بينها آل افراسياب للحصول على امتيازات منها بدل التوجه إلى الدولة العثمانية لنيل ذلك[٥٨] .

الهوامش

١- أسرة آل افراسياب من الأسرة المحلية التي حكمت في البصرة ما بين ١٥٩٦ إلى ١٦٦٨ ومع أن مؤسس هذه الأسرة افراسياب باشا ينتمي إلى أصل سلجوقي - تركي ، إلا أن أمه كانت عربية من أهل الدين في البصرة ، وهذا ما جعله يمارس سياسة عربية في علاقاته الخارجية مع الدول الأخرى ، ولقي على أساسها التأييد والمساندة من أهل البصرة . انظر عبد علي بن ناصر الحويزي ، السيرة المرضية في شرح الفرضية ، نشرت بعنوان « تاريخ الإمارة الافراسيابية » ، تحقيق محمد الخال (بغداد ، ١٩٦١) ، ص ٣ ، فتح الله الكعبي ، زاد المسافر ولهفة المقيم والحاضر (بغداد ، ١٩٢٤) ، ص ١٧ ، رحلة فنشنشو إلى العراق في القرن السابع عشر ، ترجمها عن الايطالية الاب د . بطرس حداد المورد ، المجلد الخامس ، العدد الثالث (بغداد ، ١٩٧٦) ، ص ٨٤ .

٢- انظر ذلك في اطروحة الدكتوراه للمؤلف الموسومة :
T.N.Hamid, The Political, Administrative and Economic history of Basra Province 1534-1638, unpublished Ph.D thesis (Manchester, 1980), p.58.

٣- للاستزادة عن هذا الموضوع انظر صالح اوزيران ، الاتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي ١٥٣٤ - ١٥٨١ ، ترجمة د . عبد الجبار ناجي (بغداد ، ١٩٧٩) ص ص ٥٨-٩٠ .

4 - Achrouicle of the carmelities in Persia and the Papal mission of the XV IIth and XVIIIth centuries (London, 1939) vol. 1,p.274.

5 - A.H.De Groot, The Ottoman Empire and the Dutch Republic 1610-1630 (Leiden,1978), P.335, n.195.

6 - M.de Fariay Sousa The Portuguesc Asia (trans.) into English by capt. T. Stevens (London, 1695), Vol.111,p.325.

7 - William Foster, The English Factories in Indaia, 1624-29 (Oxford, 1910). P.22, W.N.Sainsbury, Calender of state papers, colonial Series, East India and Japan, 1622- 24, Vol. V (London, 1878), p.278.

ومما تجدر الإشارة إليه أن ديلا فال الذي وصل البصرة في عام ١٦٢٥ وجد الدير الكرملي الجديد وقد اكتمل لتوهه ، وقد حضر حفلة افتتاحه والاحتفالات الأخرى

8 - Della Valle Travels into the East India and the Arabian desert (London, 1665), P.246. The Portugnesc Asia, Vol. 111, p.325.

9 - Niles Streensgard, Carracks, Caravans and Companiep

(Denemark,1973), p.354.

10 - Paul Craesbeeck, Commentavies of Ruy Freyre de Andrada, 1619-33, ed. C.R.Boxer, (London, 1930),

الذي أشار استنادا إلى تصريحات قائد الاسطول البرتغالي في البصرة دي سلفيرا بان علي باشا قد نفذ تعهداته بكل دقة والتزام فيما يتعلق بدفع المصروفات وبقاء الجنود هناك .

- Ibid, See also C.R.Boxer, Chapter in Anglo-Portuguese relations in the Gulf, 1615-35, ed. G.Prestage (Watford, 1935), p.125.

11 - Crasebeeck, Commentaries, p.193.

12 - Ibid, Della Valle, Op. Cit., pp.249-50.

13 - Crasebeeck, Commentaries, P.205, Della Valle, Op. Cit., PA 245-5,252.

14 - Streeusgaard, Op. Cit., P.357.

للاستزادة عن هذا الموضوع انظر :

15 - Vol. 1,p.I313, Streeusgaard, Op. Cit., p.357.

16 - Achranicle of the carmelities in Persia, Vol. 1,p.358.

17 - Foster, The English Factories in India, 1646-50, July, 1650, p.311,

انظر أيضاً : د. عبد الامير محمد أمين : دور القبائل العربية في صد التوسع الاوربي في الخليج العربي ، خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ (بغداد، ١٩٧٣) ص ٦٥٢ .

18 - LLen B. Hinds, Calender of state Papers, 1626-28 (London, 1914), jenice, Vol. XX,p.400.

19 - Sainsbury, Calender of State Papers, 1625-29, pp.661-2.

20 - Foster, The English Factories in India, 1634-36 (Oxford, 1911), p.185.

21 - Foster, The English Factories, 1637-41, p.246, See also G. Rawlinson, British begining in western India, 1579-1657, (Oxford, 1920), p. 109.

22 - John Bruco, Annals of the Itonorable East India Company 1600-1707 (West Germany, 1968) Vol. 1,p.377.

٢٣- ج.ج. لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي (قطر ، الدوحة ، بدون تاريخ) ج ٤ ، ص ١٧٦٧.

24 - Foster, The English Factories 1642-45, March 26, 164, p.168.

25 - Ibid, 1642-45, March 26, 1642, p.57, Idem, Sept. 1644, p.168.

26 - Foster, The English Factories in India, 1642 -45, July 31, 1645, pp.273-4.

27 - Ibid.

28 - The English Factories 1642-45, July 31, 1645, p.274.

29 - Ibid, 1642-45, Sept.22, 1645,p.284.

30 - The English Factories 1646-50, August 21, 1646,p.49.

31 - Insbury, Calender of State Papers, 1622-24, Vol.IV,p.287, See also F.S Danvers, The Portuguese in India (London, 1894), Vol. 1,p.532, Sir Arnold T. Wilson, The Gulf (London, 1959), p.67, D. Bathurst, The Ya'rubi dynasty in Oman, Unpublished Ph.D. Thiesis (Oxford, 1967), P.53.

32 - Chronicle of the carmelities in Persia, Vol. 1,p.274.

33 - Treensgaard, Op. Cit., P.354.

34 - Ibid, P, 358.

35 - Bruce, Op. Cit., Vol. 1, P.68.

36 - Achronicle of the Carmelities in Fersia, Vol. 1,p.358.

٣٧- جون باتيست تافرنيه ، العراق في القرن السابع عشر ، نقله إلى العربية وعلق حواشيه بشير فرنسيس وكوركيس عواد (بغداد ، ١٩٤٤) ص ص ٩٧ - ٨ .

٣٨- انظر اعلاه في موضوع العلاقات السياسية الافراسيابية الإنكليزية .

39 - Foster, The English Factories 1630-33, P.125, See also Holden Furber, The Overland route to India in the 17th and 18th centuries, Journal of Indian History, Vol. XXIX, Pt. 11 (August, 1951), P.111.

40 - J.A.Saidanha, Selections from state Paprs, Bombay regarding the East India company's connection with the Gulf, With asummary of events, 1600-1800(Calcutta, 1908), P.XX,See also C.R Low, History of the Indian navy, 1613-1863 (London, 1877), Vol. 1,p.51.

41 - Poster, The English Factories, 1634-36, P.164, See also M.G. Milber, The East India Company and the British influence in the East (New York, 1945), pp.201-2.

42 - W.C.Palmer, The activities of the English cast India Company in Persia and the Gulf, 1616-57, unpublished

Ph.D thesis (London, 1932), P.398.

43- Foster, The English Factories 1637-41,Feb. 26, 1640, p.241.

٤٤- انظر اعلاه .

45- The English Factories. 1637-41, June 22, 1640, P.XXIV, PP.247-252.

لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ج ٤ ص ١٧٦٦ .

46- The English Factories, 1642-45, March, 1641, P.27, Idem, 1642-45, Sept. 26,1642, P.57,

47- The English Factories, 1642-45, Jan. 8, 1641, P.23.

48- Ibid, 1642-45m Narcg 15m 1641m O,27.

49- The English Factories 1642-45, Jan. 27,1642, p.5.

٥٠- للاستزادة عن اتصالات الشركة مع حكام البصرة ، انظر اعلاه .

51- The English Factories 1642-45, Jan. 27, 1644, p.143.

٥٢- لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ج ١ ، ص ٧٨.

٥٣- المصدر نفسه ، ج ١ ص ٦٩ ، انظر ايضا : محمود علي الداود ، تاريخ العلاقات الهولندية مع الخليج العربي ١٦٣٠ - ١٧٦٠ ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، العدد الثالث (كانون الثاني ، ١٩٦١) ص ٢٦٥.

٥٤- للتفاصيل انظر :

- خليل علي مراد ، تاريخ العراق الإداري والاقتصادي ١٦٣٨ - ١٧٥٠ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، بغداد ، ١٩٧٥ ، ص ص ٣٩٢ - ٣ .

- The English Factories, 1646-450, April 5,1648, P.206.

55- The English Factories, 1646-450, April 5, 1648, p.206.

56- E.B.Sainsbury, Acalender of the Court miuntes of the East India company 1650-54 (Oxford, 1913), p.24.

57- Ibid, P. 185.

٥٨- انظر حسين محمد القهواتي ، العراق بين الاحتلالين العثمانيين الأول والثاني ٢٩٤١ - ١٠٤٨ / ١٥٣٤-١٦٣٨ ، رسالة ماجستير غير منشورة (بغداد ، ١٩٧٥) ص ١١ .

مصادر البحث

أولاً : المصادر العربية :

- أمين ، د. عبد الامير محمد ، دور القبائل العربية في صد التوسع الاوربي في الخليج العربي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، المؤتمر الدولي للتاريخ (بغداد ، ١٩٧٣) .
- اوزبران ، صالح ، الاتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي ١٥٣٤ - ١٥٨١ ، ترجمة الدكتور عبد الجبار ناجي (بغداد ، ١٩٧٩) .
- تافرنيه ، جون باتيست ، العراق في القرن السابع عشر ، نقله إلى العربية وعلق حواشيه بشير فرنسيس وكوركيس عواد (بغداد ، ١٩٤٤) .
- الحويزي ، عبد علي بن ناصر ، السيرة العرضية في شرح الفرضية ، نشرت بعنوان تاريخ الإمارة الافراسيابية ، تحقيق محمد الخال (بغداد ، ١٩٦١) .
- الداود ، محمود علي ، تاريخ العلاقات الهولندية مع الخليج العربي ١٦٣٠ - ٧٦٠ ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد (١٩٦١) ص ص ٢٣٢ - ٢٥٥ .
- فنشنسو ، رحلة فنشنسو إلى العراق في القرن السابع عشر ، ترجمها عن الايطالية الأب الدكتور بطرس حداد ، المورد ، المجلد الخامس ، العدد الثالث (بغداد ١٩٧٦) ، ص ٧١ - ٨٩ .
- القهواتي ، حسين محمد ، العراق بين الاحتلالين العثمانيين الأول والثاني (٩٤ - ١٠٤٨ ، ١٥٣٤ - ١٦٣٨ ، رسالة ماجستير غير منشورة (بغداد ، ١٩٧٥) .
- الكعبي ، فتح الله ، زاد المسافر ولهفة المقيم والحاضر (بغداد ، ١٩٢٤) .
- لوريمر ، ج.ج ، دليل الخليج ، القسم التاريخي (قطر ، الدوحة ، بدون تاريخ) .
- مراد ، خليل علي ، تاريخ العراق الإداري والاقتصادي ١٦٣٨ - ٧٥٠ ، رسالة ماجستير غير منشورة (بغداد ، ١٩٧٥) .

ثانياً : المصادر الإنكليزية :

- Bathurst, The Ya'rubi dynasty in Oman, Unpublished Ph. D thesis (Oxford, 1967) .
- Boxer, C.R.,. Chapter in Anglo-Portuguese relations in the Gulf, 1615-35 (Watford, 1935) .
- Bruce, John Annals of the Honorable East India Company 1600-1707 (West German, 1968), 3 Vol 5 .
- Achrouicle of the Carmelities in Pevsta and the Papal Mission of the XV II th and XVIII th centuries, 2 Vol 5.
- Craes beeck, Paul, Commentaries of Ruy Freyre de Andrada 1619-33, ed . C.R. Boxer (London, 1930).
- Danvers, F.S., The Portugnesc in India, 2 Vol 5(London,

1894).
- Della Valle, Pietro, The Travels of ... into the East India and the Arabian desert (London, 1665) .
- Foster, illiam, The English Factories in India 13Vol 5 (Oxford, 1909).
- Furber, Holden, " The Overland route to India in the 17th and 18th centuries", Journal of Indian History, Vol. XXIX, Pt.11 (August, 1951) PP. 105-33.
- DDe Groot, A.H., The Ottoman Empire and the Dutch Republic 1610-1630 (London, 1978) .
- Hamid, Tarik Nafi, The Political, administrative, and Economic History of Basra Province 1534-1638, Unpublished Ph.D thesis (Manchester, 1980).
- Hinds, Alleu, B., Calender of state Papers, 1626-28 (London, 1914).
- Low, C.R., History of Indian Navy 1613-1863, 2Vol5, (London, 1877) .
- Milber, M.G., The East India company and the British influence in the East (Newyorls, 1945).
- Palmer,W.C., The activities of the English East India company in persia and the Gulf 1616-1657, Unpublished Ph.D thesis (London, 1932).
- Rawlinson, G., British beginning in Western India, 1579-1657 (Oxford, 1920).
- Sainsbury, E.B., Acalender of the court minutes of the test India company 1650-54 (Oxford, 1913).
- Sainsbury, W.N., Calender of stste Papers, Colonial Series, East Indian, China and Japan, 1622-24 (London, 1878).
- Sadanha, J.A., Selections from state papers, Bombay regarding the East India company's Connection with the Gulf, With as ummary of events, 1600-1800 (Calcutta, 1908).
- Sousa, M. de fariay, The Portugness Asia, (trans.) into English by Capt. T. Stevens (London, 1695) 3 V015.
- Streensgard, Niles, Carraoks, Caravans and companies (Denemark, 1973).
- Wilson, Sir Arnold, The Gulf (London, 1959) .

محاولات المغول (ايلخانية فارس)
للتحالف مع القوى الأوربية لاقتسام بلاد الشام

د . نعمان محمود جبران
د . محمد حسن عبد الكريم العمادي
قسم التاريخ - كلية الإنسانيات
والعلوم الاجتماعية - جامعة قطر

مقدمـة :

شهد القرن الثالث عشر الميلادي تحولات جذرية في العالم الإسلامي ، ففي شرق العالم الإسلامي كانت مصر والشام تعاني من خطرين رئيسيين هما خطر الغزوات الصليبية على أرض الإسلام ، وثانيهما الذي أعاق التصدي لخطر الأول هو صراعات القوى الأيوبية في بلاد الشام ومصر ، وأدت الصراعات الأيوبية إلى إنتهاء دورهم العسكري والسياسي بقيام المماليك في مصر ثم امتدت لبلاد الشام .

وفي غرب العالم الإسلامي شهدت القوى الإسلامية صراعات جعلتها تفشل في مواجهة خطر جديد ألا وهو الاجتياح والتوسع المغولي ، ولم يكن الخطر المغولي محصوراً في تهديد مناطق العالم الإسلامي بل تعداها إلى أوروبا وقبلها مناطق جنوب وشرق آسيا .

إن فشل القوى الإسلامية في مواجهة المغول ، أتاح لهؤلاء إنهاء الدولة الخوارزمية ، ثم القضاء على القوى الإسماعيلية ومن بعدها غزو أراضي الخلافة العباسية واحتلال عاصمتها بغداد سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م على أن المخطط المغولي لم

يكن ليقف عند حدود السيطرة على بغداد بل كان ضمن إستراتيجية تهدف للسيطرة على بلاد الشام ومصر وتجارة البحر المتوسط .

ولكن هذا المخطط المغولي اصطدم بالمواجهة المملوكية لهم والانتصار عليهم في موقعة عين جالوت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م . وعلى الرغم من أن هذه المعركة حالت دون وقوع الشام ومصر تحت السيطرة المغولية إلا أنه كان من نتائجها استمرار الصراع بين دولة المماليك والدولة المغولية الناشئة في الشرق الإسلامي (دولة ايلخانية فارس) والتي إستمرت ما بين ٦٥٦ - ٧٣٦ هـ / ١٢٥٨ - ١٣٣٥ م . وشملت هذه الدولة الرقعة الجغرافية الواقعة ما بين نهر جيحون والمحيط الهندي ومن السند إلى الفرات مع جزء كبير من الأناضول وبعض مناطق القوقاز . وكانت أهم مقاطعاتها إيران والعراق وهي بذلك دولة حدودية مع دولة المماليك التي وحدت بلاد الشام مع مصر بعد عين جالوت .

كما كان من نتائج هزيمة عين جالوت بالنسبة للمغول تغيير في استراتيجيتهم العسكرية والسياسية وهو قبولهم بمبدأ البحث عن حلفاء لمواجهة خطر المماليك ، ووجدوا ضالتهم في أعداء الدولة المملوكية سواء كان ذلك الإمارات الصليبية ، الأرمن، بيزنطية وأوروبا مركز انطلاق الحملات الصليبية .

يهدف هذا البحث إلى إلقاء الضوء على عدد من النقاط توضح محاولة التحالف المغولي الأوروبي ، ويعالج البحث الموقف الأوروبي من الزحف المغولي في بداياته وكيفية استغلال هذا الوضع سياسياً ودينياً ، ثم يركز البحث على الإتصالات الأوروبية المغولية والمغولية الأوروبية قبل معركة عين جالوت وبعدها ، ثم يركز البحث عن الصيغ التي طرحت والأهداف التي تم تبينها من الطرفين المغولي والأوروبي لمواجهة الدولة المملوكية ، ويخلص البحث إلى بيان أسباب فشل التحالف الأوروبي المغولي .

يرتكز هذا البحث على مجموعة من المصادر العربية والفارسية والدراسات الأوروبية (الألمانية ، الفرنسية ، الإنجليزية) المعتمدة على بعض الوثائق المغولية والوثائق الكنسية من أرشيف الفاتيكان .

الآمال الأوربية والزحف المغولي :

لقد شكل دخول المغول كقوة عسكرية على مسرح التاريخ العالمي أحد العوامل الهامة التي أخذت تؤثر في تغيير النظرة الأوروبية للمسألة الإسلامية وكيفية التعامل معها خلال تجارب الحروب الصليبية ، فكان الزحف المغولي بقوته وعنفه واتساعه إحدى الصدمات للفكر الكنسي القروسطي الذي بدأ يدرك ، من خلال تعرفه على مناطق جغرافية جديدة وعلى جماعات كثيرة العدد لا تدين بالمسيحية ، أن مفهومه للسيطرة والهيمنة عدداً وحيزاً غير واقعي . وأدى ذلك إلى وجود تيارات تباينت آراؤها حول جهود الكنيسة سواء في مجال التبشير أو مجال الحرب المقدسة ، فبرز تيار تشكك في إمكانية نجاح جهود الكنيسة في حروبها ضد الإسلام ضمن مشروع الحروب الصليبية ، كما برز تيار آخر بدأ يدعو لإعادة النظر في وظيفة الحروب وإستراتيجيتها. ولكن التيارين التقيا في نهاية المطاف على أنه لابد من وسائل وتكتيكات تتناسب مع متغيرات العصر وتهدف بالنتيجة إلى حل إشكالية إسلامية . وكان التيار الداعي إلى ضرورة الإستمرار في الحرب ضد الإسلام هو الغالب ، فدعا إلى تنسيق الجهود بهدف تفادي خسائر الحروب السابقة وإلى المزج بين الأساليب التبشيرية والأساليب القتالية ، وفي سبيل ذلك رأى أيضاً أن ميادين التبشير يجب أن تمتد لتشمل مناطق جغرافية جديدة بهدف كسب أصدقاء للمسيحيين وأعداء للإسلام . وقد ترافقت فترة ظهور مثل هذه الأفكار مع بدايات الزحف المغولي في عهد جنكيز خان (١٢٠٦ - ١٢٢٧ م) ، هذا الزحف الذي نظر إليه ، رغم كل ما رافقه من حروب، على أنه لا يشكل الخطر الأكبر على المسيحيين كما هو الحال مع الإسلام ، وذلك لأن هذه القوة الجديدة ليست إسلامية وليست مسيحية ، فهي لا تشكل تهديداً فكرياً للغرب المسيحي علاوة على أنه في بداياته كان ضمن إطار الحيز الجغرافي للعالم الإسلامي ، وهو بذلك لا يشكل خطراً عسكرياً ضد أوروبا ، بل على العكس من ذلك ربما أنه ضد المناطق الإسلامية فإمكانية التعاون معه واردة لأن العدو في الحالتين مشترك [١].

ويبدو أن القوى الأوروبية المشاركة في الحملات الصليبية { الحملة الخامسة

(١٢١٨-١٢٢١)] قد عبرت عن مثل هذه الرؤيا ، ويتضح ذلك من خلال رسالة البابا هونوريوس الثالث (١٢١٦ - ١٢٢٧) إلى أسقف مدينة ترير الألمانية في ١٣ آذار ١٢٢١م وجاء فيها : " ... فكما أخبرنا أخونا المحترم بلاغيوس أسقف البانو وكيل الكرسي الرسولي ، فقد أسرع الملك داود المعروف بالكاهن يوحنا - وهو كاثوليكي يخشى الله - على رأس جيش ضخم إلى بلاد فارس وهزم سلطانها .. وهو الآن على بعد عشرة أيام من بغداد .. لذا نأمل أن تتمكن جيوشنا عند دمياط عندما تتلقى المساعدة المنتظرة من احتلال مصر كلها في فصل الصيف بعون الله ، إذ في هذا الوقت ستكون جحافل الأمراء السرازنيين التي إجتمعت من كل أفق لرد الهجمة على مصر مضطرة للتفرق والعودة إلى بلادها للدفاع عن حدودها "[٢].

وعلى الرغم من أن هذه الرسالة تبين مدى اضطراب المعلومات لدى قادة حملة الصليبيين والأوروبيين عن طبيعة الغازي الجديد ، إلا أنها رأت فيه قوة منجدة لها مادامت موجهة ضد الإسلام ، فهي وإن لم تشترك مباشرة في حربها ضد الإسلام لكنها على الأقل في هذه الظروف ستكون عامل إشغال للمسلمين لاضطرارهم للحرب على أكثر من جبهة ، وحين تكشفت حقائق أكثر عن طبيعة القوة الجديدة وبأنها ليست مسيحية لم تفقد أوروبا والكنيسة الآمال في إمكانية التعاون مع المغول ، ومن هذا المنطلق بدأت الاتصالات بين الطرفين عن طريق التبشير والتجارة والوفود السياسية التي تطورت إلى حد العمل على عقد تحالفات عسكرية .

الموقف الأوروبي من التوسع المغولي :

إذا كان التوسع المغولي في عهد جنكيز خان يكمن ضمن دائرة الغموض بالنسبة لأوروبا والكنيسة الكاثوليكية بحيث لم تكن المعلومات الأوروبية دقيقة عن هذه القوة الجديدة التي تتوسع في حيز جغرافي بعيد عن أوروبا ، فإن الحال قد تغير في عهد خلفاء جنكيز خان حيث أصبحت القوات المغولية على مساس مباشر مع أجزاء أوروبية، وفي هذه الحالة كان الموقف الأوروبي قد بدأ يأخذ منحى آخر .

ففي عهد اكتاي خان (١٢٢٧ - ١٢٤١ م) استولت القوات المغولية على

مناطق في أوروبا الشرقية ، كما استولت على مناطق بين جبال أورال وشبه جزيرة القرم، وسيطرت على مناطق اكرانيا وكييف في سنة ١٢٤٠ م ، وسيطرت أيضاً على أجزاء من بولندا والمجر ، ووصلت إلى حدود برلين [٣] ، كما سيطر قسم آخر على المجر واحتل عاصمتها بست وزحف حتى فينا [٤] . وإذا كان هذا الزحف في بداياته قد تمركز حول مناطق في أوروبا الشرقية وبذا لم يثر ردود فعل أوروبية غربية حاسمة على إعتبار أن المناطق التي احتلت هي مناطق معارضة لها مذهبياً ، ولكن الزحف المغولي لم يكن ليأخذ ذلك بعين الاعتبار وأصبح مهدداً لأوروبا الغربية وللكنيسة الكاثوليكية، وحينها كان لابد من اتخاذ إجراءات معينة لمواجهة هذا الخطر ، وكان من أوائل الذين دعوا إلى مواجهة هذا التقدم المغولي كل من إمبراطور ألمانيا فردريك الثاني (١٢١٢ - ١٢٥٠ م) والبابا جريجوري التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١ م) ولكن المشاكل الواقعة بين القوتين حالت دون إتخاذ موقف واحد حيال المشكلة المغولية[٥] . بعد ذلك إتخذت المحاولات الأوربية أنماطاً مختلفة للتعامل مع القوة الجديدة تهدف إلى الإفادة من هذا الغزو على صعد مختلفة : دينية وسياسية وعسكرية ، وكان مهندس المحاولات الأولى هو البابا انو سنت الرابع (١٢٤٣ - ١٢٥٤ م)[٦] الذي فكر في خطط بديلة لتقليل خطر المغول أو الإستفادة من بروزهم على المسرح السياسي الدولي آنذاك ، وقد شملت خطته ثلاثة محاور رئيسية هي :

١- الدعوة لتكوين قوة عسكرية من دولة أوروبا الكاثوليكية على أن تمنح هذه القوة امتيازات دينية ودنيوية ، ولكن مثل هذه الدعوة لم يحالفها النجاح بسبب الأوضاع الأوروبية آنذاك والتي خيمت عليها ظلال الشك من خلال الصراع الدائر بين القيصر فردريك الثاني (ألمانيا) (١٢١٢ - ١٢٥٠ م) والملك لودفيج التاسع (فرنسا) (١٢٢٦-١٢٧٠م) وهنري الثالث (إنجلترا) (١٢١٦ - ١٢٧٢م) وصراعهم مع البابوية[٧] .

٢- الاستفادة من معاناة دول أوروبا الشرقية من الغزو المغولي ومحاولة البابا الاستفادة من ذلك عن طريق عرض المساعدة الكاثوليكية الغربية للروس على أمل تخفيف حدة الصراع بين الكنيستين . ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل من

ناحيتين: الأولى أن البابا لم يكن في حقيقة الأمر قادراً على تقديم أي مساعدة ملموسة أو مجدية في وجه القوة المغولية والثانية مظاهر الرفض التي تمثلت عند الكثير من أمراء أوروبا الشرقية ، وأبرز مثال على ذلك رد الأمير الروسي الكسندر نيفسكي سنة (١٢٥١ م) حيث بعث للبابا رداً اتسم ببعض القسوة والرفض ومن عباراته : « ... ما يقوله العهد القديم والعهد الجديد نعرفه جيداً ونعرف حقيقة تعاليم الكنيسة ، ولكن حاجتكم (مذهبكم) لا نريد أن نتبعه »(٨) .

ويبدو أن البابا كان متوقعاً مثل هذا الرد ، ولذلك كان في الوقت نفسه يستخدم البديل الثالث الذي يخدم الكنيسة الكاثوليكية عن طريق زيادة التبشير بين المغول أو الاستفادة من توجههم ضد الدولة الإسلامية لخدمة مستعمرات الكنيسة الكاثوليكية المتمثلة بالإمارات الصليبية في الشرق الإسلامي ، ومن خدمة هذا الهدف كانت الخطة الثالثة .

٣- إرسال الوفود والبعثات المتكررة إلى القادة المغول ، وبخاصة إلى عاصمة المغول في الشرق الأقصى(قراقورم)(٩) وعلى الرغم من أن هذه البعثات مزجت ما بين الدين والسياسة ، ورغم الردود غير المشجعة ، إلا أن البابوية ودول أوروبا سارت في هذه المحاولة إلى أبعد مدى ممكن على أمل أن تتحقق الأهداف الأوروبية السياسية والدينية ولو على مراحل ، إضافة لذلك فقد سعت البابوية للحصول على معلومات عن المغول من البلاد التي خضعت لسيطرتهم وخاصة هنجاريا(١٠) .

الإتصالات الأوروبية مع المغول قبل معركة عين جالوت :

إذا كان الفضل في الإتصال مع القوى المغولية من الجانب الأوروبي يعود بالدرجة الأولى إلى مبادرات وخطط البابا انوسنت الرابع (١٢٤٣ - ١٢٥٤ م) ، فيجدر بنا هنا أن نتذكر أن محاولات الاتصال والاكتشاف بين المغول والأوروبيين شملت مراسلات بين فرنسا والمغول وبالمقابل راسل المغول بعض الدول الأوروبية(١١) .

ويمكننا أن نوجز أوضاع الطرفين قبل بدء محاولات الإتصال وأثنائها ، ففي الجبهة الأوروبية كانت الكنيسة ومنذ أيام البابا جريجوري التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١ م) تخوض صراعاً على السلطة مع إمبراطور ألمانيا فردريك الثاني (١٢١٢ - ١٢٥٠م) وقد شملت جبهة الصراع فرنسا وألمانيا وكان ميدانها الحقيقي إيطاليا . ولم تنته هذه الصراعات بوفاة البابا جريجوري (١٢٤١ م) ، بل استمرت إلى عهد خلفائه وأكثرهم أهمية هو البابا انوسنت الرابع الذي اضطر أمام خطط الإمبراطور الألماني إلى الهرب من روما إلى جنوة ومنها إلى ليون حيث عقد مجمعاً دينياً في ليون سنة (١٢٤٥م)(١٢) ، وكان من قراراته محاولة عزل فردريك عن حكم ألمانيا . واستمرت الشكوك وعدم الثقة بين القوى الأوروبية والكنيسة حتى بعد وفاة فردريك الثاني سنة (١٢٥٠ م) وكانت القوى الأوروبية موزعة الولاء في هذا الصراع (١٣) .

أما على الصعيد المغولي ، فقد كان لديهم في هذه الفترة قضايا هامة تمثلت في الصراع على الحكم بعد وفاة كل من الخان كيوك (١٢٤٦ - ١٢٤٨ م) ومونغكو (١٢٥١-١٢٥٩م) ، إضافة إلى جهودهم العسكرية الموزعة على أكثر من جبهة ، فقد كانت جهودهم مركزة في سنوات (١٢٥٣ ، ١٢٥٤ ، ١٢٥٨ م) ضد كوريا والصين . وفي الجناح الآخر للسيطرة على بلاد فارس وبلاد الخلافة العباسية (١٤) . في ظل هذه الظروف بدأت المراسلات وإرسال البعوث بالاتجاهين من أوروبا إلى المغول وبالعكس .

وقد تمثلت هذه المحاولات بعدد من البعثات كان للبابا انو سنت الرابع وللملك فرنسا لودفيج التاسع الدور الأكبر فيها ، ويمكن أن نوجزها فيما يلي :

١- أول البعثات كانت التي إنطلقت كثمرة من ثمرات مجمع ليون سنة (١٢٤٥ م) وقد تزعم هذه البعثة جون بيان دل كاربيني (١١٨٢ - ١٢٥٢ م) ، وكان من وراء أهداف إرسال كاربيني إلى المغول هو محاولة استخدامهم كوسيلة لتحقيق هدف منظور إما بنشر المسيحية بين المغول أو السيطرة الكاثوليكية على مناطق الأرثوذكسيين في روسيا أو الحصول على مساعدات لأوروبا وللكنيسة ضد

فردريك الثاني إمبراطور ألمانيا ومن ثم محاولة الاستفادة من التوجه المغولي على الجبهة الإسلامية لخدمة الإمارات الفرنجية وإعادة بيت المقدس لهم الذي أصبح بيد المسلمين منذ سنة ١٢٤٤ م [١٦] .

وبدأ تحرك كاربيني من ليون في ١٦ إبريل ١٢٤٥ م ووصل إلى قرا قورم في ٢٢ يونيو ١٢٤٦ ، وكان خط سيره عبر كولن - لايجنيز - برسلاو - كركاو - كييف - ساراي - قرا قورم [١٧] . واستطاع وفد كاربيني مقابلة الخان المغولي كيوك (١٢٤٦ - ١٢٤٨ م) ، وعاد الوفد بعد أن سلم الرسائل البابوية برد مغولي ، لا يزال منه مقتطفات في أرشيف الفاتيكان حيث اكتشف سنة ١٩٥٠م، وله أكثر من ترجمة بالفارسية واللاتينية ويرى Weiers أن له نسخة عربية ، ومنه : " باسم قوة السماء الأبدية ، وباسم حاكم الشعب الأكبر والعالم ... إذا قبلتم السلام وتسليم حصونكم وقلاعكم لنا نعلم أنكم أهل سلام وسوف نمنحكم السلام ، ولكن إذا لم تستمعوا لأوامرنا ومعتقداتنا ورسائلنا وأمر الله .. عندئذ سنكون على يقين أنكم لا تريدون سوى الحرب وبعد ذلك فإننا لا نعلم ما سيحصل فالله وحده هو الذي يعلم " [١٨] .

فعلى الرغم من أن البابا كان يهدف إلى نواحٍ دينية ، إلا أن الرد المغولي لم يكن موجهاً للبابا ، بل إلى كل القوى الأوروبية ، وهو أشبه بطلب الاستسلام بلا شروط ، وكان هذا معروفاً لدى المغول ، فهم يؤمنون بأن السماء يوجد فيها إله واحد أبدي وكذلك على الأرض يجب أن لا يكون إلا حاكم واحد وهو من نسل جنكيز خان (ابن السماء أو ابن الله) ، أو كما كانوا يقولون شمس في السماء وسيد على الأرض [١٩] .

٢- السفارة الثانية من قبل البابا والتي انطلقت فكرتها من مجمع ليون هي السفارة التي توجهت تحت قيادة اسكلين اللومباردي سنة (١٢٤٥ م) ، وقد سارت في طريق غير طريق رحلة كاربيني حيث وصل اسكلين إلى سوريا ومنها إلى مناطق إيران ، وإلتقى هناك ببعض القادة العسكريين المغول [٢٠] ، وقد لمس من خلال ذلك ترحيب المغول بعمل عسكري يقوم به الغرب الأوروبي ضد المناطق

الإسلامية[٢١] . ويبدو أن ذلك يكمن في دائرة المخطط المغولي الذي كان يتجه للسيطرة على مناطق الخلافة العباسية مما يستدعي إشغال القوى في بلاد الشام ومصر في مواجهة القوى الغربية لمنعها من تقديم مساعدات للخلافة العباسية حال تعرضها للهجوم المغولي .

المهم في هذه السفارة أنها ضمت في طريقها قبل الوصول إلى معسكر القائد المغولي باتو اثنين هما : اندريه لونجيمو وجويخار دي كريمونا [٢٢] .

وعلى الرغم من أن المعلومات عن هذه السفارة أقل من المعلومات عن سفارة كاربيني إلا أنها ذات أهمية من حيث: أولاً ، افتراض أن المرافقين اللذين إنضما إلى السفارة في طريقها لمعسكرات المغول ربما كانا مبعوثين من قبل ملك فرنسا وخاصة أن اسم أندريه لونجيمو سيلعب دورا في سفارة لويس التاسع إلى المغول ، وثانياً ، أن الطريق التي سلكتها هذه السفارة ربما كان الهدف منها تقديم تقرير مفصل عن أوضاع الإمارات الصليبية في الشرق وما يحيط بها ، وثالثاً ، أنها عادت بوفد مغولي لزيارة البابا والقوى السياسية الأوروبية ، كان هذان المبعوثان المغوليان هما ابيك وسركيس ، وقد ذهبا إلى البابا وأقاما في أوروبا حتى سنة (١٢٥٠ م) ، حيث عادا دون أن يتمكنا من تحقيق شيء ملموس على أرض الواقع في مجال التعاون أو التحالف [٢٣] . ورغم ذلك فإن البابا لم يفقد الأمل في الاستفادة من الظروف المغولية لخدمة الأغراض الكنيسية على الرغم من أن تقرير اسكلين لم يكن مشجعاً فإذا كان كاربيني فد إعتبر المغول شياطين ، فإن اسكلين اعتبر الخضوع للمغول أشبه ما يكون بعبادة الأوثان ، وأشار أيضاً إلى أن إمكانية الاستفادة منهم دينياً أو سياسياً أو عسكرياً مدخلها الأول تعلم لغتهم [٢٤] .

وتجددت الاتصالات بين الطرفين الأوروبي والمغولي بعد السفارات البابوية ، فقد حصل اتصال بين القائد المغولي اولجاتيو والملك لويس التاسع أثناء إقامته في قبرص وهو يعد للتوجه بحملته إلى مصر . وكان المبعوثان المغوليان هما مارك وديفيد ، وقد عرضا على الملك الفرنسي سنة (١٢٤٨ م) القيام بعمل عسكري مشترك ضد

المسلمين لوضعهم بين فكي كماشة ، ففي الوقت الذي يهاجم فيه الفرنسيون مصر تندفع الجيوش المغولية في أراضي الخلافة العباسية ، ويبدو أن الطرفين اقتنعا بضرورة هذا العمل وقررا أن يجعلاه رسمياً ، أي بين الملك لويس كممثل عن أوروبا والخان الأكبر في قرا قورم [٢٥] . ومن هنا كان إرسال لويس وفداً ضم اندريه لونجيمو الذي وصل إلى البلاط المغولي وكان الخان المغولي قد توفي ، فاضطر الوفد لمقابلة الوصي على الحكم وهي زوج كيوك اغول غاميش (١٢٤٨-١٢٥١م)[٢٦] ، وقد كان رد المغول غير مشجع حيث أن اغول غاميش أظهرت صرامة في مقابلة الوفد الفرنسي وبعثت برد يبين إلى حد كبير النظرة المغولية القديمة وهي أن الآخرين يجب أن يكونوا تابعين ، ومن هذه الرسالة : " ... الشيء المنصف هو السلام ، ففي أرض السلام هؤلاء الذي يسيرون على أربع يأكلون العشب بهدوء ، والذين على إثنتين يحرثون الأرض ويصبحون أغنياء بهدوء .. وعلى هذا فنحن نرد سفراءكم وعليه سنعقد صفقة بناء على هذا الأمر، وأما هؤلاء الملوك الذي ثاروا ضدنا فقد قتلناهم جميعاً (رجالاً ونساء) ، وعلى هذا فإننا نطالب أن تدفعوا لنا الذهب والفضة في كل سنة لأن هذا سيحافظ على صداقتنا ، وإذا لم يحصل فإننا سنحطمكم كما حطمنا الآخرين " [٢٧] .

وعلى الرغم من أن هذه الرسالة كانت مخيبة لآمال الملك الفرنسي والذي تشير بعض التقارير على أنه ندم على بعثه هذه السفارة [٢٨] ، إلا أن ذلك لم يمنع فيما بعد أن يستغل كل طرف أي بادرة يرى أنها قد تثمر عن عمل مشترك ضد المسلمين ، وبخاصة أنه لدى عودة الوفد الفرنسي كانت القوى الفرنجية بأمس الحاجة إلى مساعدة تأتيها من أي اتجاه بعد فشل حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في دمياط (١٢٥٠ م) وقيام دولة المماليك[٢٩] .

وفي هذه الفترة بدأت إشاعات تروج من أن بعض حكام المغول في مناطق آسيا قد اعتنقوا الديانة المسيحية ومنهم سارتاق ابن الخان باتو ، ولذا عزم لويس التاسع على إرسال بعثة مكونة من وليم دي روبروك (١٢٢٥ - ١٢٧٠ م) وراهبين آخرين أحدهما يدعى برثو لماوس دي كريمونا والآخر يدعى نيقولا ، وقد سارت البعثة من فلسطين عبر القسطنطينية إلى منطقة سولاريا إلى مناطق حول نهر الفولغا ، ووصلت

البعثة إلى مقر الخان باتو في ديسمبر (١٢٥٤م) ، ثم توجهت إلى قرا قورم إلى مقر الخان مونغكو (١٢٥١ - ١٢٥٩ م) . وعادت البعثة إلى فرنسا سنة (١٢٥٥م)[٣٠] برد مغولي ربما يكون أقل حدة من الردود المغولية السابقة ، لكن المطالب المغولية لم تتغير جذرياً ، وربما كان وراء اعتقاد الفرنجة والأوروبيين بأن جهود هولاكو في مناطق إيران والموجهة إلى مناطق العراق ثم بلاد الشام ليست موجهة ضدهم[٣١] ، كما أن اللهجة المغولية في الرسالة يمكن القول أنها خيرت القوى الأوروبية بين الاستسلام سلماً أو حرباً للقوة المغولية . فمما جاء في هذه الرسالة : " أنها إرادة وأمر الله التي نحاول أن نفهمكم إياها ، وعندما تسمعون لها وتعتقدون بها وإذا كان لديكم الرغبة في طاعتنا فارسلوا بسفرائكم إلينا وحينها نقرر ما إذا كنتم تريدون الحرب أم السلام ، وعندها وبإرادة الله الأبدي سيصبح هذا العالم الذي تشرق وتغيب عليه الشمس يعيش في سلام دائم ، وعندها سنكون على ثقة ما الذي سنفعله ، وإذا لم تطيعوا هذه الأوامر ولم تكترثوا بها ولا تعتقدون بصحتها قائلين : إن بلادنا بعيدة وأن جبالنا وعرة وأن بحارنا عظيمة للغاية وقد تقودكم هذه الثقة العمياء لتجهيز جيوش ضدنا ، عندئذ نعرف ما الذي علينا فعله ، إن الذي قرب المسافات وجعل البعيد قريباً والصعب سهلاً هو الوحيد الخالد الأبدي وهو الله"[٣٢] .

الإتصالات بعد عين جالوت (١٢٦٠ م) :

في الوقت الذي لم تصل فيه الوفود المشتركة بين المغول وأوروبا لنتيجة حاسمة كانت القوات المغولية تتقدم على الجبهة الإسلامية ، فبعد أن أنهت القوة المغولية السيطرة علي مناطق الدولة الخوارزمية بوفاة السلطان جلال الدين منكبرتي (٦١٧ - ٦٢٨ هـ / ١٢١٩-١٢٣١ م)[٣٣] ، تابعت زحفها بالسيطرة على مناطق إيران واستطاعت أن تتوسع في هذا الإتجاه بشكل بارز في عهد مونغكو خان (١٢٥١ - ١٢٥٩ م) الذي أوكل مهمة التوسع في بقية أجزاء العالم الإسلامي العراق وبلاد الشام إلى أخيه هولاكو (١٢٥٦-١٢٦٥م) الذي استطاع القضاء على المقاومة الإسماعيلية في منطقة الموت (١٢٥٧م)[٣٤] ، ليتوجه بعد ذلك إلى عاصمة الخلافة العباسية التي تمكن من السيطرة عليها سنة (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م)[٣٥] ولم تقف الجيوش المغولية

عند حد إسقاط الخلافة العباسية بل تابعت زحفها باتجاه بلاد الشام ، وإستغلت في ذلك القوى السياسية في المنطقة المتمثلة في الإمارات الأيوبية المتصارعة فيما بينها ، مما مكنها من السيطرة على حلب شمالاً وحتى غزة جنوباً في سنة (١٢٦٠ م) ، ولقد كانت القوات المغولية مدعومة بقوات من أرمينيا وبعض الإمارات الصليبية [٣٦].

وبعد تحقيق هذه الانتصارات المغولية اضطر هولاكو إلى ترك بلاد الشام بسبب وفاة الخان الأعظم مونغكو [٣٧] ، وهذا الأمر أدى به إلى ترك قوة صغيرة مع قائده كتبوغا الأمر الذي كان له الأثر الأكبر في تغيير ميزان القوى لصالح الدولة المملوكية الناشئة لكي تتصدى للمغول وتنتصر عليهم في موقعة عين جالوت في ٢٥ رمضان (٦٥٨ هـ/٣ أيلول ١٢٦٠م) [٣٨] وبعد الهزيمة الأولى والفادحة للمغول في هذه المعركة أدى ذلك إلى تغيير في خارطة التحالفات وتغييراً أو تعديلاً في بعض المواقف المغولية ، وكان من نتائجها ضمن هذا الإطار ، على حسب قول بيتر كافراو (Peter Kawerau) ، أن أدت إلى تعميق التعاون بين المغول والقوى المسيحية الأوروبية [٣٩] ، حيث لعبت دولة ايلخانية فارس - التي أنشأها هولاكو في مناطق إيران والعراق - الدور الأكثر أهمية ، إذ بدأ حكام هذه الدولة المغولية ، في سبيل التصدي للقوى الإسلامية (المملوكية) في مصر والشام ، بمراسلة القوى الأوروبية لعقد تحالفات معها للقيام بأعمال مشتركة ضد العدو المشترك للمغول وللإمارات الفرنجية . ومن ثم فإن هذه الاتصالات بين كلا الطرفين قد أخذت طابعاً مختلفاً عما كانت عليه قبل معركة عين جالوت ، فبعد أن كانت تمثل محاولات أوروبية للتقرب من المغول - (كما حصل في زيارة الوفد المسيحي بزعامة ديفيد الاشبي الذي زار هولاكو في بلاد الشام قبل معركة عين جالوت ، حيث كان التركيز في هذه الزيارة على النواحي الدينية والمطالبة بالسماح للمبشرين المسيحيين بالعمل في دولة ايلخانية فارس ، إلا أن الرد المغولي إقتصر على الوعد بتسهيل أمور المبشرين ورعاية شؤون المسيحيين ، وهذا الوعد ربما كان بتأثير دوقوز خاتون زوج هولاكو النسطورية المذهب [٤٠] . أصبحت على العكس من ذلك تمثل محاولات مغولية للتقرب من أوروبا وذلك بسبب الفشل المغولي في معركة عين جالوت وما تلاها من فشل آخر تمثل في هزيمة المغول في معركة حمص

(٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م)[٤١] ، إضافة لاضطرار دولة ايلخانية فارس للحرب على جبهتين (جبهة الدولة المملوكية ، وجبهة مغول القبيلة الذهبية التي كانت علاقاتها حسنة مع الدولة المملوكية)[٤٢] ، فهنا وجدت دولة ايلخانية فارس نفسها ملزمة للقيام بدور المبادر للاتصال بقوى مختلفة تبحث معها قضية التحالف للوقوف في وجه الخطر الإسلامي . ومن هنا كان قرار هولاكو بإرسال وفد ضخم إلى القوى الأوروبية سنة (١٢٦٢ م) ، وقد ضم هذا الوفد أربعة وعشرين نفراً ، إضافة إلى عدد من المترجمين الذين كلفوا بحمل رسائل من هولاكو إلى الملك الفرنسي لود فيج التاسع (١٢٢٦-١٢٧٠م) ، وللبابا اوربان الرابع (١٢٦١ - ١٢٦٤م)[٤٣] ، وعلى الرغم من أن هذا الوفد قد واجه صعوبات في الوصول إلى روما بسبب ما تعرض له من إعاقة من قبل مانفرد حاكم صقلية (١٢٥٨ - ١٢٦٦م) ، بسبب صراعه مع البابا ، إلا أن أحد أعضاء الوفد وهو جون الهنغاري قد استطاع الوصول إلى روما ، حيث أستقبل من قبل البابا وعرض هذا الموفد على البابا رغبة هولاكو في العمل المشترك ضد الدولة المملوكية[٤٤]وفي سبيل الحصول على تأكيدات بابوية للعمل المشترك أخبر الموفد البابا بأن هولاكو مستعد لقبول المعمودية واعتناق الديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكي، وكان الرد البابوي بأن ذلك لو حصل (معمودية هولاكو) فإن البابا سيكون على استعداد للعمل على تجهيز حملة عسكرية ، تعمل مع المغول ضد العدو المشترك وهو الدولة المملوكية[٤٥] ، ويبدو أن طروحات هولاكو النابعة من وضعه العسكري الصعب لم تكن محل تصديق من قبل البابا ، إذ أن البابا قد طلب من بطريرك القدس[٤٦] ، أن يتأكد من صحة ما نقله الوفد المغولي .

وعلى أية حال فإن الردود الغربية على اقتراحات هولاكو للعمل المشترك ضد المماليك لم تثمر عن شيء ، بل أن هذه الردود رغم عدم وضوحها لم تصل إلى حاضرة الدولة ايلخانية فارس إلا بعد وفاة هولاكو سنة (١٢٦٥ م)[٤٧] .

ومما هو جدير بالذكر في هذا السياق أن هولاكو وضمن سياسته في البحث عن حلفاء ضد أعدائه المماليك والقبيلة الذهبية ، لم يغفل التوجه إلى القوة المسيحية القريبة من منطقة الصراع وهي الدولة البيزنطية ، وقد حاول هولاكو تعميق الصلات

معها بتخطيطه للزواج من الأميرة ماريا بنت الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن (١٢٥٩ - ١٢٨٢ م) الأمر الذي أعتبر تتويجاً لاتفاقية سرية عقدت بين الطرفين سنة (١٢٦١ م) وفقاً لما يقوله ميخائيل فايرز Michael Weiers [٤٨] ، وقد جاء هذا التقارب بين دولة ايلخانية فارس وبيزنطة بسعي من هولاكو بهدف إعاقة الإتصال بين المماليك وحلفائهم من مغول القبيلة الذهبية ، إضافة إلى حرمان هذه القوى من الامتيازات التجارية التي يوفرها موقع بيزنطة للأطراف المختلفة ، ولكن هذا الأمر لم يتم كما تمنته دولة ايلخانية فارس ، إذ أن موقع بيزنطة وإمكاناتها العسكرية آنذاك كانت تجبرها على التعامل مع القوى الثلاث (مغول ايلخانية فارس ، مغول القبيلة الذهبية، الدولة المملوكية) ، لذا لم يكن مستغرباً أن نجد في القسطنطينية وفوداً من القوى السابقة الذكر في آن واحد[٤٩] ، وما يخلص إليه البحث في هذا المجال هو أن هولاكو الذي كانت توجهاته قبل معركة عين جالوت تهدف إلى الوصول إلى شواطيء البحر الأبيض المتوسط وفي سبيل ذلك كان يسعى للقضاء على أية قوة تقف في طريقه سواء كانت متمثلة بقوة الإمارات الفرنجية أو قوة الدولة البيزنطية أو القوة الإسلامية في بلاد الشام ومصر ، ونجد أن هذا الأمر قد تغير نتيجة معركة عين جالوت، إذ سعى إلى التحالف مع قوى كان يرغب في القضاء عليها ، كما نجد أيضاً بدايات واضحة لإستغلال الدين كسلاح تحالفي وهذا ما حاوله خلفاء هولاكو في سبيل التقرب من القوى المختلفة[٥٠].

وبعد وفاة هولاكو واستمرار الأخطار التي واجهت دولة ايلخانية فارس ، نجد أن حكام هذه الايلخانية يعمقون سياسة البحث عن حلفاء في سبيل التصدي لأعدائهم من المماليك ومغول القبيلة الذهبية ، وفي سبيل ذلك قام الايلخان اباقا (١٢٦٥ - ١٢٨٢ م) بعدة محاولات منها إتمام التقارب مع بيزنطة إذ تزوج بالأميرة ماريا التي أصبح أسمها دسبينا خاتون[٥١] ، وبلغ به الأمر أيضاً أن سك عملة مغولية ونقش عليها عبارة (باسم الأب والابن والروح القدس الإله الواحد)[٥٢] ، وقد كان الرد الأوروبي على هذه المبادرات المغولية من خلال إرسال وفد سنة (١٢٦٧ م) حمل معه اقتراحاً بأن القوى الأوروبية تعد العدة لإسال حملتين عسكريتين إلى منطقة الشرق ،

إضافة إلى إعلاتهم النية عن عقد تحالف عسكري ضد المماليك ، ولم يكن رد آباقا إيجابياً على هذه الإقتراحات(٥٣) ، ويبدو أن سبب ذلك هو ما كان يشغل آباقا آنذاك وهو حربه مع مغول القبيلة الذهبية(٥٤) ، وبعد ذلك يعود آباقا إلى طرح فكرة جديدة تهدف إلى تكوين حلف ثلاثي يضم كلاً من بيزنطة وقوات أوروبا الغربية إضافة إلى القوات المغولية وذلك بهدف وضع القوة المملوكية بين فكي كماشة عسكرية تضطر في حينها إلى الحرب على أكثر من جبهة ، مما قد يعطي هذا الحلف المقترح إمكانية تحقيق نصر عسكري على أرض الواقع(٥٥) . وفي أثناء هذه المحاولات نجد أن القوات المملوكية تحقق انتصارات في بلاد الشام إذ استطاعت أن تحقق السيطرة على أنطاقية سنة (١٢٦٨ م)(٥٦) ، وربما كان هذا عاملاً من عوامل إحباط التخطيط لدعوة آباقا لتكوين حلف ثلاثي ، ونجد أن القوى الأوروبية بدلاً من أن تتوجه إلى بلاد الشام على أمل أن تتلقى دعماً مغولياً لإنقاذ الإمارات الفرنجية نجدها تتوجه بحملة عسكرية هي الحملة الصليبية إلى تونس والتي قادها الملك الفرنسي لويس التاسع(٥٧) ، وقد توجهت بعض بقايا الحملة الصليبية على تونس إلى فلسطين حيث بدأت من هناك محاولات الاتصال مع مغول ايلخانية فارس بهدف القيام بعمل عسكري ضد المماليك ، ولكن ظروف الطرف الأوربي وإمكاناته العسكرية المحدودة إضافة إلى انشغال حكام ايلخانية فارس في حربهم مع مغول القبيلة الذهبية حالا دون قيام الطرفين بأي عمل عسكري حاسم ضد المماليك(٥٨) .

وفي سنة (١٢٧٢ م) توج تبيالدي فيسكونتي لمنصب البابوية وأصبح يعرف باسم البابا جريجور العاشر (١٢٧١ - ١٢٧٦م)(٥٩) وسعى البابا الجديد إلى عقد مجمع كنسي تم عقده في مدينة ليون في إبريل (١٢٧٤م)(٦٠) ، وأراد المغول استغلال هذا الحدث الذي جاءت معلوماتهم عنه إما عن طريق بقايا القوات الإنجليزية الموجودة آنذاك في فلسطين (من بقايا حملة تونس) ، أو من خلال القوات الأرمينية والجورجية المتعاونة مع المغول(٦١) ، وعلى ذلك قرر اباقا أن يستغل هذا المجمع ، فبعث بوفد لمقابلة القوى الأوروبية لطرح قضية التعاون مجدداً بين الطرفين ، وقد ضم وفده ممثلين شخصيين إضافة إلى أربعة عشر مرافقاً وحملهم رسالة مغولية إلى

المجمع[٦٢] ، ويبدو من هذه الرسالة أنها تستعرض العلاقات المغولية الأوروبية قبل عهد اباقا كما تظهر رغبة مغولية في التأكيد على العمل المشترك لتحطيم قوة المماليك. وإظهاراً لصدق المغول وتأكيداً لنواياهم تجاه القوى المسيحية الأوروبية نجد أن ثلاثة من أعضاء الوفد تم تعميدهم في مدينة ليون ، ومن ليون تابع الوفد جولاته الأوروبية ، حيث قام بزيارة إلى إنجلترا وارغوان عارضاً على القوى السياسية هناك فكرة العمل المشترك ، ثم عاد مجدداً إلى ليون[٦٣] ، حيث حصل على الرد الكنسي في رسالة معنونة إلى الايلخان اباقا ، ولكن هذا الرد والردود الشفوية التي تلقاها الوفد من حكام أوروبا لم تكن واضحة بشأن فكرة التحالف والعمل المشترك، فهي وإن كانت تشير إلى أن الغرب يخطط لإرسال حملات إلى الشرق ، إلا أن هذا لم يكن كافياً بالنسبة للمغول ، حيث لا تاريخ محدد لتوجه الحملات ، كما أن الأمر غير واضح ما إذا إذا كانت الحملات المنوي توجيهها ستعمل مع المغول ضمن قوة مشتركة أم أنها ستعمل بمفردها[٦٤]. في هذا الوقت الذي كان فيه الغرب الأوروبي متردداً وغير واضح بالنسبة لحملاته إلى الشرق ، كان المغول في المقابل يضغطون في سبيل سرعة بعث هذه الحملات لتعمل مع المغول ضد المماليك ، في هذا الوقت كانت القوة المملوكية تحرز انتصارات على أرض الواقع وتحرم القوى المغولية والصليبية من مراكز إستراتيجية، حيث استطاعت القوات المملوكية من السيطرة على سيس عاصمة أرمينيا حليفة المغول سنة (١٢٧٥ م) ، كما سيطرت على منطقة قيسارية ، وبهذا استطاعت أن تحد من تحرك المغول ضد مناطق شمال بلاد الشام[٦٥] ، ولقد كانت هذه التطورات باعثاً جديداً لآباقا لكي يجدد الاتصال مع البابوية وحكام أوروبا الغربية ، فأرسل في سنة (١٢٧٦م) وفداً حمله رسائل إلى البابا وملكي فرنسا وانجلترا ، وقد قدم الطرف المغولي هذه المرة في رسالته إغراءات جديدة للأوروبيين لتشجيعهم على القيام بعمل عسكري مشترك حيث تعهد الطرف المغولي بإعطاء الجيش الأوروبي (في حال قدومه إلى الشرق) حرية الحركة ضمن أراضي دولة ايلخانية فارس وصولاً إلى فلسطين ، كما تعهد المغول دعم هذه القوات بقوات مغولية أعدت خصيصاً لهذا الغرض ، إضافة إلى تعهد المغول بتوفير الأدلاء والتموين للجيش الأوروبي، كما زف الحاكم المغولي آباقا

بشرى لحكام الغرب مفادها أن الخان الأكبر قوبلاي خان في الصين (١٢٤٩ - ١٢٩٤م) قد أصبح مسيحياً ويطلب أن ترسل البابوية والدول الأوروبية مزيداً من المبشرين لنشر الديانة المسيحية في الدولة المغولية[٦٦] .

على الرغم من كل هذه المساعي التي بذلها آباقا ، فإن النتائج لم تثمر عن شيء فعلي ، بل إن رسالة آباقا السابقة الذكر قد بقيت دون إجابة بسبب وفاة البابا جريجور العاشر في نفس السنة ، وتوالى بعد ذلك على كرسي البابوية كل من البابا انوسنت الخامس سنة (١٢٧٦ م) والبابا هدريان الخامس (١٢٧٦ م) والبابا يوحنا الحادي والعشرين (١٢٧٦ - ١٢٧٧م) ، وأخيراً الباب نيقولا الثالث (١٢٧٧ - ١٢٨٠م) ، وقد كان لكل ذلك أثر في إعاقة الاتصال مع البابوية ، ولذا لجأت دولة ايلخانية فارس في هذه الفترة بتركيز اتصالاتها مع كل من إنجلترا وفرنسا ، ولكنهم لم يحصلوا من القوتين المذكورتين على أية ردود واضحة بشأن قضية التعاون المشترك ضد المماليك[٦٧] ، وحينها قرر المغول العمل عسكرياً وبمفردهم ضد الدولة المملوكية وقد ساعدتهم الظروف التي مرت بها دولة المماليك بعد وفاة السلطان الظاهر بيبرس (٢٨ محرم ٦٧٦ هـ / ١ يوليو ١٢٧٧ م)[٦٨] على تحقيق نصر عسكري سنة (١٢٧٧م). وفي هذه الأثناء جاءت الردود الأوروبية على رسائل آباقا السابقة للبابا جريجور العاشر، حيث بعث البابا نيقولا الثالث برسالتين إحداهما مؤرخة في (١ إبريل ١٢٧٨م) وهي موجهة لآباقا والثانية مؤرخة (٤ إبريل ١٢٧٨) وهي موجهة للخان الأكبر قوبلاي خان ، لكن الطرف المغولي أبدى تحفظاً في التعامل مع الوفد البابوي الذي حمل الرسائل بحيث لم يلق هذا الوفد معاملة حسنة كالتي كانت لغيره من الوفود السابقة ، كما تم رفض الطلبات البابوية المتمثلة بقيام الحكام المغول بتعميد أنفسهم[٦٩] ، ويبدو أن هذا التغير من طرف المغول كان نابعاً من متغيرات في جسم الدولة المغولية من ناحية والدولة المملوكية من ناحية أخرى ، فالدولة المغولية كانت مهتمة في هذه الفترة بضبط الأوضاع الداخلية كالعمل على إخماد ثورات خراسان وجنوب إيران ضد آباقا[٧٠] ، أما على صعيد الدولة المملوكية فإن وفاة السلطان الظاهر بيبرس أدت إلى اختلافات بين أمراء الدولة المملوكية في مصر وبلاد الشام مما أدى إلى

إضطراب الأوضاع إلى حدود سنة (٦٨٠ هـ / ١٢٨٢ م)[٧١] . وهذا ما أعطى أملاً للمغول حول إمكانية القيام بعمل عسكري دونما مساعدة غربية ، وضمن هذا السياق وجه اباقا حملة عسكرية إلى بلاد الشام قادها أخوة منكوتيمور ، حيث زحفت قواته والتي قوامها أربعون ألفاً إلى مناطق شمال سوريا ، حيث حققت هذه القوات بعض النصر العسكري في مناطق حلب وحماة ، ولكنها تعرضت للهزيمة العسكرية في موقعة حمص سنة (١٢٨١ م)[٧٢] ، وقد حاول آباقا بعد هذه الهزيمة أن يجدد العمل العسكري ضد المماليك ، ولكنه لم يصادف أي نجاح وتوفي سنة (١٢٨٢ م) ، وبوفاته تبدأ صفحة مختلفة في طبيعة العلاقات بين مغول ايلخانية فارس وأوروبا والدولة المملوكية .

بعد وفاة آباقا تسلم الحكم في دولة ايلخانية فارس الايلخان تكودار (١٢٨٢-١٢٨٤م) وقد حاول هذا الحاكم الجديد أن يقوم بمراجعة لسياسة أسلافه من حكام ايلخانية فارس ، وكانت أهم خطواته في هذا الاتجاه إعلان اعتناقه للدين الإسلامي واتخذ اسماً إسلامياً وهو السلطان أحمد[٧٣] ، وسعى بناء على ذلك إلى محاولة التقرب من الدولة المملوكية ، حيث بعث برسالتين إلى السلطان المملوكي المنصور قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ) فالرسالة الأولى بعث بها سنة (٦٨١ هـ) ، وأعلن من خلالها الرغبة المغولية في إنهاء حالة الحرب والدعوة للإهتمام المتبادل بشؤون الرعية الإسلامية في كلا البلدين ، أما الرسالة الثانية فكانت في سنة (٦٨٢ هـ) ، ولكنها لم تصل إلا بعد مقتل الحاكم المغولي ، وقد رد السلطان المملوكي على الرسالتين السابقتين ، والأمر الذي يمكن فهمه من رسائل المغول والردود عليها هو أن الرسائل المغولية رغم ورود عبارات فيها يؤكد الرغبة في السلم ، إلا أنها لم تخلُ من لهجة الإستعلاء والتهديد ، وعلى ذلك يبدو من الرد المملوكي الحذر والتشكك من النوايا المغولية[٧٤] ، ولقد كان هذا الأمر ، إضافة إلى ما واجهه تيكودار من ثورات داخلية قادها ارغون بن اباقا ، سبباً في فشل محاولات التقارب المغولي - المملوكي في المقابل فإن فترة حكم تيكودار قد خلت من المواجهة العسكرية بين الطرفين ، وهذا ما أتاح الفرصة للدولة المملوكية لكي تزيد من ضغطها على الإمارات الفرنجية وتعمق

صلاتها مع مغول القبيلة الذهبية(٧٥) ، وهو الأمر الذي ساعد مجدداً على أن يقوم الحاكم المغولي الجديد ارغون (١٢٨٤ - ١٢٩١ م) بمحاولة الاتصال مع القوى الأوروبية في سبيل عقد تحالف معها لمواجهة خطر الدولة المملوكية ، وفي هذا السياق نجد أن أرغون الذي كان يدين بالبوذية ، قد سار على نفس سياسة والده آباقا في التقرب من القوى الأوروبية وتقديم تسهيلات للمسيحيين في دولته ، ويتضح ذلك من خلال رسالته المؤرخة في (١٨/٥/١٢٨٥م) التي بعث بها للبابا وللملك فرنسا ، حيث يشير فيها إلى أنه قد أعفى المسيحيين في أراضي الدولة المغولية من دفع الضرائب ، وأشار أيضاً إلى رغبته في العمل المشترك لتحقيق المصلحة المغولية والمسيحية بالقضاء على دولة المماليك ، واختتم رسالته بالإشارة إلى أن سياسته هي تكملة لما بدأه كل من هولاكو وآباقا(٧٦) . ويبدو أن هذه الرسالة لم تسفر عن خطط لعمل مشترك ، الأمر الذي جعله يبعث وفداً ثانياً في سنة (١٢٨٧ م) وكان من ضمن هذا الوفد بارسوما ، وكانت خطة الوفد المغولي تشتمل على زيارة روما لمقابلة البابا هونوريوس الرابع (١٢٨٥ - ١٢٨٧ م) بهدف التباحث معه لكي يحث زعماء الدول الأوروبية وبخاصة فرنسا وإنجلترا لتوجيه حملات إلى الشرق الإسلامي ، ولكن هذا الوفد وصل إلى روما بعد أن كان البابا المذكور قد توفي (١٢ إبريل ١٢٨٧ م) ، وكان على الوفد أن يكتفي بمقابلة مجموعة من الكرادلة الذين لا يملكون القدرة على اتخاذ قرارات حاسمة حول ما طرحه الوفد المغولي ، وركزوا في مناقشاتهم مع الوفد المغولي على قضايا دينية ذات صبغة تبشيرية(٧٧) . وتابع الوفد زيارته إلى فرنسا وانجلترا حيث حصلوا على وعد من الملك الفرنسي فيليب الرابع (١٢٨٥ - ١٣١٤م) بأنه سوف يعد حملة إلى الشرق ويتولى قيادتها بنفسه ، ومن أجل التأكيد على نية العمل المشترك بعث الملك الفرنسي بموفد فرنسي هو جوبارت هيليفيل ليرافق الوفد المغولي وليناقش معهم في عاصمة دولة ايلخانية فارس التفاصيل للعمل العسكري المشترك المنتظر حصوله(٧٨) ، وعلى العكس من ذلك فإن ما تلقاه الوفد من رد انجليزي كان حذراً وغير واضح وذلك يعود إلى انشغال انجلترا آنذاك بقضايا داخلية مثل ضمان السيطرة على ويلز ومحاولة فتح اسكتلندا(٧٩) .

والذي يبدو أن زيارة هذا الوفد المغولي لأوروبا آنذاك قد جاءت في ظروف غير مواتية لإتخاذ قرار حول إمكانية التحالف المغولية الأوروبي ، فالكنيسة مشغولة بقضية تعيين خليفة للبابا المتوفي ، والحرب دائرة بين اراغون ونابولي علاوة على المشاكل الخاصة بانجلترا ، وكل ما عاد به الوفد المغولي ، إضافة إلى الوعد الفرنسي ، كان عبارة عن رسالتين من البابا الجديد نيقولا الرابع (١٢٨٨ - ١٢٩٢ م) ، الأولى مؤرخة في (٧ إبريل ١٢٨٨)، والثانية في (١٣ إبريل ١٢٨٨) ، إحداهما موجهة لحاكم ايلخانية فارس والأخرى إلى الخان الأكبر قوبلاي ، ويتضح من هاتين الرسالتين أنهما تضمنتا وعوداً بابوية للعمل المشترك ، إضافة إلى التمنيات البابوية بأن يصبح حكام المغول من المسيحيين ويرد فيهما أيضاً إشارة إلى أن البابا سيقوم بنفسه بتعميد حاكم ايلخانية فارس في القدس بعد أن تعود للسيطرة الأوروبية[٨٠] .

في ضوء هذه النتائج غير المرضية للمغول نجد أن حاكم ايلخانية فارس يقدم إغراء آخر في سبيل إقناع الغرب بمدى إهتمامه بالديانة المسيحية وحرصه على العمل معها ضد الدولة المملوكية ، حيث عمل على تعميد ابنه خدابنده سنة (١٢٨٩ م) وسماه إسماً مسيحياً وهو نيقولا كاسم البابا[٨١] . وأتبع هذا العمل بإرسال وفد إلى أوروبا في نفس السنة كان من ضمن أعضائه بوسكارلودي جيسولف ، كانت مهمة هذا الوفد التوجه لمقابلة ملكي فرنسا وانجلترا لإخبارهما بأن المغول قد أعدوا العدة لتوجيه حملة عسكرية كبيرة إلى سورية في سنة (١٢٩١م) ، حيث يتضح ذلك من بعض نصوص الرسالة التي حملها الوفد ، فمما جاء فيها: " ... بمشيئة الله سيبدأ الهجوم في شتاء (١٢٩١ م) سنة النمر وسنصل إلى دمشق يوم الخامس والعشرين من شهر الربيع (آذار) ولذا عليكم أن ترسلوا جيوشكم في هذا الوقت ، وإذا أعطتنا السماء الحظ فسوف نقضي على هؤلاء الناس (المماليك) ونعطيكم القدس "[٨٢] .

ويبدو هنا أن مغول ايلخانية فارس قد أبدوا استعدادا لتقاسم مناطق النفوذ ، حيث كان يهمهم في الدرجة الأولى تأمين حدودهم الغربية بالسيطرة على بلاد الشام وبالأخص المناطق الشمالية منها ، في حين تعطى المناطق الجنوبية ومن ضمنها القدس للقوى الفرنجية الأوروبية بعد ذلك عاد الوفد المغولي يحمل رسائل أوروبية فيها

إشارات لوعود أوروبية بالتخطيط لعمل عسكري يساعد في تحقيق الأهداف المشتركة للسيطرة على بلاد الشام[٨٣] ، كما عاد الوفد برسائل من البابا موجهة لارغون جاء فيها إعلاماً على أن البابا سيقوم بمجهودات لدى كل القوى الأوروبية لحثهم على العمل العسكري لتحرير البلاد المقدسة ، وجاء فيها أيضاً أن ملك إنجلترا قد حمل الصليب وهو يعد لحملة هدفها الأراضي المقدسة[٨٤] .

وفي هذه الأثناء التي كان فيها حكام ايلخانية فارس منشغلين بمراسلة الغرب لعمل مشترك ضد المماليك ، كان الدولة المملوكية توجه ضربة قاصمة إلى آخر المعاقل الصليبية في الشرق ، حيث استطاعت القوات المملوكية بقيادة الملك الأشرف خليل بن قلاوون تحرير عكا سنة (٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م) ، وقد حاول الأوروبيون بزعامة البابا نيقولا الرابع العمل على حث كل القوى الأوروبية الكاثوليكية للقيام بعمل عسكري بالتعاون مع المغول على أمل أن يكون عاملاً مساعداً في إعادة السيطرة الفرنجية على فلسطين ، ولقد كانت انجلترا أكثر القوى الأوروبية حماساً لمثل هذا التفكير ، وهذا ما شجع البابا على إعادة بعث الرسائل إلى الحاكم المغولي أرغون ، وطلب منه أن يعتنق المسيحية وأن يساعد المسيحيين في دولته وأن يعمل على مساعدة القوى المسيحية في أوروبا بهدف إعادة السيطرة على القدس من أيدي المسلمين ، ولكن هذه الآمال البابوية والأوروبية لم تجدي نفعاً ، إذ أن الحاكم المغولي أرغون قد توفي قبل أن يتسلم هذه الرسائل البابوية[٨٥] .

إن سقوط عكا بيد المسلمين قد شكل صدمة للقوى الأوروبية ، بحيث بدت عاجزة عن اتخاذ إجراء عملي وترافق ذلك مع أوضاع عاشتها دولة ايلخانية فارس خلال الفترة التي شملت حكم الايلخان كيخاتو (١٢٩١ - ١٢٩٥ م) ، هذه الأوضاع التي تمثلت بضعف الحماس لمساعدة المسيحيين في دولة ايلخانية فارس انطلاقاً من أن الحاكم المغولي يدين بالبوذية بشكل أكثر التزاماً من غيره من حكام ايلخانية فارس ، وهذا ما جعله يبدي قدراً متساوياً من التسامح مع أتباع الديانات الأخرى دون تمييز للمسيحيين في ذلك[٨٦] ، وكما أنها تمثلت أيضاً في شخصية كيخاتو الذي لم يكن على قدر مساو لمن سبقه من الحكام في مجال الإدارة السياسية ، مما جعل الدولة

المغولية في عهده تعاني من أزمات إقتصادية تمثلت في قلة المخزون النقدي في خزينة الدولة الذي أجبره على إصدار عملة ورقية على النمط الصيني بحيث أصبحت العملة الوحيدة اعتباراً من سنة (١٢٩٤ م) ، هذا الأمر الذي أثار عليه معارضة شعبية ورسمية أدت إلى قتله في (١٤ آذار ١٢٩٥ م)[٨٧] ، وعلى الصعيد الخارجي فقدت الدولة المغولية في عهده مناطق إستراتيجية لصالح الدولة المملوكية من خلال سيطرة الأخيرة على قلعة الروم سنة (٦٩١ هـ / ١٢٩٢ م)[٨٨] .

وهكذا يبدو أن فترة (١٢٩١ - ١٢٩٥ م) لم تشهد محاولة للاتصال بين أوروبا ودولة ايلخانية فارس بسبب الأوضاع السابقة الذكر ، علاوة على أن الأوروبيين بدأوا يتشككون في توجهات المغول ، وهذا ما أشار إليه المفكر الفرنسي رامون لول (١٢٣٥ - ١٣١٦ م) إذ يقول : " ... إذا عاد المبتدعون (النساطرة) عن بدعتهم واعتنق التتار المسيحية فيمكن بسهولة القضاء على السرازنيين .. لكن ما يثير المخاوف إمكان إقبال التتار على الإسلام إما باختيارهم أو لأن السرازنيين يدفعونهم إلى ذلك ، فإذا حدث شيء من ذلك فإن المسيحية كلها ستواجه مخاطر ضخمة[٨٩] .

أما على صعيد دولة ايلخانية فارس ، فبعد مقتل كيخاتو تسلم الحكم لفترة قصيرة الايلخان بيدو ، حيث واجه ثورات داخلية في مناطق خراسان أدت إلى مقتله في (٥ أكتوبر ١٢٩٥ م) ، وتسلم الحكم بعده الايلخان غازان (١٢٩٥ - ١٣٠٤م) ، وخلال فترة حكمه اعتنق الديانة الإسلامية سنة (٦٩٤ هـ) ، وحينها بدأ سياسة ضاغطة ضد أتباع الديانات الأخرى وبخاصة المسحيين واليهود كما أجبر رجال الدين البوذي على اعتناق الديانة الإسلامية أو مغادرة أراضي الدولة المغولية ، ولكن سياسته لم تستمر وبدأ يخفف من ضغوطه على أتباع الديانات الأخرى[٩٠] ، ويبدو أن غازان أراد أن يستغل الدين كسلاح سياسي مع القوى المختلفة ، فبدأ حاول التقرب من الدولة المملوكية عن طريق إرسال الوفود إلى القاهرة للإعلام بإسلامه ولمحاولة تخفيف حدة التوتر بين دولة المماليك ودولة ايخانية فارس[٩١] ، لكن الإستجابة المملوكية على ذلك لم تكن مشجعة وذلك نابع من خبرتهم السابقة مع الوفود المغولية السابقة ، ونجد أن المماليك يوجهون حملة عسكرية إلى منطقة أرمينيا وعاصمتها

سيس سنة (١٢٩٨ م) ويسيطرون على مناطق كانت تحت السيطرة المغولية مثل منطقتي رأس العين وماردين ، الأمر الذي دفع غازان لتوجيه حملة سنة (١٢٩٩ م) هدفها السيطرة على الشام ومصر[٩٢] ، وقد نجحت الحملة المغولية في السيطرة على أجزاء هامة من بلاد الشام بعد هزيمتها للقوات المملوكية ، ويبدو أن غازان قد علم أن انتصاره مؤقت وفي سبيل جعله انتصاراً دائماً بدأ إعادة الإتصال بالقوى الغربية ، فبعث برسائل لملك القدس وقبرص عرض من خلالها إنتصاراته وجدد الوعود المغولية[٩٣] السابقة حول إمكانية إعادة القدس للسيطرة الأوروبية مقابل تقديم المساعدات العسكرية الأوروبية للقوى المغولية ، ومن القوى التي تشجعت لوعود غازان كل من البابا بونيفاص الثامن (١٢٩٤-١٣٠٣م) وملك اراغون جيمس الثاني (١٢٩١ - ١٣٢٧ م) اللذان بدءا يعدان نفسيهما لتقديم مساعدات للحاكم المغولي ، ولكن تطور الأحداث كشف عن تراجع ملك القدس وقبرص عن وعده بالمساعدة ، ويبدو أن هذا الأمر راجع بالدرجة الأولى لقرب الأخير من بلاد الشام مما أتاح معرفة أكثر تفصيلاً عن الأوضاع العسكرية المغولية آنذاك والتي تمثلت في الانسحاب المغولي من بلاد الشام سنة (١٣٠٠ م)[٩٤] .

وبعد هذه المحاولة بدأ غازان يتغيير تكتيكي في سياسته إذ عاد مجدداً يسعى لتحسين العلاقات مع الدولة المملوكية حيث أرسل وفداً رسمياً إلى القاهرة وعاد هذا الوفد من القاهرة في (٢٠ سبتمبر ١٣٠١ م) حاملاً جواب السلطة المملوكية على مبادرة غازان ، وما يعنينا من ذلك أن هذه الجهود لم تثمر في تحقيق أكثر من هدنة عسكرية بين الطرفين[٩٥] ، ليعود الصراع العسكري مجدداً بالحملة المغولية سنة (١٣٠٢ م) على مناطق شمال بلاد الشام ، ولم تستطع التوغل في داخلية بلاد الشام[٩٦] ، ورغم محدودية نتائج هذه الحملة على الصعيد الميداني العسكري ، إلا أنها بالمقابل كانت من العوامل المشجعة للقوى الأوروبية ، وخاصة البابا بونيفاس الثامن لمعاودة الإتصال بالحاكم المغولي ويتضح ذلك من خلال الرسالة التي حملها المندوب البابوي بوسكارلو دي جيسولف ، والتي تشير بعد عبارات التحية والتشجيع للمغول على اقتراح لعمل مشترك ضد المماليك ، وجاء الرد المغولي على هذه الرسالة

موضحاً أن العمل المشترك المستقبلي يجب أن يكون هدفه التوجه إلى مصر ، وقبل أن يتلقى المغول الرد الأوروبي على خطتهم نجدهم يعاودون الإتصال بالبابا ويرسلون رسالة ثانية إلى البابا مؤرخة في (١٢ / ٤ / ١٣٠٢ م) جاء فيها :

« أنتم (الأوروبيون) تجهزون قواتكم وتخبرون قادة الشعوب المسيحية الأوروبية بذلك ، ولا تنسوا الموعد المحدد ، ونحن سندعو السماء لنجعل هدفنا الوحيد ضد المماليك) »[٩٧] .

وعلى الرغم من عدم معرفتنا لمحتوى الرسالة الأولى إلا أنه يبدو من نص الرسالة الثانية أنه كان قد اتفق على موعد للقيام بالأعمال العسكرية ، ورغم ذلك فإن القوى المغولية قد بدأت أعمالها الحربية ضد المماليك في (٢٠ إبريل ١٣٠٣ م) أي دون انتظار الرد الأوروبي على رسائلهم ومقترحاتهم ، محاولين تحقيق نصر عسكري على القوة المملوكية دون مشاركة أوروبية ، ولكن جهودهم فشلت بسبب التصدي الناجح من قبل المماليك لهم[٩٨] . وبذلك يمكن القول أن ذلك مثل فشلاً عسكرياً وسياسياً لغازان كان من أسبابه الصمود المملوكي ، وحرب غازان على جبهتين - جبهة الدولة المملوكية وجبهة مغول القبيلة الذهبية - علاوة على أن الوعود الأوروبية لم تكن أكثر من مقترحات غير قابلة للتطبيق انطلاقاً من أوضاع القوى الأوروبية آنذاك[٩٩] .

وتوفي غازان في (١٧ / ٥ / ١٣٠٤ م) دون أن ينجز ما كان يهدف إليه سواء كان النصر العسكري أو تحقيق نوع من السلام بينه وبين أعدائه ، ليترك ذلك لخليفته الحاكم المغولي خدابنده (١٣٠٤ - ١٣١٦ م)[١٠٠] وقد حاول هذا الحاكم أن يبدأ فترة حكمه بتحسين علاقاته مع المماليك ويتضح ذلك من الوفود التي أرسلها للسلطان المملوكي الملك الناصر محمد (٦٩٣ - ٧٤١ هـ) وجاء في إحدى رسائله للسلطان المملوكي :

« إن غازان خرب البلاد بدون عقل وكان مسلم الظاهر كافر الباطن ، وما دخوله بلاد الشام برضاي ولا برضى أمراء المغول »[١٠١] ورغم أن هذا الجزء من رسالته يشير إلى أن الدولة المغولية تسعى لانتهاج سياسة مخالفة لسياسة غازان ، إلا أن الأمر كما تطور لاحقاً أثبت عكس ذلك ، إذ عادت العلاقات المغولية المملوكية للتوتر وبخاصة

أن هذا الحاكم المغولي قد تحول إلى مذهب الشيعة[١٠٢] ، كما عاود اتصالاته مع القوى الأوروبية حيث راسل البابا كليمنت الخامس (١٣٠٧ - ١٣١٤ م) وملك إنجلترا إدوارد الثاني (١٣٠٧ - ١٣٢٧ م) وفيليب الجميل ملك فرنسا (١٢٨٢ - ١٣١٤ م) وركز في جميع مراسلاته لهذه القوى على ضرورة تقديمهم المساعدة العسكرية التي تمكنه من السيطرة على بلاد الشام ومصر ، ولم ينس أن يشير على أن ذلك سيكون في خدمة المسيحية حيث سيعيد لهم المناطق المقدسة في بلاد الشام ، ولم يستطع خدابنده أن يحصل على مساعدة أوروبية لأن أوضاع الأوروبيين الداخلية لم تكن تسمح بذلك إضافة إلى أن الحماس الأوروبي لإحياء الإمارات الصليبية في الشرق قد بدأ يضعف إلى درجة كبيرة[١٠٣] ، ويتضح ذلك من خلال الردود الأوروبية والكنيسة إذ جاء فيها شكر هذه القوى للحاكم المغولي على إهتمامه بقضية تحرير الأراضي المقدسة وطالبته قبل ذلك بضرورة اعتناق الديانة المسيحية بشكل كامل وصحيح[١٠٤] .

وما هو جدير بالذكر أنه في الوقت الذي كانت تتم فيه هذه المراسلات كانت الدولة المغولية تقوم بمضايقة الرعايا المسيحيين في أراضي دولة ايلخانية فارس ، والذي تمثل بفرض الضرائب عليهم اعتباراً من سنة (١٣٠٨ م) والتي أخذت تزداد في قيمتها وتزدادا تشدداً في طرق جبايتها في الأعوام ما بين (١٣١٠ - ١٣١٤ م)[١٠٥] ، ومن ذلك يتضح أن كلا الطرفين كان يجهل الأوضاع الداخلية للطرف الآخر ، وأن كلاً من الطرفين كان يستخدم الدين أو الدعوة لاعتناق دين معين أو نصرته لتحقيق أغراض سياسية وعسكرية آنية .

وضمن نفس الاتجاه نجد أن الحاكم المغولي يعمل على تعميق صلته مع قوة مسيحية أقرب إليه جغرافياً وهي الدولة البيزنطية حيث تابع سياسة غازان في هذا الاتجاه وتوج هذا التوجه بزواجه من ماريا أخت الإمبراطور البيزنطي اندرونيكوس الثاني (١٢٨٢ - ١٣٢٨)[١٠٦] ، وضمن سياسته للتخفيف من مشاكل السياسة الخارجية عمل على تحسين العلاقات مع القبيلة الذهبية بعقد هدنة معها في الفترة ما بين (١٣١٠ - ١٣١٤ م) آملاً أن يحقق قدراً أكبر من معالجة أوضاع الجبهة

الداخلية ، ولكن هذه الجهود جميعها لم تثمر ، إذ عادت العلاقات إلى التفجر مع القبيلة الذهبية مع ثورات داخلية بدءاً من عام (١٣١٢م) وإستمرت حتى وفاته عام (١٣١٦ م) [(١٠٧)] .

وبوفاة خدابنده تسلم الحكم في دولة ايلخانية فارس الحاكم ابو سعيد (١٣١٦-١٣٣٥م) ، واستطاع هذا الحاكم المغولي أن ينتهج سياسة مغايرة لأسلافه ، إذ عمل على تحسين علاقاته مع الدولة المملوكية ، ونجح بعد مراسلات ووفود متعددة في أعوام (١٣٢١ ، ١٣٢٢ ، ١٣٢٣ م) أن يتوصل مع السلطان المملوكي الناصر محمد إلى عقد معاهدة أنهت الحرب بين الطرفين ، وفي ذلك يقول الدواداري في أحداث سنة (٧٢٣هـ) :

"وفيها كان الصلح بين المسلمين والتتار وذلك بحسن تدبير مولانا السلطان وبركة سياسته التي تحير فيها الأفكار ... وكان ذلك على يد مجد الدين السلامي التاجر السفار" [(١٠٨)] .

أما على صعيد علاقة هذا الحاكم المغولي مع الغرب الأوروبي فتشير المصادر إلى تلقيه رسالة مؤرخة في (٢٤ يونيو ١٣٢٢ م) من البابا حنا الثاني والعشرون (١٣١٦-١٣٣٤م) يطلب فيها منه مساعدة حاكم أرمينيا ، فقدم له المساعدة والتي مثلت آخر حرب بين المماليك والمغول في عهد دولة ايلخانية فارس [(١٠٩)] ، وهذا ما يؤكد ماسبق على أن الاتصالات المغولية مع القوى الأوروبية لم تؤت بنتائج عملية ذات تأثير على الدولة المملوكية .

ورغم أن هذا الحاكم المغولي قد نجح في تحقيق سلام خارجي مع الدولة المملوكية ، إلا أن الدولة المغولية في عهده عانت من إضطرابات على جبهة مغول القبيلة الذهبية رافقتها اضطرابات في الأوضاع الداخلية كانت كفيلة بإنهاء حكم هذه الدولة مع وفاة ابي سعيد سنة (٧٣٦ هـ / ١٣٣٥ م) حيث دخلت بعدها في صراعات مزقتها إلى دويلات متصارعة [(١١٠)] .

وقد وصف القلقشندي حال الدولة : " ... ثم هم المغول بعده في دهماء مظلمة

وعمياء مقتمة لا يفضي ليلهم إلى صباح ولا فرقتهم إلى اجتماع ولا فسادهم إلى إصلاح في كل ناحية هاتف يدعي باسمه وخائف أخذ جانباً إلى قسمه وكل طائفة تتغلب وتقيم قائماً تقول : " هو من أبناء القان وتنسبه إلى فلان ، ثم يضمحل أمره عن قريب ولا تلحق دعوته حتى يدعي فلا يجيب ، وما ذلك من الدهر بعجيب فصاح في جنباتها كل ناعق وقطع رداءها كل جانب وتفرد كل متغلب منها بجانب "[١١١١] .

وبوفاة ابو سعيد بهادر خان في ١٣ ربيع الثاني سنة ٧٣٦ هـ أخذت الدولة الإيلخانية في التفكك والضعف حتى سنة ٧٥٦ هـ ، وقامت على انقاضها الدويلات الآتية :

١- الدولة الجلائرية في غرب إيران والعراق .
٢- دولة آل مظفر في الولايات الشرقية وفارس وكرمان .
٣- دولة السربداريين في خراسان .
٤- دولة آل كرت في هرات وامتدت في المناطق المعروفة بباكستان وافغانستان[١١١٢] .

وبذلك تكون جميع المحاولات المتبادلة وفق الظروف المتغيرة بين الطرفين الأوروبي والمغولي في سبيل تحقيق تحالف يهدف إلى السيطرة على بلاد الشام ومصر قد فشلت، وجاء فشلها لأسباب متعددة وردت في ثنايا البحث منها ما يتعلق بالطرف الأوروبي ، والآخر بالطرف المغولي ، ويرى الباحثان أن السبب الرئيسي لفشل هذه المحاولات هو ما تمثل في وحدة مصر وبلاد الشام وما مثله ذلك من قوة رادعة أثبتت جدواها ابان الحروب الصليبية وكذا الحال ابان الحروب مع المغول ، فضلاً عما يثبته التاريخ الحديث والمعاصر للمنطقة .

الهوامش

١- الرازي ، عبد الله : تاريخ كامل إيران (از تأسيس سلسله ماد تا انقراض قاجاريه) ، چا پخانه إقبال ، تاريخ انتشار - ١٣٦٣ هـ . ش ، ص ٣١٨ .
الخالدي ، إسماعيل : العالم الإسلامي والغزو المغولي ، مكتبة الفلاح ، الكويت ، ١٩٨٤م ، ص ١٧٥-١٧٦

Kawerau , Peter : Geschichte der mittelalterlichen Kirche , N.G. Elwert Verlag , Marburg . 1967 , P. 133 .

٢- سوذرن ، ريتشارد : صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى . ترجمة - رضوان السيد، معهد الإنماء العربي - بيروت ، ١٩٨٤ ، ص ٨٨-٨٩

Kawerau : OP. Cit , P. 13

٣ - الصياد ، فؤاد عبد المعطي : المغول في التاريخ ، دار النهضة العربية - بيروت ١٩٨٠ ، ص ١٨٦ .

Treece , Henry : The Crusades , London , 1962 , P. 250
Runciman , Steven : A History of the Crusades, Benguin Books , Australia , 1965 . Vol. 3 , P. 251 - 252 .
Hartog , Leo de : Genghis Khan Conqueror of the world , London , 1989 - P.168 .

٤- الصياد ، مرجع سابق (المغول) ، ص ١٨٦ .

Hartog : OP. Cit , P. 168 .
Azzari , Alaeddin : L'asie face Al'europe P. 47
(في المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية عدد ٣-٤ / ١٩٩١)

٥- الصياد ، مرجع سابق (المغول) ، ص ١٨٦ .
Theuerkauf , Gerhard : Reisen im mittelalter in : Journal Fur Geschichte , 4 , 1979 , P. 35
Dawson , Christopher : The Mongol Mission , New York , 1955 , P. 14 - 15 . Hartog : OP. Cit , P. 180

٦- الخالدي ، مرجع سابق ، ص ١٧٦ .
Kawerau : OP. Cit , P. 33 . Hartog : OP. Cit , P. 187 , Spuler , Bertold : Die Mongolen , in Iran : Handbuch der Orientalistik , Brill , Leiden , Koln , 1953 , P. 34.

الصياد ، فؤاد عبد المعطي : الشرق الإسلامي في عهد الايلخانيين أسرة (هولاكو خان) ، منشورات مركز الوثائق والدراسات الإنسانية ، جامعة قطر ، ١٩٨٧، ص ٦٢ .

Weiers , Michael : Von Ogodei bis Mongke , in :
Michael Weiers (Hrsg.) , Die Mongolen , Darmstadt , 1986, P. 201 .

7 - Theuerkauf : OP. Cit , P. 35
Hartog : OP. Cit , P. 180

8 - Weiers : Von Ogodei bis Mongke , P. 200 - 201

9 - Weiers : Ibid , P. 201 . Dawson : OP. , Cit , P. 15

قراقورم : مدينة في مغولستان بجانب جبل مزبور وكانت عاصمة جنكيز خان في أوائل ظهور المغول .

انظر : معين ، محمد ،فرهنگ فارسي ، جلد ششم (اعلام) مؤسسة انتشارات أمير كبير ، تهران ، ١٣٦٣ هـ.ش ، ص ١٤٤٦ .

10 - Theuerkauf : OP. Cit , P. 35
Hambly , Cavin : Zentralasien , in : Fisher Weltgeschichte , Frankfurt , 1966 , Vol . 16 , P. 116 .

١١- بيات ، عزيز الله ، كليات تاريخ إيران (آز آغاز تا مشروطيت ، با ذكر اسناد ومآخذ آن) ، مؤسسة مطالعات وإنتشارات تاريخي ، بهار - ١٣٧٠ هـ . ش ، ص ٢٦٣ .
الصياد : مرجع سابق (المغول) ، ص ٢٢١ .
Azzari : OP. Cit , P. 47 . Kawerau : OP. Cit , P.53
Supuler : Die Mongolen In Iran , P. 32 .

١٢- سعداوي ، نظير حسان : الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦١م ، ص١١٦ .

١٣- سعداوي : المرجع السابق ، ص ١١٦ .

14 - Azzari : OP. Cit , P. 47 - 48
Hambly : OP. Cit , P. 116

15 - Kampfe , Hans - Reiner : Ginggis Khan , in :
Weiers (Hrsg.) Die Mongolen ,
Darmstadt , 1986 , P. 185 - 187

١٦- الهمذاني : رشيد الدين بن فضل الله : جامع التواريخ - تاريخ خلفاء جنكيز خان من اوكتاي إلى تيمور قا آن ، ترجمة ، فؤاد عبد المعطي الصياد ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٣م ص ١٨١ .
بيات : مرجع سابق ص ٢٣٦ .
Kawerau : OP. Cit, P.35, Theuerkauf, OP. Cit, P.35

١٧- الخالدي : مرجع سابق ، ص ١٧٨
Kawerau : OP. Cit, P.53, Runciman, OP. Cit, Vol. 3, P.259
بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، ترجمة أحمد السعيد سليمان ، مراجعة إبراهيم صبري ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٥٨م ، ص ١٦٧ .

بيكولوسكايا . ن . و ، وآخرون : تاريخ إيران (آز دوران باستان تا پايان سده هيجدهم ميلادي ، ترجمة كريم كشاورز ، انتشارات پيام ، زمستان ١٣٥٤ هـ ش ، ص ٣٣٢ .

١٨- كان كيوك (كويوك) قا آن قد بعث مع بلانو - كاربيني رسالة يطلب فيها من الباب وأمراء أوروبا أن يدخلو تحت إمرة الخان الأعظم ، والرسالة باللغة الفارسية وختمت بخاتم مغولي ، وكان هذا الخاتم من صنع أسير روسي يدعى كوزما .

انظر : بيكولوسكايا : مرجع سابق ، ص ٣٣٣ ، بيات : مرجع سابق ص ٢٦٣

Boyle , John Andrew : The Mongol World Empire, (1200-1370) , London , 1977 , P. 554 .

Weiers : Von Ogodei bis Mongke , P. 202 .

١٩- الخالدي : مرجع سابق ، ص ١٧٨

Weiers : Von Ogodei bis Mongke , P. 209 - 210 .

٢٠- الخالدي : مرجع سابق ، ص ١٧٨ ، الصياد : مرجع سابق (المغول) ص ٢٠٠

Runciman : OP. Cit , Vol. 3 , P. 259

Hambly : OP. Cit , P. 116

٢١- الصياد : مرجع سابق (المغول) ص ٢٠٠

2 2 - Atiya , Aziz S. : The Crusades in the Later middle Ages , New York , 1970 , P. 239

Rumciman : OP. Cit , Vol. 3 , P. 260

٢٣- زابوف : ميخائيل : الصليبيون في الشرق ،دار التقدم،موسكو، ١٩٨٦،ص٣١٣

سعداوي : مرجع سابق ، ص ١١٧

الصياد : مرجع سابق (المغول) ، ص ٢٠٠

بارتولد : تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم ، الكويت ١٩٨١ ، ص ٦٩٤ .

Hartog : OP. Cit , P. 182

Theuerkauf : OP. Cit , P. 35

2 4 - Theuerkauf : OP. Cit , P. 35

٢٥- برجاوي ، سعيد : الحروب الصليبية في المشرق ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨٤ م ، ص ٥٤٨ .

زابوف : مرجع سابق ، ص ٣١٣ ، بيات : مرجع سابق ، ص ٢٦٣ .

Payne , Robert : Die Kreuzzuge , Benziger Verlag , Zurrich , Koln , 1986 , P. 364 - 366

Bezzola , Gian Andri : Die Mongolen in abendlandischer Sicht (1220 - 1270) , Munchen , 1974 , 150 - 153 .

٢٦- الخالدي : مرجع سابق ، ص ١٧٩

Runciman : OP. Cit , Vol. 3 . P. 116
Hambly : OP. Cit , P. 116

٢٧- بارتولد : مرجع سابق (تركستان) ص ٦٩٤ - ٦٩٥

2 8 - Weiers : Von Ogodei bis Mongke , P. 210
Hambly : OP. Cit , P. 116

٢٩- سعداوي : مرجع سابق ، ص ١٢٢

3 0 - Rittner , Volker : Kulturkontakte and Sozailes Lernen im mittelater , Bohlau Verlag , Koln , Wien , 1973 , PP. 12 - 14

بارتولد : مرجع سابق (تاريخ الترك) ، ص ١٧٦ - ١٧٧

3 1 - Hmably : OP. Cit , P. 125

عاشور ، فايد حماد ، العلاقات السياسية بين المماليك و المغول في الدولة المملوكية الأولى ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٤ ، ص ١٤٠ .

3 2 - Boyle : OP. Cit , P. 555

٣٣- الصياد : مرجع سابق (المغول) ، ص ١٧١ .

٣٤- الهمذاني ، رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ، م٢ جـ١ (الايلخانيون) ترجمة محمد صادق نشأت ، محمد موسى هنداوي ، فؤاد عبد المعطي الصياد ، دار إحياء الكتب العربية ، ص ٢٦٠ - ٢٦١ .

Sykes , Percy : A History of Persia , London , 1969 , Vol. 2 , P. 95
Grousset , Rene : Die Steppen Volker , Munchen , 1970, P. 485
Sykes : OP. Cit , P. 96

3 5 - Sykes : OP. Cit , P. 96

٣٦- هرن ، باول ، تاريخ مختصر ايران (آز اول اسلام تا انقراض زنديان) ترجمة باحواش وتعليقات دكتر رضا زاده شفق ، از نشريات كميسيون معارف ، تهران ، ١٣١٤ هـ.ش ، ص ١٩

Howorth , Sir Henry : History of the Mongols , London, 1888 , Vol. 3 , P. 159 .
Irwin , Robert : The Middle East in the Middle Ages , Croomhelm, London , Sydny , 1986 , P. 31 .
Irwin : Ibid , P. 32 .
Morgan , David O. : The Mongols in Syria 1260 - 1300, in : Crusades and settelment , ed. by Peter W. Edbury - University College , Cardriff Press , U.K. 1985 , P. 231 .
Rawlikowski - Cholewa , A. von : Die Heere des Morgenlandes ,

Berlin , 1946 , PP. 235-2356 .

38 - Grousset : OP. . Cit , PP. 499 - 500
Spuler : Die Mongolen , P. 225
Pawlikowski - Cholewa : OP. Cit , P. 336
Kawerau : OP. Cit , P. 149

٣٩- الأمين ، حسن : الغزو المغولي ، دار التعارف للمطبوعات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٦ ، ص ١٤٩ .
Kawerau : OP. Cit , P. 149 .

٤٠- بياني ، دكتر شيرين : هشت مقالة در زمينه تاريخ المقالة الخامسة (بر رسي أوضاع اجتماعي ايران از خلال جامع التواريخ رشيدي) دانشيار دانشكده ادبيات وعلوم إنساني ، دانشگاه تهران ، چاب حيدري مرداد ١٣٥٢ هـ.ش ، ص ٢١٠ .
Weiers , Michael : Die Mongolen in Iran , in Weiers (Hrsg.) , Die Mongolen , Damstadt , 1986 , PP. 305 - 307

٤١- المقريزي ، أحمد بن علي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ ١ ، ق ٢
تحقيق محمد مصطفى زيادة ، لجنة الترجمة والتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٦-١٩٥٨ ، ص ٤٤٢ .

٤٢- ابن عبد الظاهر ، محيى الدين : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر ، الرياض ، ١٩٧٦ ، ص ٨١ .
الهمذاني : جامع التواريخ - تاريخ خلفاء جنكيز خان ، ص ١٢٥ .
بارتولد : مرجع سابق (تاريخ الترك) ، ص ١٧٨ .

43 - Weiers : Die Mongolen in Iran , P. 307

44 - Weiers : Ibid , P. 307
Boyle : OP. Cit , P. 556

45 - Boyle : Ibid , P. 556 , Weiers , Ibid , P. 307

٤٦- هو البطريرك وليم الثاني (١٢٦٢ - ١٢٧٠) William II of Agen

47 - Weier : Die Mongolen in Iran , P. 307
Boyle : OP. Cit , P. 559

٤٨- الأمين : مرجع سابق ، ص ١٦٣ ، Spuler : Die Mongolen , P.33

٤٩- عاشور : مرجع سابق ، ص ٨٢ ، ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ، ص ٨٣
Spuler : Die Mongolen in Iran, PP. 33 - 35

٥٠- الأمين : مرجع سابق ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ .
Kawerau : OP. Cit , P. 149

51 - Weiers : Die Mongolen in Iran , P. 310
Sykes : OP. Cit , P. 100

٥٢- بارتولد : مرجع سابق (تاريخ الترك) ، ص ١٧٨ - ١٧٩

Weiers : Die Mongolen in Iran , P. 358

٥٣- الخالدي : مرجع سابق ، ص ١٨٢ ، الأمين : مرجع سابق ، ص ١٦٤

٥٤- الهمذاني : تاريخ خلفاء ، جنكيز خان ، ص ١٢٥

Spuler : Die Mongolen , P. 38

Boyle : OP. Cit , P. 557

٥٥- الخالدي : مرجع سابق ، ص ١٨٢

الصياد : مرجع سابق (الشرق الإسلامي) ، ص ٥٦

Weiers : Die Mongolen in Iran , PP. 308 - 310

٥٦ - المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٧

سعداوي : مرجع سابق ، ص ١٤١

Grousset : OP. Cit , P. 508

٥٧- برجاوي : مرجع سابق ، ص ٦٢٢ . Boyle : OP.Cit, P.557

٥٨- ابن العبري : غريغوريوس ابو الفرج اهرون ، تاريخ مختصر الدول ، طبعة بيروت ١٩٥٨ م ، ص ٢٨٢ .

برجاوي: مرجع سابق، ص ٦٢٣. الصياد : مرجع سابق (الشرق الإسلامي) ص٥٧

Weiers : Die Mongolen in Iran , P. 310

٥٩- منح لقب البابوية في سبتمبر ١٢٧١م وتوج رسمياً يوم ٢٦ مارس ١٢٧٢م .

حول ذلك انظر : Weiers : Die Mongolen in Iran, P. 311

٦٠- الصياد : مرجع سابق (الشرق الإسلامي) ص ٦١

Weiers : Die Mongolen in Iran , P. 310

61 - Weiers : Ibid , P. 311

٦٢- كانت الرسالة مكتوبة بالخط المغولي ، واحتفظ بتقرير عنها باللغة الفرنسية كان قد كتبه ريكاردوس أحد مبعوثي الايلخان ، وبقى هذا التقرير محفوظاً في فرنسا حتى سنة ١٩٠٤م ، حيث حرق ضمن الحريق الذي تعرضت له مدينة تورين في نفس السنة .

حول ذلك انظر : Weiers : Die Mongolen in Iran, P. 311

63 - Weiers : Ibid , P. 311

64 - Boyle : OP. Cit , P. 558

٦٥- الصياد : مرجع سابق (الشرق الإسلامي) ، ص ٧٤

Grousset : OP. Cit , P. 507

66 - Boyle : OP. Cit , P. 558

Weiers : Die Mongolen in Iran, P. 312

٦٧- الخالدي : مرجع سابق ، ص ١٨٣ . الأمين : مرجع سابق ، ص ١٦٦

٦٨- الأمين : مرجع سابق ، ص ١٦٧

Weiers : Die Mongolen in Iran, P. 312

٦٩- ضمت البعثة المبعوثين التالية أسماؤهم :

1 - Antonious Von Parma 2 - Gerhard Von Prato
3 - Andereas Von Florenz 4 - Johannes Von St .
5 - Mathaus Von Arezzo

للمزيد عن أعضاء هذه البعثة ، انظر :

Weiers : Die Mongolen in Iran, P. 312

٧٠- الأمين : مرجع سابق ، ص ١٦٧ . Weiers : Ibid, P. 311

٧١- الصياد : مرجع سابق (الشرق الإسلامي) ص ٦٣. الأمين : مرجع سابق ص١٦

٧٢- المقريزي : السلوك ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٦٩٥

ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٨٨ . Howorth: OP. P.272

73 - Spuler : Die Mongolen in Iran, P. 33
Grousset : OP. Cit , PP. 509 - 510

٧٤- حول تشكيلة الوفد المغولي والرسائل التي حملها للسلطان المملوكي والرد المملوكي على ذلك .

انظر : المقريزي ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٣ ، ص ٧٠٨ وما بعدها

ابن العبري : مرجع سابق ، ص ٢٨٨

75 - Spuler : Die Mongolen in Iran, P. 26

٧٦- بيكولوسكايا : مرجع سابق ، ص ٣٥٥

عاشور : مرجع سابق ، ص ١٢٥ - ١٢٧ ، الخالدي : مرجع سابق ، ص ١٨٢-١٨٣ .

77 - Kawerau : OP. Cit , P. 132
Grousset : OP. Cit , P. 512
Weiers : Die Mongolen in Iran , P. 315

٧٨- الصياد : مرجع سابق (الشرق الإسلامي) ص ١٩٦

الخالدي : مرجع سابق ، ص ١٨٣

79 - Treece : OP. Cit , P. 266
80 - Weiers : Von Ogodei bis Mongke , PP. 213 - 219
81 - Weiers : Die Mongolen in Iran , P. 320
82 - Boyle : OP. Cit , P. 560
Spuler , Bertold : Geschichte der Mongolen nach Ostichen und Europaschen Zeugnissen des 13 . Und 14 . Jahrhundert , Zurich , 1968 , PP. 174 - 175

الرسالة كتبت بالخط الاويغوري ، ولا تزال نسخة منها محفوظة في الفاتيكان ، ويرد فيها اقتراح الحاكم المغولي (أرغون) على ملك فرنسا بتوجيه حملة مشتركة ضد المماليك .

انظر : Kawerau : OP. Cit , P. 134

83 - Spuler : Geschichte der Mongolen PP. 174 - 175
Grousset : OP. Cit , P. 315 . Boyle : OP. Cit , P. 560
84 - Kawerau : OP. Cit , P. 134

Weiers : Die Mongolen in Iran , P. 319

الصياد : مرجع سابق (الشرق الإسلامي) ص ١٩٢ .

85 - Lupperian , Karl - Ernst : Die Beziehungen der Papste Zur islamischen und mongolischen Herschern im 13 . Jahrhundest an Hand ihre Briefweechsels , Bibliotca Apostolica Vaticana , 1981 , P. 274

Irwin : OP. Cit , P. 77

٨٦- نقش كيخاتو على النقد المغولي في عهده العبارة التالية :

اللؤلؤة الثمينة Irin Jindorji

وهذه العبارة تؤكد ميل هذا الحاكم للديانة البوذية

حول هذا انظر : Spuler : Die Mongolen in Iran , P. 323

Weiers : Die Mongolen in Iran , P. 323

٨٧- عاشور : مرجع سابق ، ص ١٢٨ Weiers : Ibid , P. 323

باول هرن : مرجع سابق ، ص ٧١

الجويني ، عطا ملك : تاريخ جهانكشاي ، جـ١ ، تحقيق محمد بن عبد الوهاب القزويني ، لبدن ١٩١١ - ١٩٣٧ ، ص ٢٢٩ - ٢٣٢ .

سليمان ، حربي أمين : المؤرخ الإيراني الكبير غياث الدين خواندمير .

كما يبدو في كتابه دستور الوزراء ، ترجمة وتعليق الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٣٦٦ .

88 - Irwin : OP. Cit , P. 78

٨٩ - سوذرن : مرجع سابق ، ص ١١٧

اشتياني ، عباس اقبال : تاريخ ايران بعد الإسلام

(من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القارجارية نقله عن الفارسية ، د.محمد علاء الدين منصور ، راجعه د.السباعي محمد السباعي ، دار الثقافة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٩ ، ص ٤٥٩ .

90 - Howorth : OP. Cit , PP. 382 - 383 , 388

المقريزي : السلوك ، جـ١ ، ق ٣ ، ص ٨٨

الدواداري ، ابو بكر عبد الله بن ايبك : كنز الدرر وجامع الغرر ، جـ ٩ - الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر ، تحقيق هانس روبرت روبمر ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ١٧ .

٩١ - المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، ص ٣ ، ص ٨٨

Weiers : Die Mongolen in Iran , PP. 325 - 330

٩٢ - المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، ص ٣ ، ص ٩٢

الدواداري : مصدر سابق ، جـ ٩ ، ص ١٨ - ٢٠ .

93 - Weiers : Die Mongolen in Iran , PP. 325 - 330

94 - Boyle : OP. Cit , PP. 601 - 602

95- Weiers : Die Mongolen in Iran , P. 330

٩٦- ابن الفوطي ، عبد الرزاق بن أحمد بن عباس : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، تحقيق مصطفى جواد ، مطبعة الفرات ، بغداد ، ١٩٣٢ ، ص ٥٠٣ - ٥٠٤ .

97- Weiers : Die Mongolen in Iran , PP. 325 - 311

٩٨ - المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، ق ٣ ، ص ٩٣٦

Grousset : OP. Cit , P. 525

99- Weiers : Die Mongolen in Iran , P. 330

١٠٠- خربنده كلمة فارسية مركبة من (خر) بمعنى حمار و (بنده) بمعنى غلام أو عبد والمراد بذلك المكاري وخدابنده كلمة فارسية مركبة من (خداه) بمعنى الله و (بنده) بمعنى عبد أي عبد الله ، وقد لقب الشيعة السلطان محمد أولجانيو بلقب خدابنده أي عبد الله بسبب تعلقه بمذاهبهم ، إلا أن أهل السنة حرفوا هذا اللقب إلى خربنده أي المكارى (الحمار) ، ولذا ورد اسمه في المصادر التاريخية بالرسمين السابقين .

ومما هو جدير بالذكر أن هذا السلطان كان قد أعطي اسم نيقولا حين كان عمره ٨ سنوات .

حول كل ذلك ، انظر : إقبال : مرجع سابق ، ص ٤٧٦

شتا ، إبراهيم الدسوقي : فرهنگ برزگ فارسي ، كتاب فروشى مدبولي ، قاهرة ، ١٩٩٢م، مجلد أول ، ص ١٠١٨ .

الدواداري : مصدر سابق ، جـ ٩ ، ص ١٢٧ .

Weiers : Die Mongolen in Iran , PP. 325 - 332

١٠١- عاشور : مرجع سابق ، ص ١٧٣ . الدواداري : مصدر سابق، جـ٩ ، ص ١٢٧

١٠٢- ثم ذلك ما بين ١٣٠٧ - ١٣٠٨ م ، وسك عملة نقش عليها أسماء الأئمة الاثنى عشر وذلك سنة ١٣١٠م ، ومما هو جدير بالذكر أن هذا الحاكم كان سنياً على المذهب الحنبلي ثم تحول إلى المذهب الشافعي ، وأخيراً تحول إلى المذهب الشيعي .

للمزيد حول ذلك :

انظر Weiers : Die Mongolen in Iran , PP. 325 - 330

Spuler : Die Mongolen in Iran , PP. 44

باول هرن : مرجع سابق ، ص ٧٠

ابن ابي الفضائل ، مفضل : النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد نشر بلوشية ، باريس ١٩١٩ - ١٩٢٠ ، جـ ٢ ، ص ١٧٢ ، ٢٩٤ .

١٠٣- عاشور : مرجع سابق ، ص ١٧٣

بارتولد : مرجع سابق (تاريخ الترك) ص ٢٠٢ ، ٢٠٣

Weiers : Die Mongolen in Iran , PP. 34 - 335

١٠٤- عاشور : مرجع سابق ، ص ١٧٣

Spuler : Geschichte der Mongolen , PP. 175 - 176

105- Weiers : Die Mongolen in Iran , P. 325

106- Ibid , P. 325

107- Ibid , P. 340

المصادر والمراجع العربية والفارسية

١- ابن ابي الفضائل ، مفضل : المنهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد نشر بلوشيه باريس ١٩١٩ - ١٩٢٠ م .

٢- إقبال ، عباس : تاريخ إيران بعد الإسلام (من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية) نقله عن الفارسية محمد علاء الدين منصور ، راجعه السباعي محمد السباعي ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٩ م .

٣- الأمين ، حسن : الغزو المغولي ، دار التعارف للمطبوعات والنشر بيروت ١٩٧٦م.

٤- بارتولد ، فاسيلي فلاديمير وفتش :تاريخ الترك في آسيا الوسطى ترجمة د.أحمد السعيد سليمان ، راجعه : إبراهيم صبري مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٢٨

٥- .... ، .... : تركستان منذ الفتح العربي إلى الغرو المغولي ، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم ، الكويت ، ١٩٨٧م .

٦- يرجاوي ، سعيد : الحروب الصليبية في المشرق ، دار الآفاق الجديدة بيروت١٩٨٤

٧- بيات ، عزيز الله (دكتر) : كليات تاريخ ايران (از آغاز تامشروطيت باذكر اسناد ومآخذ آن) مؤسسة مطالعات وانتشارات تاريخي ، بهار ١٣٧٠ هـ.ش .

٨- بياني ، شيرين (دكتر) : هشت مقاله درزمينه تاريخ ، إنتشارات توس ، أول خيابان دانشگاه تهران ، چاب حيدري ، مرداد ، ١٣٥٢ هـ .ش .

٩- بيكولوسكايا ، و ، وآخرون : تاريخ ايران (از دوران باستان تاپايان سده هيجدهم ميلادي) ترجمة كريم كشاور ، انتشارات پيام ، زمستان ، ١٣٥٤ هـ.ش.

١٠- الجويني ، علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمد : تاريخ جهانگشاي ، نشر وتصحيح محمد بن عبد الوهاب القزويني ، ليدن ، ١٩١١ - ١٩٣٧ م .

١١- الخالدي ، إسماعيل عبد العزيز : العالم الإسلامي والغزو المغولي ، مكتبة الفلاح الكويت ، ١٩٨٤ م .

١٢- خواندمير ، غياث الدين بن همام : حبيب السير في أخبار أفراد البشر ، تهران ١٣٣٣ هـ .ش .

١٣- الدواداري ، أبو بكر عبد الله بن ايبك : كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء التاسع الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر -تحقيق هانس روبرت رويمر ، القاهرة ، ١٩٦٠م

١٤- رازي ، عبد الله (دكتر) : (تاريخ كامل ايران ، از تأسيس سلسلة مادتا تا انقراض قارجاريه) چانچانه اقبال ، تاريخ انتشار ، ١٣٦٣ هـ . ش .

١٥- زابوف ، ميخائيل : الصليبيون في الشرق ، دار التقدم ، موسكو ، ١٩٨٦م

١٦- سعداوي ، نظير حسان : الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٠ م .

١٧- سليمان ، حربي أمين : المؤرخ الإيراني الكبير غياث الدين خواندمير ، كما يبدو في كتابه : دستور الوزراء ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٠م .

١٨- سوذرن ، ريتشارد : صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى ، ترجمة د.رضوان السيد، معهد الإنماء العربي ، بيروت ، ١٩٨٤م .
١٩- شتا ، إبراهيم الدسوقي : فرهنگ برزگ فارسي ، كتاب فروشي مدبولي ، قاهرة ١٩٩٢م .
٢٠- الصياد ، فؤاد عبد المعطي : المغول في التاريخ ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٠م .
٢١- ..... ، .... : الشرق الإسلامي في عهد الايلخانيين (أسرة هولاكوخان) منشورات مركز الوثائق والدراسات الإنسانية - جامعة قطر ، ١٩٨٧م .
٢٢- عاشور ، فايد حماد : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٤م .
٢٣- ابن عبد الظاهر ، محيي الدين :الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر ، الرياض ، ١٩٧٨ م .
٢٤- ابن العبري ، غريغوريوس ابو الفرج بن اهرون الملطي : تاريخ مختصر الدول ، نشرة الأب أنطوان صالحاني اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٢٨م.
٢٥- ابن الفوطي ، عبد الرزاق أحمد بن عباس : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة، تحقيق مصطفى جواد ، مطبعة الفرات ، بغداد ، ١٩٣٢م .
٢٦- القلقشندي ، ابو العباس أحمد : صح الأعشي في صناعة الإنشاء ، المطبعة الأميرية ، القاهرة، ١٩٦٣م .
٢٧- معين ، محمد (دكتر) : فرهنگ فارسي ، جلد بنجم وجلد ششم (أعلام) ، مؤسسة انتشارات امير كبير ، تهران ، ١٣٦٣ هـ . ش .
٢٨- المقريزي ، أبو العباس أحمد بن علي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الأول والثاني حققهما محمد مصطفى زيادة ، لجنة الترجمة والتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٦م - ١٩٥٨م .
٢٩- ابو مغلي ، محمد مصطفى : إيران دراسة عامة ، جامعة البصرة ، مركز دراسات الخليج العربي ، ١٩٨٥م
٣٠- هرن ، پاول: تاريخ مختصر إيران (از أول إسلام تا انقراض زنديان) ترجمة باحواشي وتعليقات رضا زاده شفق از نشريات كميسيون معارف تهران١٣١٤هـ ش
٣١- الهمذاني ، رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ، م٢ ، جـ١ الايلخانيون - ترجمة محمد صادق نشأت وآخرون ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .
٣٢- .... ، .... : جامع التواريخ - تاريخ خلفاء جنكيز خان من اوكتاي إلى تيمو قا آن ، ترجمة فؤاد عبد المعطي الصياد ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨٣م .

المصادر والمراجع الأجنبية

1- Atiya , Aziz S. : The Crusades in the Later Middle Ages , New York , 1970 .

2- Azzari , Alaeddin : L'asie face al'europe .
في المجلة التاريخية للدراسات العثمانية عدد ٣ - ٤ / ١٩٩٠م

3- Bezzola , Gian Andri : Die Monogolen in Abendlandischer Sicht 1220 - 1270 ,
Munchen , 1974 .

4- Boyle , John Andrew : The Mongol Empire 1260 - 1370 , London , 1977 .

5- Dawson , Christofer : The Mongol Mission , New York,1995 .

6- Grousset , Rene : Die Steppen Volker , Munchen , 1970 .

7- Hambly , Gavin : Zentralasien , Fischer Weltegeschichte , Vol. 16, Frankfurt , 1966 .

8- Hartog , Leo de : Genghis Khan Conqueror of the World , London , 1989 .

9 - Howorth , Sir Hennry:History of the Mongols , Vol.3,London,1888.

10 - Irwin , Robert : The Middle East in the Middle Ages , London, Sydny , 1986

11 - Kampfe , Hans - Reiner : Cinggis Khan , in : Michael Weiers (Hrsg.) , Die Mongolen , Darmstadt , 1986 .

12 - Kawerau , Peter : Geschichte der Mittelaterlischen Kirche , N.G.Elwert Verlag , Marburg , 1967 .

13 - Lupperian , Karl - Ernst : Die Beziehugen der Papste Zur islamischen undmongolischen Herschern im 13 . Jahrhundert an Hand Ihres Briefwechsels , Biblioteca Apstolica Vaticana 1981 .

14 - Morgan , David O. : The Mongol in Syria 1260 - 1300 , in : Crusade and Settelment , ed. by , Peter W. Edury , Unversity College , Cardiff Press , U.K. , 1985 .

15 - Pawlikowski - Chlewa , A. Von : Die Heere des Morgenlandes , Berlin , 1946 .

16 - Payane , Robert : Die Kreuzzuge , Benziger Varlag , Zurich , Koln, 1986 .

17-Rittner , Volker : Kulturkontake und soziales lernen im Mittelater, Bohlau Verlag , Koln , Wien , 1973 .
18-Runciman , Steven : A History of the Crusaders , 3 Vols . Benguin Books , Australia , 1965 .
19-Spuler , Bertold : Die Mongolen , in Iran : Handbuch der Orientalisik, Band, 6, E.J. Brill , Leiden - Koln , 1953 .
20-..... , ... : Geschichte der Mongolen nach Ostilischen und Europaschen Zeugnissen des 13 und 14 Jahrundert , Zurich , 1968 .
21-Sykjes , Percy : A History of Persia , Munchen , 1970 .
22-Theuerkauf , Gerhard : Reisen im Mittelalter , in : Jornal fur Geschichte , Heft 4 , 1979 .
23-Treece , Henry : The Crusades , London , 1962 .
24-Weiers , Michael : Von Ogodei bis Mongke - Das Mongolische Grossreich , in : Michael Weiers (Hrsg.) , Die Mongolen - Beitrage Zu ihrer Geschichte und Kultur , Darmstadt , 1986 .
25-.... , ... : Die Mongolen in Iran , in : Michael Weiers (Hrsg.), Die Mongolen - Beitrage zu ihrer Geschichte und Kultur , Darmstadt , 1986 .

« نظام رواتب الجيش العباسي في العراق
(٢١٨ - ٣٣٤هـ / ٨٣٣ - ٩٤٥م) »

د . عبد الوهاب خضر إلياس

جامعة الموصل - الجمهورية العراقية

مقدمة :

كان المقاتلة في المدينة المنورة والاعصار الإسلامية في العهدين الراشدي والأموي يتلمون من الدولة سنوياً « مقداراً مقرراً » من المال يسمى العطاء . ولما جاء العباسيون إلى الحكم تخلوا بشكل تدريجي عن نظام المقاتلة واعطياته ، وأسسوا الجيش النظامي وخصصوا لأفراده الرواتب الشهرية النظامية . واطلق على هذه الرواتب لفظ « الرزق » ومن هنا اشتق تعبير « المرتزقة » الذي كان يطلق على منتسبي الجيش العباسي ، ليقصد به الجند النظامي الذين يقبضون رواتب معينة ثابتة ويدربون باستمرار ويكونون متأهبين للحرب دوماً[١] .

لقد طرح موضوع الرواتب في الفترة المراد بحثها ضمن أعمال بعض الباحثين[٢] . ولكن الموضوع مازال في جوانب عديدة منه بحاجة إلى دراسة جديدة . وانطلاقاً من ذلك كان اختيار هذا الموضوع الذي توزع على عدة محاور . الأول الاثبات والفرض في ديوان الجيش والثاني الرواتب والمخصصات والثالث ترتيبات توزيع الرواتب على الجند .

أولاً : الاثبات والفرض في ديوان الجيش :

يقصد بلفظ الاثبات تسجيل أسماء المجندين حديثاً في ديوان الجيش فيقال «أثبت اسمه في الديوان : كتبه »[٣] . أما الفرض فيراد بهذا اللفظ مقدار الرزق أو الراتب المخصص للمجندين حديثاً فيقول الزمخشري « وفرض لفلان في الديوان إذا أثبت رزقه فيه »[٤] وتتم عملية الفرض بعد الأثبات مباشرة ويظهر ذلك من تعريف

الخوارزمي للاثبات وهو « أن يثبت اسم الرجل في الجريدة السوداء (السجل الأساس) ويفرض له رزق »[٥] .

وتتم عملية التجنيد عندما يعهد الخليفة إلى أحد القادة العسكريين بمهمة تشكيل الفرقة العسكرية ، وتأمين الجند اللازم لها ، ثم تقرر الأموال اللازمة للعدد الذي يحدد له[٦] . ثم يدعى بعد ذلك الناس إلى الاكتتاب في الفرض أي كتابة اسمائهم فيه[٧] . وتعهد مهمة التجنيد إلى موظف يدعى « الفارض » وهو الذي يجمع الراغبين في الجندية ويفرض لهم في ديوان الجيش[٨] . يساعده في ذلك موظف آخر يدعى « العارض » الذي يتأكد من توفر شروط صلاحية طالبي التجنيد للخدمة العسكرية[٩] . وكان التسجيل في الديوان يراعى فيه شروط عديدة هي : أن يكون المجند مسلما « وحرا » ، ولياقته البدنية سليمة[١٠] وأن لا يقل عمره عن « ١٥ » سنة[١١] . له خبرة في القتال ويجيد استخدام السلاح ، ولديه رغبة صادقة في احتراف الجندية[١٢] . وبعد التحقق من صلاحية الجندي للخدمة العسكرية يدون اسمه ونسبه وأولاده ومقدار جاريه وحليته في جريدة القائد[١٣] . التي تخصص في في ديوان الجيش[١٤] ثم يلحق الجندي بنقيب تتمثل مهمته في القيام بأمور الجند وجمعهم في وقت العطاء وفي وقت النفير[١٥] .

ولما كان الخليفة قد حدد للقائد عدد الجند (الملاك) الذين يعملون تحت أمرته فإن تناقصهم التدريجي بالوفاة يؤثر سلباً في مكانة القائد بل وفي مستقبل الفرقة العسكرية ، لذلك ومن أجل المحافظة على تماسك الفرقة واستمراريتها ، ينبغي اثبات جنود جدد يحلون محل المتوفين ، وكان ذلك يتوقف على قرار الخليفة ونظرته للقائد[١٦] . كما كانت مسألة الحاق جند جدد فضلاً عن العدد المقرر للفرقة والذي يستوجب زيادة تخصيصاتها المالية مرهوناً بموافقة الخليفة أيضاً »[١٧] .

ثانياً : الرواتب والمخصصات :

يمكن القول إن تقدير رواتب الجيش العباسي ضمن الفترة موضوع البحث ، كانت تخضع إلى جملة من الأسس ، منها : الرتبة العسكرية . حيث من الطبيعي أن

تتفاوت رواتب الجيش العباسي بتفاوت الرتب العسكرية[18] ، ويشير المسعودي إلى هذه الرتب عند حديثه عن التنظيم العسكري للعيارين أيام الخليفة الأمين الذي نستطيع أن نفترض أنه هو نفسه التنظيم في القوى العسكرية العباسية الذي سكتت المصادر عنه[19] فيقول بأنه كان هناك الأمير وتحته عشرة قواد وجنده عشرة آلاف ، ويليه القائد وتحته عشرة نقباء وجنده ألف ثم النقيب وتحته عشرة عرفاء وجنده مائة ثم العريف أخيراً وتحته عشرة عرفاء وجنده مائة ثم العريف أخيراً وتحته عشرة من الجنود تقريباً[20] .

ويراعى في تقدير الرواتب صنف الجندي بوصفه فارساً أو راجلاً حسبما هو مثبت في ديوان الجيش[21] ، وكانت القاعدة المعمول بها هو أن راتب الفارس يكون عادة نصف راتب الراجل[22] .

ولما كانت الدولة تلزم الجند بتجهيز أنفسهم بعدة القتال والاعتناء بقيافتهم العسكرية ، فمن المنتظر أن تأخذ الدولة ذلك بنظر الاعتبار عند تقدير رواتب الجند[23] ويظهر هذا واضحاً فيما يذكره ابن وهب الكاتب عند حديثه عن واجبات كاتب الجيش ومنها مطالبة الجند « بالعرض في السلاح التام . وعلى الخيل الفارهة ووسمها عليهم لئلا يكون عارية أو كراء . . . والامتحان لهم فيما يعالجونه من السلاح فمن كان في المحنة مرضياً ، وكانت أداته كاملة وفرسه فارهاً ، وبزته جميلة ، على مقدار رزقه أمضى أمره والا حلق على اسمه ، ووفر رزقه فلم يزل الأمر جارياً على ذلك . . . »[24] وربما يؤخذ في تقدير الرواتب مستوى الاسعار (الغلاء والرخص) في البلد الذي يحل فيه الجند[25] .

وفيما يتعلق بمقادير رواتب الجيش العباسي ، فيتضح مما ذكرناه أن الدولة العباسية اتبعت مبدأ التفاضل في توزيع الرواتب على الجند[26] ويؤكد البوزجاني على ذلك ، ويضيف بأن تحديد الرواتب كان من مسئولية الخليفة فيقول بهذا الصدد «أن ارزاق الجند مختلفة في البلاد . . . وهي بحسب ما يرى السلطان ان يرسمه ويثبته في الدواوين »[27] وسنتناول رواتب القادة أو الضباط أولاً . ثم رواتب الجند ثانياً .

١- رواتب القادة العسكريين :

من المتوقع أن تكون رواتب القادة متباينة بتباين مكانة القائد لدى الخليفة ، وعدد الجند الذين يعملون تحت أمرته فبحسب ما تذكره المصادر التأريخية هناك قائد بارز أمر الخليفة بتنويه اسمه ، وآخر مغمور [٢٨] وهناك قائد يقوده الخليفة على (٥٠٠) جندي [٢٩] وآخر على (٢,٠٠٠) جندي [٣٠] وآخر على (٤,٠٠٠) جندي [٣١] ، وآخر على (٥,٠٠٠) جندي [٣٢] .

كان للقادة في بداية الدولة العباسية عطاء خاص أشار إليه مؤلف « أخبار الدولة العباسية » حيث ذكر أنه عندما اعلنت خلافة ابي العباس السفاح « اجرى للخواص وكبراء القواد وأهل الغناء من النقباء وغيرهم ما بين ألف إلى الفين وخص من دونهم ما بين مائة إلى ألف » درهم [٣٣] . وقد استمرت هذه المبالغ والتي تعرف بـ « الخواص السنية » [٣٤] تدفع لمستحقيها ابان العهد العباسي الأول [٣٥] .

لم تقدم المصادر معلومات وافية عن مقادير رواتب القادة في العهد العباسي الثاني ، ولكن يمكن القول أن رواتب القادة أيام التسلط البويهي والتي كانت تتراوح ما بين ٢٠ ألف دينار و ٥٠ ألف دينار [٣٦] هي نفسها التي كان يتقاضاها القادة على الأقل في الثلث الأول من القرن الرابع للهجرة بدليل ما يروي من أن القائد البارز ، بحكم اقطع في سنة ٣٢٥هـ/٩٣٦م اقطاعاً عسكرياً وارده (٥٠) ألف دينار في السنة [٣٧] والاقطاع العسكري يكون عادة معادلاً للراتب كما يقول كاهن [٣٨] وكان العديد من قادة الأمير ، بحكم قد « أثبت بعشرين ألف دينار في السنة وأكثر » [٣٩] ويستدل من هذه الرواية أن هناك قادة يستلمون أكثر من (٢٠) ألف دينار في السنة. ويظهر هذا مما يرويه الصولي أنه في سنة ٣٣٢هـ/٩٤٣م فر إلى ناصر الدولة الحمداني أبو بكر محمد بن جعفر النقيب ، من بغداد فقبله ، وخلع عليه ، وعلى ولده ، وبلغ برزقه ألفي دينار في الشهر ، ومثلها لولده وغلمانه [٤٠] وهذا يعني أن مجموع راتبه السنوي كان (٢٤) ألف دينار .

٢- رواتب الجند :

كان أفراد الجيش العباسي النظامي المسجلين في ديوان الجيش يتقاضون رواتب دائمة ففي عهد الخلفاء العباسيين الأول كان الجندي يتقاضى (٨٠) درهماً في الشهر أي (٩٦٠) درهماً في السنة[٤١] وفي ذلك الزمن كان عامل البناء في بغداد يتقاضى ثلث الدرهم في اليوم أي (١٢٠) درهماً في السنة[٤٢] أي ثماني مرات أقل من الجندي العباسي مما كان له أبلغ الأثر في تحسين المستوى المعاشي للجند ، ولابد أنه عالج الشكوى التي كان يتشكى منها المقاتل في آخر العهد الأموي[٤٣] .

تضم مؤلفات بعض المؤرخين معلومات تلقي الضوء على مقادير رواتب الجند ابتداءاً من عهد الخليفة المعتضد فصاعداً . يقول الصابي أن منتسبي الفرقة الحجرية حصلوا على (٧ - ١٢) دينارا كل (٥٠) يوماً وفيما بعد (١٢ - ١٦) دينارا في عهد المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩هـ / ٨٩٢ - ٩٠٢م) والمكتفي (٢٨٩ - ٢٩٥هـ / ٩٠٢ - ٩٠٨م) وبالتالي فان راتبهم الشهري (أي كل ٣٠ يوماً) بلغ (٤/٢ - ٧/٢) دينار وفيما بعد (٧/٢ - ٩/٦) دينار[٤٤] .

وكان الفارس يتقاضى شهرياً ما يوازي (١٥) ديناراً في حوالي سنة (٣٠٤هـ/٩١٦م) . فقد ذكر مسكويه أن المبلغ الاجمالي للفرسان كان (١٥) ألف دينار شهرياً وذكر الصولي أن عدد الفرسان بلغ سنة (٣١٧هـ / ٩٢٩م) اثني عشر ألف فارس ، مما يجعلنا نقدر عددهم بحوالي (١٠) آلاف في سنة (٣٠٤هـ/٩١٦م) ، خاصة وأن عددهم تزايد بين سنتي (٣٠٤ - ٣١٧ هـ / ٩١٦ - ٩٢٩م)[٤٥] وزيد راتب الفارس في سنة ٣١٧هـ إلى (٤١) ديناراً وثلث الدينار[٤٦] .

أما الراجل فكان راتبه في القرن الثالث للهجرة في وزارة الخاقاني (٤) دنانير[٤٧] ثم زيد رزق الراجل في سنة (٣١٧هـ / ٩٢٩م) إلى (٦) دنانير في النوبة[٤٨] ثم أصبح (٧) دنانير بعد زيادة دينار واحد[٤٩] .وفي سنة ٣٢٥هـ/٩٣٦م) بلغ متوسط راتب الجندي في جيش بحكم الديلمي (١٣ر٥) دينارا في الشهر[٥٠] .

وكان الجند تصيبهم زيادات (علاوات) أي أنهم كانوا يتسلمون مبلغاً إضافياً

من المال على رواتبهم الاعتيادية[٥١] وكانت هذه الزيادات أو العلاوات تعطى في مناسبات خاصة ، مثلاً بعد الانتصارات العظيمة[٥٢] وعند مجيء حاكم جديد يحتاج إلى مناصرة الجند[٥٣] ولم يراع ذلك تماماً زمن الخليفة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠هـ / ٩٠٨ - ٩٣٢م) فقد انتقد الوزير علي بن عيسى نائبه أبا العباس الخصيبي بعدم مراعاته النمط الاعتيادي في الترفيع عند منح الزيادات ونقل الجنود من راتب إلى آخر أعلى[٥٤] لذلك يقول الروذراوري « والزيادات في الأصول محظورة على العموم إلا عند الفتوح وما تدعو السياسة إليه في استمالة القلوب »[٥٥] .

ويلاحظ أن رواتب الجند كانت تتعرض بين فترة وأخرى إلى اعادة تقدير أو تصنيف[٥٦] في ضوء الامتحان الدوري الذي تجريه القيادة العسكرية لاختيار الكفاية العسكرية للجند فمن كان في المحنة مرضياً أمضى رزقه ، ومن كان دون المستوى المطلوب ينزل راتبه إلى مستوى أدنى[٥٧] .

ويلاحظ أيضاً أن رواتب الجند من حيث المبدأ لم تكن وراثية ولا تستمر مدى العمر ولكن قد يجوز أن يحتفظ الجندي المسن أو الزمين (المريض) براتبه حتى وفاته إلا أن أولاد الجندي المتوفى لم يكن لهم الحق بوراثة الراتب بل بتعويض عنه[٥٨] .

لم تكن الرواتب النظامية سوى جزء من دخل الجنود في الدولة العباسية إذ كانوا يحصلون على امتيازات أو مخصصات نقدية وعينية . فقد كانت الدولة تدفع للجند مخصصات زوجية وأطفال . فيذكر اليعقوبي أن الخليفة المعتصم اشترى الجواري وزوجهن لأفراد الجيش ومنح هذه الزوجات مخصصات تضاف إلى رواتب أزواجهن وذلك لمنع التزاوج بين العسكريين والمدنيين[٥٩] أما مخصصات أولاد الجند فيرد ذكر لرواتب عيالات الأتراك زمن المتوكل[٦٠] وقام الخليفة المستعين بتسجيل أولاد وبنات القادة الأتراك في ديوان الجيش[٦١] وفرضت الرواتب لأطفال الجند الرضع زمن الخليفة المقتدر إلا أن الوزير علي بن عيسى اسقط ذلك من الديوان لسد العجز في ميزانية الدولة[٦٢] .

وكانت الدولة توزع على الجند أموالاً إضافية هبة مباشرة لهم عند تسلم كل خليفة

للحكم ، يطلق عليها تعبير « مال البيعة » وقد أوجدها موسى الهادي عند توليه الخلافة سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٥م(٦٣) وقد غدت هذه السابقة قاعدة لدى بداية كل عهد ، والهدف منها هو تأمين ولاء الجند للخليفة الجديد(٦٤) وكانت هذه المخصصات تكلف الدولة مبالغ طائلة حتى أن الخليفة القاهر اضطر لتغطية مال البيعة إلى مصادرة والدة المقتدر ، وبيع دار الوزير بالمخرم وبيع الضياع والاملاك السلطانية(٦٥) .

وكان القادة والجند يحصلون على صلات نقدية تسمى الجوائز(٦٦) تصرفها الدولة لهم بمناسبة الانتصارات العظيمة مثلما كان يجرى في العهد العباسي الأول(٦٧) أما في العهد العباسي الثاني فقد سعى الخلفاء إلى اغداق الأموال على الأتراك لتأمين ولائهم له فكانوا يقبضون في كل شهر فضلاً عن رواتبهم « الجوائز والهبات »(٦٨) .

ويرد ذكر « المعاون » وهي أموال اضافية تصرفها الدولة لقادة الجند خاصة . فكان المعتصم يصرف المعاون للأفشين(٦٩) وأمر الواثق أن يطلق للقائد اسحاق بن إبراهيم خمسة آلاف درهم معونة بمناسبة خروجه إلى خراسان(٧٠) وكان للقائد بغا معاونة دائمية يستلمها زيادة على راتبه زمن المتوكل ، فضلاً عن صلة نقدية تسمى « الجبا »(٧١) وكانت المعاون التي تصرف للقادة الأتراك ، زمن الخليفة المهتدى احد أسباب شغب الجند سنة ٢٥٦هـ لأن هذه المعاون وغيرها من الهبات كانت حسب ادعاءاتهم تؤثر سلبياً في أوضاعهم الاقتصادية فطالبوا المهتدي بالغائها جميعاً(٧٢) .

وكان الجند يحصلون على علاوات نقدية يشترون بواسطتها جراياتهم من الاطعمة يطلق عليها « الأنزال »(٧٣) ويظهر هذا واضحاً مما جاء في الرقعة التي وجهها الوزير علي بن عيسى إلى السيدة أم المقتدر حول شغب الجند وتأخر استحقاقاتهم فيقول : « وبباب أمير المؤمنين الكثير من الغلمان والحاشية والفرسان والرجالة ، وما أحسب صنفاً من هذه الأصناف يقدر أن يقول . . . إنه دفع عن استحقاق ولا تأخر له شيء من رزقه ونزله »(٧٤) . وبجانب هذه الجراية الدائمة كان يوزع على الجند مواد عينية بمناسبة العيد ، حيث كانت العادة أن يفرق في الاعياد على القواد والفرسان والغلمان وغيرهم « من شاة إلى عدة بعران » وتنحر في المصلى سبعون ناقة ويلتزم على ذلك

بمال جليل »[٧٥] كما أمر المقتدر بتفريق ثلاثين ألف رأس من البقر والغنم ومائة رأس من الأبل على القواد وغيرهم بمناسبة العيد[٧٦] .

ويصرف للجند نوع آخر من الجراية وهي علوفة الدواب[٧٧] إذ كان على الديوان أن يصرف للجند مع رواتبهم اثمان وقضيم دوابهم وعلوفتها وكانت هذه المخصصات تقدر على أساس أصناف الدواب ، إذ كان يصرف للخيل بمعدل أربعة دنانير كل شهر في حين كان يصرف للبغل ثلاثة دنانير ونصف أما الحمير فقد كان يصرف لكل منها أربعة دنانير شهرياً[٧٨] .

ومن الامتيازات التي حصل عليها القادة العسكريون الاقطاعات وهي هبات عقارية قام الخلفاء بمنحها لهم[٧٩] فضلاً عن مرسوماتهم (الرواتب والمخصصات) ففي رواية أن قبيحة أم الخليفة المعتز قالت للأمراء صالح بن وصيف روبايكباك ومحمد بن بغا بعد أن طلبوا منها (٥٠) ألف دينار « ما في الخزائن شيء ولا عندي مال فليقتنع كل منكم بأقطاعه ومرسوماته »[٨٠] وقد أدى اتساع اقطاعات القادة الاتراك إلى تذمر الجند ، ومطالبتهم الخليفة المهتدي بانتزاع الاقطاعات من أصحابها لكونها أثرت سلباً في ارزاقهم وهذا يعني أن هذه الاقطاعات كانت من الأرض الخراجية[٨١] وترد إشارات إلى اقطاعات القادة العسكريين زمن الخليفة المعتمد[٨٢] والمقتدر[٨٣] .

وكان على الجند لقاء تسلمهم الرواتب النظامية وتمتعهم بالامتيازات المارة الذكر ، التزامين أساسيين : الأول هو أن يخصصوا جزءاً من رواتبهم لتجهيز أنفسهم بعدة القتال التي كانت تتناسب ومقدار الراتب[٨٤] أما الثاني فكان عليهم المشاركة في الحملات العسكرية وكان الذي يرفض ذلك يحرم من رزقه ويمحي اسمه من الديوان[٨٥] .

يتضح مما سبق أن الدولة العباسية أمنت وضعاً معاشياً لائقاً للجند ويظهر ذلك أكثر وضوحاً لدى مقارنة ذلك بالوضع المعاشي للجند في الامبراطورية البيزنطية ، حيث كانت رواتبهم - حتى في تلك الفترة على ما يبدو لا تزيد عن (١ - ٢) نوميسمات (أي ما يعادل ديناراً واحداً[٨٦] . ومن هنا يجب أن نفهم تلك المساعي

المتكررة التي كان يقوم بها الأهالي من أجل ضمان مكان لهم في قيود وسجلات ديوان الجيش وذلك للحصول على حق تسلم الرواتب والامتيازات من الديوان المذكور وكان أخراج هؤلاء الدخلاء والبدلاء من اختصاصات العارض المهمة(٨٧) .

ثالثاً : ترتيبات توزيع الرواتب على الجند :

لقد سبق وأن ذكرنا أن العباسيين لما جاءوا إلى الحكم ، انشأوا جيشاً « نظامياً »، ونظموه على أساس الفرق العسكرية المحترفة للقتال ، التي يقودها قادة محترفون . وكانت هذه الفرق تحمل أما أسماء أوطانها(٨٨) أو أسماء قادتها(٨٩) ويخضع ترتيبها في ديوان الجيش إلى أسس معينة(٩٠) وقد جرت العادة بأن يخصص لكل فرقة عسكرية دفتر أو جريدة أي سجلاً في ديوان الجيش(٩١) وكان كتاب الديوان يفردون لكل جندي ورقة خاصة بسجل الفرقة العسكرية التي ينتسب إليها في ديوان الجيش ، يدونون فيها أوصافه الكاملة التي تميزه من غيره من الجند مع تبيان العلامات الفارقة الخاصة به وهذا يشبه الصورة التي ترفق في الوقت الحاضر بالهوية الشخصية ، ثم يذكر بعد ذلك نسبة الجغرافي أو ولاؤه ومقدار راتبه(٩٢) وهذه المعلومات تنطبق على الجندي الراجل أما الفارس ففضلاً عن هذه المعلومات ، كان الكتّاب يدونون أوصاف الخيل والبغال العائدة له والتي كانت تعرف بـ « الشيات »(٩٣) لأن رزق الفارس كان يختلف عن رزق الراجل(٩٤) .

في ضوء المعلومات التي يوردها ابن وهب الكاتب ، يمكن القول أن تنظيم سجل الفرقة العسكرية كان يتم على وفق الصيغة الآتية(٩٥) :

اسم الفرقة العسكرية
اسم صاحب الراتب (الجاري) ....
مقدار الجاري .... (حليته)

أما نظام توزيع الرواتب على الجند ، فإنه عندما يحين موعد صرف الرواتب ، يفترض من كتاب ديوان الجيش أن قاموا بتهيئة قوائم الجند حسب الصيغة المارة الذكر، ومعظم الأمور المتعلقة بهذا العمل تجرى في مجلس التقرير في ديوان الجيش من تنظيم استحقاقات الجند وأوقات أعطياتهم حسب الرسوم المقررة في جرائد الديوان . وأهم عمل يقوم به هذا المجلس هو تقدير النفقات والارزاق الواجب اطلاقها في كل وقت من الاوقات المقررة(٩٦) ويوضح البوزجاني طريقة تقدير أو أحتساب رواتب الجند التي بموجبها « يجرى أمر أرزاق الجند » فيقول إن أراد الكاتب أن يعرف ما تستحق جماعة من الجند مختلفة الارزاق لأشهر معلومة فينبغي أن يحبس الأسماء ويجعل من كان رزقه متساوياً جنساً واحداً ويضرب عددهم في مال شهر واحد فما اجتمع يضربه في عدد الأشهر فما حصل من الضرب فهو جملة ما تستحق تلك من ارزاقهم في تلك المدة ثم ضرب مثالاً عملياً بالارقام(٩٧) وينبغي أن يكون تقدير الكتاب لمبالغ تخصيصات الجيش مطابقة بدقة لأيام السنة ، فلا يسمحون أن يتجاوز التقدير السنة ولو بيوم واحد ، فان حصل ذلك فانهم يخرجونه منها ويحسبونه على السنة التي تليها(٩٨) .

إن هذه العملية المارة الذكر ، تهدف كما يتضح منها ، إعداد عمل تفصيلي أو حساب تفصيلي يتضمن أسماء الجند ومقدار راتب كل جندي فضلاً عن راتب القائد ثم يثبت في أسفل العمل اعداد الجند ومجموع استحقاقهم ويضمنه استحقاق القائد(٩٩) ثم تأتي العملية الثانية وهي اجمال التفصيل أي أعداد حساب اجمالي للرواتب المستحقة للجند وهذا الحساب ينظم في صك(١٠٠) وهناك رواية توضح هاتين العمليتين (العمل المفصل واجمال التفصيل) فقد جاء في هذه الرواية أن أحد الكتاب قال « كنت أكتب لمحمد بن عبد الملك الزيات على الجيش واحتيج إلى توجيه بعض القواد في أمر مهم ، فعملت بأستحقاقه ورجاله عملاً مفصلاً ، ثم اجملت التفصيل . . . وصككت به »(١٠١) ثم يحال الصك إلى الوزير لختمه والتصديق عليه(١٠٢) ففي رواية أن (دعبل الخزاعي) أنشد شعراً للجند الذين شغبوا في بغداد (حوالي سنة ٢٠٢هـ) مطالبين بصرف رواتبهم فيما قاله :

قد ختم الصك بأرزاقكم وصحح العزم فلا تسخطوا(١٠٣)

وكانت هذه الصكاك أو القوائم المختومة يحيلها الوزير إلى صاحب بيت المال حيث يقوم بإطلاق الأموال حسب المقادير المثبتة فيها [١٠٤] وكانت هذه الصكوك تستلزم مراجعتها للتأكد من صحتها وقد تشدد الخليفة المعتضد في هذا الأمر فعين أحد الكتاب للتأكد أن صحة الصكوك وأمر صاحب بيت المال العام إلا يصرف صكاً إلا بعد التأكد من وجود علامة هذا الكاتب عليه [١٠٥] .

وتقع مسؤولية تسلم الأموال من بيت المال والاحتفاظ بها إلى حين توزيعها على عاتق الخزان العاملين في ديوان الجيش [١٠٦] وربما كان لكل قائد خازن فمثلاً كان للقائد ابن أبي الساج خازن « يتسلم من محمد بن خلف : الأموال المحمولة إليه التي ينفقها في رجاله (جنده) وغلمانه ونفقاته » [١٠٧] .

وعندما يحين موعد صرف الرواتب ، يقوم النقباء بتبليغ الجند بضرورة الحضور إلى الديوان في الموعد المقرر لتسلم رواتبهم [١٠٨] لأن الذي يتأخر عن ذلك يؤجل صرف راتبه إلى الشهر الذي يليه [١٠٩] . وكان دفع رواتب الجند يقع تحت إدارة موظفين هما المنفق أو المعطي والعارض [١١٠] حيث تخرج إليهم من مجلس العطاء «الجرايد بالأسماء والحلي ومبلغ الجاري . . مع المال » [١١١] المخصص للفرقة العسكرية. وعندما يسمع صوت طبل العطاء « يحضر من ينتهي إليه الدعوة من القواد ومعه أصحابه بأحسن رتبه » [١١٢] في الموضع المخصص لعرض الجند . وتوضع أكياس النقود أمام المنفق . وينادي المنادي أولاً اسم القائد فيتفقد العارض دابته وآلتها بدقة ثم يعرب عن رضاه ويدفع له راتبه فيضع النقود في القسم الأسفل من حذائه ثم يهتف قائلاً « الحمد لله الذي وفقني لطاعة أمير المؤمنين حتى استوجبت منه الرزق » ثم يتقدم بعد ذلك رجال القائد أمام العارض لمعاينة مظهرهم الجسمي (الحلية) واسلحتهم وتجهيزاتهم ودوابهم [١١٣] ويقبض من صحت حليته منهم [١١٤] وكانت تجهيزاته العسكرية كاملة [١١٥] .

وكان يساعد المنفق والعارض في توزيع الرواتب موظف آخر وهو الجهبذ ويقصد به الصراف الذي كان يقوم بوزن النقود المدفوعة للجند لاختلاف أوزانها وأنواعها (جيدة

أو رديئة) كما يقوم أيضاً « بتحويل النقود أو صرفها للجند حسب سعر الصرف الذي يحدده هو أيضاً[١١٦] بسبب اعتماد الدولة على نظام النقد المزدوج (الدينار والدرهم)[١١٧] .

وكانت الدولة تسعى جاهدة إلى الحصول على وفورات مالية من رواتب الجند لسد العجز المالي في ميزانيتها[١١٨] ويرتبط ذلك بعملية عرض الجند عند وقت استحقاق كل فرقة عسكرية لرواتبها فقد كان العراض يسقطون من الديوان الدخلاء والبدلاء الذين تمكنوا من دس أنفسهم في قيود الجند ويوفرون رواتبهم للدولة[١١٩] ويسقط العراض الجندي من الديوان ويوفر راتبه إذا أخل باحضار شيء من عدة القتال[١٢٠] أو ثبت أن دابته كانت عارية أو كراء[١٢١] وقد تفرض غرامات على الجند الذين فقدوا أو سببوا جرحاً للدواب التي في عهدتهم وتوفر هذه الغرامات مع أموال الباقطين لأجور الكتّاب العاملين في مجلس العطاء وخزان بيت المال[١٢٢] وقد يلجأ الكتّاب إلى وسيلة ظالمة لتوفير الارزاق وتتمثل في تأخير دفع عطاء الجندي عن وقت استحقاقه حتى «يصير ما استحقه فائتاً سبيله التوفير ، وكلما تقادم من زمان الفائت ، يوجب تقديم اطلاق ما أخر عنه ، يؤكد عندهم بطوله ووجب سقوطه » . ومما تعارف عليه الكتّاب ، أن يكون ما يدفع إلى الجندي من استحقاقه أقل مما توجب له ، بحيث يكون له استحقاق شهر كامل موقوفاً[١٢٣] وربما يرتبط هذا الأجراء بعادة الكتّاب وهي « أن يسقط من استحقاق (الجند) في كل سنة أحد عشر يوماً وربع يوم وهي التفاوت بين السنة الشمسية والقمرية »[١٢٤] أما الغائب الذي ترك مكتبه بدون اجازة[١٢٥] فيستقطع من راتبه ما يعادل مدة غيابه ويوفر للدولة[١٢٦] وأما المتوفي فيسقط من الديوان[١٢٧] ويطلق لورثته ما استحقه من راتبه إلى حين وفاته ويوفر الباقي ، وأن لم يكن له وارث يعاد الراتب إلى الديوان ويوفر[١٢٨] وكانت الدولة تستفيد أيضاً من فضول صرف أو تبادل العملة وكذلك من فضل وزنها في تدعيم ميزانيتها[١٢٩] .

وبعد الانتهاء من توزيع الرواتب على الجند يقوم المنفقون برفع « الحساب بما ينفقونه » وذكر ما يوفرونه من جاري من لم يصح عرضه عن البدلاء والدخلاء والدموات والغياب إلى ديوان الجيش ، ورفع الحجج إلى الخزان بما يحملونه إليهم»[١٣٠]

وهذا الحساب الذي يرفع إلى الديوان يسمى بـ « الرجعة » ويعرفها الخوارزمي بأنها «حساب يرفعه المعطي في بعض العساكر بالنواحي لطمع واحد إذا رجع إلى الديوان » وقد ميز بينها وبين الرجعة الجامعة « والتي يرفعها صاحب ديوان الجيش (إلى الوزير) لكل طمع من صنوف الأنفاق »(١٣١) .

كانت العملة النقدية المستعملة في دفع رواتب الجند في العراق هي الدرهم(١٣٢) ولكن بعد أن أصبح الدينار واسع الانتشار ، أخذ الدرهم يتراجع لصالح الدينار حيث نلاحظ أن واردات العراق كانت في عهد المعتمد (ت ٢٧٩هـ) تسجل بالدراهم بينما سجلت في عهد المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩هـ) بالدينار(١٣٣) وعليه فقد صار الجيش يقبض رواتبه بالذهب ، فضلاً عن موظفي الدولة المدنيين(١٣٤) .

إن دفع رواتب الجيش نقداً ، أدى ولاشك إلى التداول الكثيف للنقود خاصة في بغداد وبشكل مؤقت في سامراء حيث تركز الجند فيهما بأعداد كبيرة(١٣٥) وهذا التداول الكثيف للنقود أدى بدوره إلى زيادة استهلاك مختلف البضائع مما زاد من نشاط حركة السوق المحلي والعام ومن ثم ارتفاع الاسعار(١٣٦) ويظهر ذلك أكثر وضوحاً إذا علمنا أن رواتب الجيش كانت تشكل البند الأول في ميزانية الدولة العباسية(١٣٧) بل ازداد الانفاق على الجيش في فترة التسلط التركي على الخلافة خاصة أيام الخليفة المقتدر إذ أن ميزانية الدولة العباسية التي بلغت حوالي سنة ٣٠٤هـ ١٤ مليون دينار كان نصفها تقريباً ينفق على الجيش(١٣٨) .

أما فيما يتعلق بمواعيد توزيع الرواتب على الجند النظامي ، فمن المعروف أن الدولة العباسية أقرت بعد قيامها مباشرة مبدأ صرف الرواتب على أساس المشاهرة أي شهراً بشهر ، بعد أن كانت سنوية زمن الراشدين والأمويين(١٣٩) ومن الطبيعي أن جعل الراتب شهرياً ، بدل أن يكون سنوياً ، ييسر تنظيم الأمور المالية ويخفف من تكرر « تأخير » دفع الراتب في موعده(١٤٠) .

غير أن دفع الرواتب في أوقاتها المحددة لم يكن أمراً ميسوراً دائماً لأن ذلك كان يتوقف بشكل عام على انتظام ورود الأموال إلى بيت المال وفي هذه الحالة فان أي

تأخير في جباية الأموال أو تأخر وصولها يعني تأخير دفع الرواتب عن موعدها المقرر [١٤١] .

والواقع أن تأخير صرف الرواتب عن موعده المقرر ، والذي تكثر المصادر من الإشارة إليه كان سبباً رئيساً لتذمر الجند وشغبهم لاعتمادهم على الراتب فقط في حياتهم المعيشية ، فحبسه عنهم أو تأخير دفعه يؤدي لا محالة إلى تدهور أوضاعهم الاقتصادية [١٤٢] ومما يزيد وضعهم سوءاً هو لجوؤهم إلى الاستدانة من الموسرين [١٤٣] لأن تأخير دفع الراتب للجند « يحوجهم إلى المداينات فيضعفهم ، وتقل فائدة العطاء عند التأخير » [١٤٤] وبالإضافة إلى المداينة فقد يضطر الجندي في حالة انقطاع الراتب عنه إلى طلب الصدقة من الناس ويظهر هذا كله من رواية أبي اسحاق إبراهيم بن القاسم الخياط حيث يقول فيها « كان في جيراني بالجانب الشرقي من بغداد رجل من الأتراك له رزق في الجند فتأخر رزقه في أيام المكتفي ، ووزارة العباس بن الحسين . فساءت حاله ، ورثت هيئته حتى لزم الجلوس عند خباز كان بالقرب منا وكان يستشفعه على جماعة يسائلهم ويشفعه أيضاً بأن يعطيه في كل يوم خمسة أرطال خبزاً يتقوت بها هو وعياله فاجتمعت عليه للخباز شيء فضاق به صدر الخباز أن يعطيه شيئاً آخر فمنعه فخرج ذات يوم فجلس وهو عظيم الهم ، ثم كشف لي حديثه وقال : لقد علمت أن لابد لي من مسألة الناس ، وقد عملت على مسألة كل من يشتري من الخباز أن يتصدق عليّ وقد حملني الجوع على هذا كله . لكن لما ذكرت ما في ذلك من الذل منعتني نفسي ... » [١٤٥] .

لقد انتبهت الإدارة العباسية إلى خطورة مشكلة تأخر صرف الرواتب للجند وتأثيراتها السلبية في مجمل حياتهم المعاشية وادركت أن ضبط الجند ومنعهم من الشغب لا يتم إلا بإيجاد حل لهذه المشكلة ، وعليه فقد تصدى لهذه المشكلة وزير الخليفة المعتضد المدعو عبيد الله بن سليمان الذي أدرك أن تأخر صرف الرواتب للجند ومن ثم شغبهم يكمن في صعوبة دفع رواتب أصناف الجند كافة مرة واحدة حسب القاعدة السابقة إذ « كان الجند فيما تقدم يفضلون في الارزاق وشهورهم واحدة ، وكانت استحقاقاتهم تتوافى في وقت واحد ، فمتى تأخر عنهم مالهم اجتمعت كلمتهم

على الطلب ولقي معاملهم جلاً من الشغب »[١٤٦] لذلك قرر الوزير عبيد الله بن سليمان المباعدة بين أوقات توزيع الرواتب على الجند و « زاد من أخر رزقه بمقدار الزيادة في الكلام واقتصر بمن قدم رزقه على ما لا يقصر عن مؤونته ، فسلم بذلك من شغبهم وذمهم » وهذا الاجراء حسب رأي الوزير ، يوفر للدولة زمناً كافياً تستغله في جمع الأموال من النواحي وايصالها إلى بيت المال والذي بدوره يكون جاهزاً لاحالة المال إلى الفرقة العسكرية التي استحق منتسبوها رواتبهم[١٤٧] .

وفقاً لهذا الترتيب ، صار شهر عطاء النوبة وهم الذين يتناوبون في حراسة دار الخلافة ٣٠ يوماً أي أنهم كانوا يتسلمون ١٢ دفعة في السنة والحسم في كل ٤٠ يوماً أي كانوا يتسلمون ٩ دفعات في السنة والمماليك من الخدم والغلمان والحجرية ومن جرى مجراهم في كل ٦٠ يوماً ، أي كانوا يتسلمون ٦ قبضات في السنة ثم المختارين في كل ٧٥ يوماً أي يتسلمون ٥ دفعات سنوياً ، ثم التسعينية في كل ٩٠ يوماً ويتسلمون ٤ قبضات في السنة ، ثم الاحرار الفطم في كل ١٠٥ يوماً أي « الثلاثة والسبع شهر » ثم الاحرار الجيليين في ١٢٠ يوماً وتدفع لهم الرواتب على ثلاثة أقساط سنوياً ، ثم الموسابادية وأصحاب الرقاب في كل ١٨٠ يوماً ، أي بمعدل قبضتين في السنة[١٤٨] .

وسواء أكانت الرواتب تدفع شهراً بشهر أم كل بضعة أشهر فانه يفهم من الخوارزمي بأنه يجوز أن يصدر لمجموعة من الجنود المرتزقة أمراً بدفع نسبة معينة من رواتبهم قبل أن يستحقوها فعلاً وهو ما يسمى بالتلميظ أي أنهم قد أعطوا ذلك تلميظاً (تذوقاً)[١٤٩] كما يجوز أن تدفع للجند رواتبهم مقدماً وهو ما يسمى بالسلف[١٥٠] إلا أن هذين النوعين من الدفع تسجل ديناً على الجند إذ يجرى بعد ذلك اسقطاعها من رواتبهم وهو ما يسميه الخوارزمي بالمقاصة[١٥١] .

لقد اتبعت في عهد الخليفة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠هـ) طريقة جديدة لدفع رواتب الجند ، اتخذت شكل التسبيب ويعني أن راتب الجندي يسبب إلى مصدر الضريبة التي ثبت مسبقاً أنه من غير الممكن جمعها ، فيساعد الجندي العامل على

استحصال تلك الضريبة[١٥٢] وكما يشير لوكا جارد فان هذه الطريقة أي التسبيب يعود إلى الجانب المظلم من الإدارة العباسية ، وتستدعي الضرورة إليه أما عندما لا تستطيع خزينة الدولة أن تلبي جميع التزاماتها المالية ، وبذلك تخول أصحاب الرواتب أن يقوموا بفعل مباشر للحصول على مالهم أو عند ما لم تعد للحكومة المركزية سلطة كافية في الأقاليم لجمع الضرائب بنفسها ، كما يشير استخدام الخوارزمي لمصطلح «المال المتعذر »[١٥٣] فتضطر الدولة حينئذ إلى إحالة العسكريين إلى تلك الأقاليم للنهوض بعملية الجباية لكي يتسنى لهم تسلم رواتبهم من الأراضي الزراعية مباشرة[١٥٤] .

ونلمح في عهد الخليفة المقتدر بوادر الاقطاع العسكري ، فكان يمنح لقواد الاتراك وغيرهم من الجند اقطاعات واسعة ، وحدث هذا نتيجة للأزمة المالية التي شهدتها الخزينة المركزية في أيامه ، وعجز الدولة عن دفع رواتب الجند ، ولم يكن الاقطاع العسكري وراثياً ، ولا يعد ملكاً لصاحبه وإنما يمنح ليعوض وارده الراتب الذي لا تستطيع الدولة دفعه له[١٥٥] .

الهوامش

١- لقد تناولت موضوع العطاء في العهدين الراشدي والأموي ، فضلاً عن موضوع رواتب الجيش في العهد العباسي الأول وحددت مفهومي الرزق والمرتزقة وذلك في أطروحتي الموسومة « نظام العطاء الإسلامي / دراسة في نشأته وتطوره ١٥ - ٢١٨هـ » رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب ، جامعة الموصل - ١٩٨٥م .

٢- الجنابي ، خالد جاسم ، تنظيمات الجيش في العصر العباسي الثاني (٢١٨ - ٣٣٤هـ) ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد - ١٩٨٩م ، صحيفة ٨٦ - ٩٩ .

٣- الزمخشري ، محمود بن عمر ، أساس البلاغة ، دار صادر ، بيروت - د.ت ، ص ٦٩ .

٤- المصدر نفسه ، ص ٤٧٠ .

٥- الخوارزمي ، محمد بن أحمد بن يوسف ، مفاتيح العلوم ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي ، ط٢ ، بيروت - ١٩٨٩م ، ص ٩٠ .

٦- انظر ، الصولي ، أبو بكر محمد بن يحيى ، أخبار الراضي بالله والمتقي لله باعتناء ج.هيورث . دن ، دار المسيرة ، ط٢ ، بيروت - ١٩٧٩م ، ص ١٠٧ . مسكويه ، أحمد بن محمد ، تجارب الأمم ، باعتناء امدروز ، شركة التمدن الصناعية ، القاهرة - ١٩١٥م ، ج١ ، صحيفة ٢٥٥ - ٣٨٤ ، ج ٢ - ص ٤٠ .

٧- الفراهيدي ، الخليل بن أحمد ، العين ، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي ، بغداد ، ١٩٨٢ ، ج ٥ ، ص ٣٤٢ .

٨- البلاذري ، أحمد بن يحيى ، فتوح البلدان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٧٨م ، ص ٤٢٠ ، شعيرة ، محمد عبد الهادي ، المرابطون في الثغور البرية العربية الرومية عند جبال الطوروس في صدر الدولة العباسية ، من كتاب إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ١٥٦ .

٩- المخزومي ، أبو الحسن علي بن عثمان ، ديوان الجيش ، مجلة الاجتهاد ، العدد الأول ، بيروت ، ١٩٨٨ ، ص ٣٠٧ .

١٠- الماوردي ، علي بن محمد بن حبيب ، الأحكام السلطانية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٧٨م ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

١١- أبو يوسف ، يعقوب بن إبراهيم ، الخراج ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٧٩م ، ص ١٧٥ .

١٢- ياقوت ، الحموي ، معجم الأدباء ، دار الفكر ، ط ٣ ، بيروت ، ١٩٨٠م ، ج١٤ ، ص ١٨٩، ابن وهب الكاتب ، اسحاق بن إبراهيم بن سليمان ، البرهان في وجوه البيان ، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٦٧م ، ص ٣٦٥ .

١٣- ابن وهب الكاتب ، المصدر السابق ، ص ٣٦٥ - ٣٦٧ .

١٤- مسكويه ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ٢٥٥ ، ٢٦٧ . الخوارزمي ، المصدر السابق ، ص ٨٢.

١٥- المخزومي ، المصدر السابق ، ص ٣٠٩ .

١٦- ابن أبي اصيبعة ، أحمد بن القاسم الخزرجي ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تحقيق نزار رضا ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د.ت ، ص ٢٢١ .
١٧- الصولي ، أخبار الراضي والمتقي ، ص ١٠٧ .
١٨- انظر مسكويه ، المصدر السابق ، ح٢ ، ص ١٧٤ .
١٩- شاكر مصطفى ، دولة بني العباس ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٧٣م ، ج١ ، ص ٦٣٨.
٢٠- المسعودي ، علي بن الحسين بن علي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط٥ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٣م ، ج٣ ، ص ٤١١ .
٢١- أبو يوسف ، يعقوب بن إبراهيم ، الرد على سهير الاوزاعي ، باعتناء أبو الوفا الأفغاني ، نشر لجنة احياء المعارف النعمانية بحيدر أباد الدكن ، الهند - د.ت ، ص ٢٢ - ٢٣ . المخزومي ، المصدر السابق ، ص ٣١٠ .
٢٢- المصدر نفسه ، ص ١٧ .
٢٣- الطبري ، محمد بن جرير ، تأريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة - ١٩٦٦م ، ج٢ ، ص ٣١٩ . التنوخي ، المحسن بن علي ، الفرج بعد الشدة ، المكتبة العلامية ، القاهرة - ١٩٣٨م ، ج٢ ، ص ٣١ - ٣٢ . الماوردي ، المصدر السابق ، ص ٢٠٦ .
٢٤- ابن وهب الكاتب ، المصدر السابق ، ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .
٢٥- الماوردي ، المصدر السابق ، ص ٢٠٥ .
٢٦- ابن وهب الكاتب ، المصدر السابق ، ص ٣٦٣ .
٢٧- البوزجاني ، أبو الوفاء ، علم الحساب العربي ، تحقيق أحمد سعيدان عمان - ١٩٧٢م ، ص ٣٤٢ .
٢٨- ابن أبي أصيبعة ، المصدر السابق ، ص ٢٢١ - ٢٢٢ .
٢٩- نفس المصدر السابق .
٣٠- الطبري ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١١٧ .
٣١- التنوخي ، فرج ، ج ٢ ، ص ٥ .
٣٢- مسكويه ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٨٤ .
٣٣- أخبار الدولة العباسية ، مؤلف مجهول ، تحقيق عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي ، دار الطليعة ، بيروت - ١٩٧١م ، ص ٣٧٦ .
٣٤- نفس المرجع السابق .
٣٥- انظر الجاحظ ، عثمان بن عمرو ، رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد الأمير مهنا ، دار الحداثة ، بيروت - ١٩٨٨م ، ج٢ ، ص ١٣٢ .
٣٦- ياقوت ، المصدر السابق ، ج٦ ، ص ٢٤٥ .
٣٧- مسكويه ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ٣٧٤ .
٣٨- كاهن ، كلود ، تأريخ العرب والشعوب الإسلامية ، ترجمة بدر الدين القاسم ، دار الحقيقة ، ط٢ ، بيروت ١٩٧٧م ، ص ٢٠٧ .
٣٩- الصولي ، أخبار الراضي والمتقي ، ص ١٠٧ .

٤٠- المصدر نفسه ، ص ٢٧٠ .
٤١- أخبار الدولة العباسية ، مؤلف مجهول ، ص ٣٧٦ . البلاذري ، أنساب الاشراف ، القسم الثالث ، تحقيق عبد العزيز الدوري ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت - ١٩٧٨م ، ص ١٠٧ ، الطبري ، المصدر السابق ، ج ٨ ، صحيفة ٤٠٥ - ٤١٥ ، ٤٤٢ - ٤٤٣ .
٤٢- الطبري ، المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٦٥٥ .
٤٣- انظر البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج ١١ ، ليدن - ١٨٨٣م ، ص ٣٧٣ . ابن الجوزي ، المنتظم في تأريخ الملوك والأمم ، مخطوطة في المجمع العلمي العراقي تحت رقم ٧٨٣ - ٧٩٣، ج٦ ، ص ١٤٤ .
٤٤- الصابي ، هلال بن المحسن ، الوزراء ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار أحياء الكتب العربية ، القاهرة - ١٩٥٨م ، ص ٢١ . آشتور ، آ ، التأريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى ، ترجمة عبد الهادي عبلة ، دار قتيبة ، دمشق - ١٩٨٥م ، ص ١٦٦ .
٤٥- الصولي ، قطعة نادرة من كتاب الأوراق ، تحقيق هلال ناجي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد - ١٩٩٠م ، ص ٣٣ . مسكوية ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٣ . فهمي عبد الرزاق سعد ، العامة في بغداد ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت - ١٩٨٣م ص ٢٠١ .
٤٦- المصدر نفسه ، ص ٣٣ .
٤٧- غرس النعمة ، محمد بن هلال ، الهفوات النادرة ، تحقيق صالح الأشتر ، دمشق - ١٩٦٧م ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .
٤٨- الصولي ، قطعة نادرة ، ص ٣٣ .
٤٩- الصابي ، المصدر السابق ، ص ١٦٤ .
٥٠- مسكويه ، تجارب الأمم ، ج ١ ، ص ٣٨٤ .
٥١- الخوارزمي ، المصدر السابق ، ص ٩٠ .
٥٢- الصولي ، أخبار الراضي والمتقي ، ص ٢٢٦ ، مسكويه ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٠ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، الهمذاني ، محمد بن عبد الملك ، تكملة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة - ١٩٦٦م ، ص ٢٠٨ - ٢١١ .
٥٣- الصولي ، قطعة نادرة ، ص ٣٤ - ٣٦ ، ٤٥ . مسكويه ، ج١ ، ص ١٩٩ ، الهمذاني ، المصدر السابق ، ص ٢٦٣ .
٥٤- مسكويه ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .
٥٥- الرذراوري ، أبو شجاع ، محمد بن الحسين ، ذيل تجارب الأمم ، باعتناء آمدروز ، شركة التمدن الصناعية ، القاهرة - ١٩١٦م ، ص ٤٣ .
٥٦- انظر الجاحظ ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١٣٢ - ١٣٣ .
٥٧- الصولي ، قطعة نادرة ، ص ٤٧ ، الصابي ، المصدر السابق ، ص ١٧ - ١٩ ، ابن وهب الكاتب ، المصدر السابق ، ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .
٥٨- الصابي ، الوزراء ، ص ١٦٤ ، الماوردي ، المصدر السابق ، ص ٢٠٦ .
٥٩- اليعقوبي ، البلدان ، بعناية دي غويه ، ليدن - ١٨٩٢م ، ص ٢٥٩ .
٦٠- الطبري ، تأريخ ، ج ٩ ، ص ٢١٠ .

٦١- المصدر نفسه ، ج ٩ ، ٢٨٣ .
٦٢- الصابي ، المصدر السابق ، ص ٣١٦ ، ٣٤٠ ، مسكويه ، المصدر السابق ج ١ ، ص ١٥٢.
٦٣- الطبري ، المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ١٨٧ ، ١٨٨ .
٦٤- شعبان محمد عبد الحي ، الدولة العباسية ، الاهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨١م ، ص ٤٣ ، وانظر ابن الآبار ، أبو عبد الله بن محمد بن أبي بكر القضاعي ، اعتاب الكتاب ، تحقيق صالح الأشتر ، دمشق - ١٩٦١م ، ص ١٣٠ اليعقوبي ، تأريخ ، ج٣ ، ص ٢٠٨ . الطبري ، المصدر السابق ج٩ ، ص ٢٨٤ ، مسكويه ، ج١ ، ص ٢٤١ .
٦٥- الهمذاني ، المصدر السابق ، ص ٢٧٤ ، ٢٧٨ .
٦٦- انظر الطبري ، تأريخ ، ج ٨ ، ص ١٧٢ ، ١٨٧ ، ٢٣١ ، ٤١٢ ، ج٩ ، ص ١٠٩ ، ٥٤ ، ٥٥ .
٦٧- التلمحري ، ديونوسيوس ، تأريخ الأمم ، عربة عن السريانية سهيل قاشا ، (الترجمة لم تنشر بعد) ، ص ١٤١ .
٦٨- المسعودي ، مروج ، ج ٤ ، ص ٦٦ .
٦٩- الطبري ، المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٥٤ .
٧٠- الشابشتي ، أبو الحسن علي بن محمد ، الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، ط ٣ ، دار الرائد العربي ، بيروت - ١٩٨٦ ، ص ١٤١ .
٧١- المسعودي ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٦٦ .
٧٢- الطبري ، المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٤٤٤ - ٤٤٦ .
٧٣- المصدر نفسه ، ج ٩ ، ص ١٧ ، المسعودي ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٦٤ . التنوخي ، نشوار المحاضرة ، تحقيق عبود الشالجي ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧١م ، ج٨ ، ص ٩٨ ، ٩٩ ، العيون والحدائق ، مؤلف مجهول تحقيق عمر السعيدي ، دمشق - ١٩٧٢م ، ج ٤ ، قسم ١ ، ص ١٩٤ ، مسكويه المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٧٤ ، البوزجاني ، المصدر السابق ، ص ٣٤٣ ، ٣٤٤ . الصابي ، المصدر السابق ، ص ٣٨١ ، بورورث ، سي ، أي ، التنظيم العسكري عند البويهيين في العراق وإيران ، ترجمة عبد الجبار ناجي ، مجلة المورد م٤ ، العدد الأول ، بغداد - ١٩٧٥م ، ص ٥٠ .
٧٤- الصابي ، الوزراء ، ص ٣٠٩ .
٧٥- المصدر نفسه ، ص ٢٨٩ .
٧٦- عريب ، بن سعد القرطبي ، صلة تأريخ الطبري ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، المصدر السابق ، ص ٣٤٤ ، ٣٤٥ .
٧٨- الصابي ، الوزراء ، ص ١٨ - ١٩ .
٧٩- انظر اطروحتي ، الاقطاع في العصر العباسي ، دراسة في انماطه وإدارته ، ١٣٢ - ٤٤٧هـ ، كلية الآداب ، جامعة الموصل - ١٩٩٢م ، ص ٧٠ - ٧٢ ، ٨٣ .
٨٠- ابن العمراني ، محمد بن علي بن محمد ، الانباء في تأريخ الخلفاء ، تحقيق قاسم السامرائي، ليدن ، ١٩٧٣م ، ص ١٣١ .
٨١- الطبري ، تأريخ ، ج ٩ ، ص ٤٤٤ ، ٤٤٤٦ ، ٤٤٩ .
٨٢- التوشخي ، ابو بكر محمد بن جعفر ، تأريخ بخاري ، ترجمة أمين عبد المجيد بدوي ، نصر

الله مبشر الطرازي ، دار المعارف ، القاهرة - ١٩٦٥م ، ص ٢٩ ، ابن اسفنديار ، بهاء الدين محمد بن حسين الكاتب ، تأريخ طبرستان ، طهران ١٣٢٠هـ ، ج١ ، ص ٧٥ ، الطبري ، المصدر السابق ، ج٩ ، ص ٦٢٠ ، البلوى ، أحمد بن محمد ، سيرة أحمد بن طولون ، تحقيق محمد كرد علي ، دمشق - ١٣٥٨هـ ، ص ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٤ .

٨٣- مسكويه ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ٨٧ ، ١٢٢ ، ٣٥٨ ، العيون والحدائق مؤلف مجهول، ج ٤ ، قسم ١ ، ص ٢٦٤ .

٨٤- ابن وهب الكاتب ، البرهان ، ص ٣٦٤ ، ٣٦٥ .

٨٥- الطبري ، المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٣٢٣ ، الماوردي ، المصدر السابق ، ص ٢٠٦ .

٨٦- آشتور ، المرجع السابق ، ص ١٦٦ - ١٦٧ .

٨٧- ابن وهب الكاتب ، المصدر السابق ، ص ٣٦٨ ، الصابي ، المصدر السابق ، ص ٣٦٨ ، الصابي ، المصدر السابق ، ص ٣٨ بوزورث ، المرجع السابق ، ص ٤٨ .

٨٨- المسعودي ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٥٣ ، الطبري ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٦٨ .

٨٩- مسكويه ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٩ ، الصولي ، أخبار الراضي والمتقي ، ص ٢٢٢ .

٩٠- انظر الماوردي ، المصدر السابق ، ص ٢٠٥ .

٩١- الطبري ، المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٣٥٧ ، مسكويه ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ٢٥٥ ، الصابي ، المصدر السابق ، ص ١٧ - ١٨ ، ابن أبي اصيبعة ، المصدر السابق ، ص ٢٢٥ ، الخوارزمي ، المصدر السابق ، ص ٨٢ .

٩٢- ابن وهب الكاتب ، المصدر السابق ، ص ٣٦٥ ، ٣٦٧ .

٩٣- قدامة بن جعفر ، المصدر السابق ، ص ٢٣ ، ٢٦ - ٢٩ .

٩٤- انظر الطبري ، المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٥٥٠ ، ابن الأثير ، الكامل في التأريخ ، دار صادر بيروت - ١٩٦٥م ، ج ٦ ، ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

٩٥- ابن وهب الكاتب ، البرهان ، ص ٣٦٥ .

٩٦- قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ٢١ ، ابن وهب الكاتب ، المصدر السابق ، ص ٣٦٧ - ٣٦٨.

٩٧- البوزجاني ، المصدر السابق ، ص ٣٤٢ - ٣٤٣ .

٩٨- قدامة بن جعفر ، المصدر السابق ، ص ٣١ .

٩٩- ابن وهب الكاتب ، المصدر السابق ، ص ٣٦٧ - ٣٦٨ .

١٠٠- الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، ص ٨٣ .

١٠١- ابن الآبار ، المصدر السابق ، ص ١٥٧ ، وكان محمد بن عبد الملك الزيات وزيراً ، لكل من المعتصم والوثق .

١٠٢- الخوارزمي ، المصدر السابق ، ص ٨٣ .

١٠٣- الاصفهاني ، أبو الفرج ، الاغاني ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ، بيروت - د.ت. ، ج ١٨ ، ص ٤٣ .

١٠٤- قدامة بن جعفر ، المصدر السابق ، ص ٣٦ .

١٠٥- الصابي ، المصدر السابق ، ص ٢٥٧ .

١٠٦- ابن وهب الكاتب ، البرهان ، ص ٣٦٨ ، ابن عماتي ، الأسعد ، قوانين الدواوين ، تحقيق

عزيز سوريا عطيه ، مطبعة مصر ، القاهرة ، ١٩٤٣م ، ص ٣٠٦ .
١٠٧- مسكويه ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٧١ .
١٠٨- التنوخي ، فرج ، ج ٢ ، ص ٣١ - ٣٢ .
١٠٩- قدامة بن جعفر ، المصدر السابق ، ص ٣٠ .
١١٠- البلاذري ، فتوح ، ص ٢٣٥ ، المسعودي ، المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٦٥ ، الهرثمي ، صاحب المأمون ، مختصر سياسة الحروب ، تحقيق عبد الرؤوف عون المؤسسة المصرية العامة ، القاهرة ، ١٩٦٤م ، ص ٣٨ ، ابن وهب الكاتب ، المصدر السابق ، ص ٣٦٨ . الخوارزمي ، المصدر السابق ، ص ٨٢ ، الصابي ، المصدر السابق ، ص ١٥٨ ، مسكويه ، المصدر السابق، ج١ ، ص ١٥٣ .
١١١- ابن وهب الكاتب ، المصدر السابق ، ص ٣٦٨ .
١١٢- الروذراوري ، المصدر السابق ، ص ٤٣ .
١١٣- الكرديزي ، أبو سعيد عبد الحي ، زين الأخبار ، تعريب محمد بن تاويت ، مطبعة محمد الخامس الجامعية والثقافية ، فاس - ١٩٧٢م ، ج١ ، ص ١٨ ، ابن خلكان ، شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ، وفيات الأعيان وانباء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت - ١٩٧٢م ، ج ٦ ، ص ٤٢١ - ٤٢٢ . وعن العارض انظر أيضاً ، الثعالبي ، عبد الملك بن محمد (منسوب) . تحفة الوزراء ، تحقيق حبيب علي الراوي وابتسام مرهون الصفار ، مطبعة العاني ، بغداد - ١٩٧٧م ، ص ٧٩ .
١١٤- ابن وهب الكاتب ، المصدر السابق ، ص ٣٦٨ .
١١٥- الكرديزي ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٨ .
١١٦- غرس النعمة ، المصدر السابق ، ص ٢٤٦ ، مسكويه ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٦٥ ، ١٧١ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٢٢م ، ج ٥ ، ص ٤٦٦ ، البوزجاني ، المصدر السابق ، ص ٣٣١ - ٣٤١ .
١١٧- الدوري ، عبد العزيز ، تأريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ، ط٢ ، دار المشرق، بيروت - ١٩٧٤م ، ص ٢٠٧ - ٢٠٩ .
١١٨- الصابي ، الوزراء ، ص ٣٧٧ .
١١٩- ابن وهب الكاتب ، البرهان ، ص ٣٦٨ ، الصابر ، المصدر السابق ، ص ١٦٤ - ١٦٥ ، مسكويه ، تجارب الأمم ، ج١ ، ص ٣٥٧ .
١٢٠- ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٤٢٢ ، ابن وهب الكاتب ، المصدر السابق ص ٣٦٥.
١٢١- ابن وهب الكاتب ، المصدر السابق ، ص ٣٦٤ .
١٢٢- الصابي ، المصدر السابق ، ص ٢٦ .
١٢٣- قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ٣٠ .
١٢٤- النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، القاهرة ، د.ت ، ج ٨ ، ص ٢٠١ .
١٢٥- انظر الاصفهاني ، المصدر السابق ، ج١١ ، ص ١٥٨ .
١٢٦- ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ص ٣٥٥ .

١٢٧- الصابي ، الوزراء ، ص ٣٧٧ .
١٢٨- ابن مماتي ، المصدر السابق ، ص ٣٥٥ ، انظر ابن وهب الكاتب ، المصدر السابق ، ص ٣٦٨.
١٢٩- الصابي ، الوزراء ، ص ٣٧٧ .
١٣٠- ابن وهب الكاتب ، المصدر السابق ، ص ٣٦٨ .
١٣١- الخوارزمي ، المصدر السابق ، ص ٨٢ .
١٣٢- الطبري ، المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٤٣٥ ، ج ٨ ، ص ٥٥٠ ، ٦٣١ . أخبار الدولة العباسية ، مؤلف مجهول ، ص ٢٧٦ .
١٣٣- ابن خرداذبة ، عبيد الله بن عبد الله ، المسالك والممالك باعتناء دي غويه ، ليدن - ١٨٨٩م، ص ٨ وما بعدها . الصابي ، الوزراء ، ص ١٥ .
١٣٤- انظر الصابي ، الوزراء ، ص ١٥ - ٢٧ .
١٣٥- انظر الطبري ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ٢٠ ، التنوخي ، نشوار ، ج ٨ ، ص ١٨٢ .
١٣٦- انظر الجاحظ ، البلدان ، تحقيق صالح أحمد العلي ، (مستل عن مجلة كلية الآداب) ، بغداد - ١٩٧٠م ، ص ٥٠٣ .
١٣٧- انظر الصابي ، الوزراء ، ص ١٥ وما بعدها .
١٣٨- الصابي ، رسوم دار الخلافة ، ص ٢٢ - ٢٤ .
١٣٩- أخبار الدولة العباسية ، مؤلف مجهول ، ابن قتيبة ، منسوب ، ص ٢٧٦ ، الامامة والسياسة، مطبعة الفتوح الأدبية ، القاهرة ، ١٣٣١هـ ، ج ٢ ، ص ١٣١ .
١٤٠- العلي ، صالح أحمد ، بغداد ، مدينة السلام ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٨٥م ، ج١ ، ص ١٧٧ .
١٤١- انظر اليعقوبي ، تأريخ ، النجف ، ١٣٥٨هـ ، ج ٣ ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .
١٤٢- عن هذه الإشارات انظر ، الجنابي ، خالد جاسم ، تنظيمات الجيش العباسي في العصر العباسي الثاني ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد - ١٩٨٩م ، ص ٩٤ - ٩٩ .
١٤٣- البيهقي ، إبراهيم بن محمد ، المحاسن والمساوئ ، دار صادر ودار بيروت - ١٩٦٠م ، ص ٢٩٢ .
١٤٤- ابن الأزرق ، أبو عبد الله الأزرق ، بدائع السلك في طبائع الملك ، تحقيق سامي نشار ، دار الحرية للطباعة ، بغداد - ١٩٧٧م ، ج١ ، ص ١٩٧ .
١٤٥- التنوخي ، فرج ، ج ٢ ، ص ٣١ .
١٤٦- ابن وهب الكاتب ، البرهان ، ص ٣٦٣ .
١٤٧- المصدر نفسه ، ص ٣٦٤ .
١٤٨- المصدر نفسه ، ص ٣٦٤ ، قدامة بن جعفر ، المصدر السابق ، ص ٣١ - ٣٢ .
١٤٩- الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، ص ٩١ .
١٥٠- الروذراوري ، المصدر السابق ، ص ٤٦ ، الخوارزمي ، المصدر السابق ، ص ٩١ .
١٥١- الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، ص ٩١ .
١٥٢- المصدر نفسه ، ص ٨٨ .
١٥٣- Lokkegaard, F. Islamic Taxation in the Classic Period,

Copenhagen, 1950, p.63-64.

الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، ص ٨٨ .

١٥٤- مسكويه ، تجارب الأمم ، ج١ ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ٢٦٥ ، ٣٠٨ ، ٣٢١ .

١٥٥- الصولي ، قطعة نادرة ، ص ٤٠ - ٤١ ، مسكويه ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٩ .

Kremer , A., The Orient Under the Caliphs, Translated by Khuda Bukhsh, Calcuta, 1920. p. 362-63.

ويطلق الماوردي ، احكام ، ص ١٩٥ على هذا النوع من الاقطاع « اقطاع الاستغلال » ويعرف بأنه « هو الذي يؤخذ فيه خراج الأرض ورقبتها (ملكيتها) باقية لبيت المال » القلقشندي ، مآثر الانافة في معالم الخلافة ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، الكويت ، ١٩٦٤م ، ج٣ ، ص ٢١٠ .